

لُطَيْفَةُ الزُّبَارَات

البواب المفتوح

رواية

مكينة علي بن صالح الرقمية

لَطِيفَةُ الزِّيَّات



البَابُ الْمَفْتُوح

رواية

1960



كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

الباب المفتوح

كانت الأمسية، أمسية ٢١ فبراير ١٩٤٦، والساعة السابعة، والهواء ساكن، فيه برودة محببة، والجو نظيف كما لو كانت السماء قد أمطرت وغسلت الأرض، والقاهرة على غير عهدا لا تتلأأ بالأنوار، والناس على غير عهدهم لا يزدحمون في شوارعها الرئيسية، يدخلون دور السينما والمحال العامة ويخرجون منها ويتوقفون عند محطات الأتوبيس والترام.

كانت دور السينما مُضربة، وكذلك المحال العامة والأتوبيس والترام. وسيارات البوليس تمر في الشوارع ببطء محملة بجنود مسلحين بالبنادق، والمارة قلائل، جماعات من اثنين أو ثلاثة أو أربعة يسيرون في الشوارع في بطء أو يقفون عند مفارق الطرق ويتحدثون. يتحدثون بلهجات متباينة، وبمستويات لغوية مختلفة، ولكن الحديث يدور حول نفس الموضوع، حول ما حدث في الصباح في ميدان الإسماعيلية:

كانت دور السينما مُضربة، وكذلك المحال العامة والأتوبيس والترام. وسيارات البوليس تمر في الشوارع ببطء محملة بجنود مسلحين بالبنادق، والمارة قلائل، جماعات من اثنين أو ثلاثة أو أربعة يسيرون في الشوارع في بطء أو يقفون عند مفارق الطرق ويتحدثون. يتحدثون بلهجات متباينة، وبمستويات لغوية مختلفة، ولكن الحديث يدور حول نفس الموضوع، حول ما حدث في الصباح في ميدان الإسماعيلية:

- يا سيدي التصادم ما جاش صدفة، التحرش كان مقصود، مظاهرة من ٤٠٠٠٠ شخص، مظاهرة قائمة أساساً ضد الإنجليز، يقوم الإنجليز يخرجوا لها خمس عربيات مسلحة تمر وسطها!

- فوتك إنت، إحنا برضه بلد الجدعنة، العربية دهست الواد من هنا والتلاميذ رفعوا قميصه بالدم، والخلق تقولش اتجننت، هجمت على عربيات الإنجليز فرتكتها، وبقوا يرموا جنتهم على مدافع الإنجليز، تقولشي مدافع حلوة!

- أنا شخصياً أعتقد إن المظاهرة دي كانت مرحلة جديدة من مراحل كفاحنا الوطني، أول حاجة اصطدام مباشر مع الإنجليز، تاني حاجة الجيش امتنع عن تفريق المظاهرة، ومش بس كده، عربيات الجيش كانت ماشية في البلد وعليها شعارات وطنية.

- ثم اشتراك العمال مع الطلبة والشعب كله.

- باقول لك أنا دي بلد الجدعنة، دا حتى النسوان خرجت من بيوتها.. شفت النسوان في باب الشرعية؟!

- المهم السلاح، الرصاص كان نازل من المعسكرات والشعب أعزل، لو كان الشعب مسلح!

- طيب شفت يا ابني الطوب لما نزل على الإنجليز زي المطر، يا خويا أنا باستعجب الخلق جاب الطوب دا كله منين؟!
- طيب ولما ولعوا النار في الحواجز إلكي الإنجليز مستخبية وراها!
- الواد من دول كان يقلع جلابيته ويغرقها في البنزين ويولعها النار تشعل، حتاكل جتته ولا يهمه، ويزحف والرصاص نازل عليه زي المطر ولا يهمه، ويزحف هاجم على...
- الهجوم النهارده ما كانش موجه ضد الإنجليز بس، الهجوم كان ضد الإنجليز والملك وعملاء الاستعمار على العموم، ودي مرحلة جديدة من مراحل الوعي الوطني، دا رأيي أنا شخصيًا.
- أنا شخصيًا لو عشت ميت سنة مش حانسى المنظر إلكي شفته في سليمان باشا.
- أعلام.. أعلام من دم، دم إلكي ماتوا وانجرحوا عشان مصر.
- ٢٣ ماتوا و ١٢٢ انجرحوا.

* * *

وبالنسبة لهؤلاء الناس كانت المعركة قد انتهت والمكاسب والخسائر قد تحددت، ولكن المعركة لم تكن قد انتهت بعد، ولا تحددت الخسائر بالنسبة لعائلة محمد أفندي سليمان الموظف بالمالية والذي يسكن بالمنزل رقم ٣ بشارع يعقوب بالسيدة زينب.

وفي الصالة على كرسي أسيوطي مواجه للباب الخارجي، جلس سليمان أفندي يتمم بآيات قرآنية، ويتوقف ما بين الحين والحين ليرهف السمع لخطوات على السلم تقترب من باب الشقة، ويركز عينيه الرماديتين على الباب ويجمد وجهه، ولكن الخطوات ما تلبث أن تتجاوز باب الشقة إلى الأدوار العليا، وتتهدل كنفاه ويشد وجهه الأبيض شحوبًا وتبدو فيه نقط حمراء ثم يعود يتمم بالآيات القرآنية.

وفي نافذة حجرة الاستقبال المجاورة للصالة وقفت زوجته، سيدة بيضاء مليحة ممثلة قصيرة، وقد تدلى نصفها الأعلى من النافذة، وتركز كيانه في عينيها الصغيرتين العسليتين.. عينيها اللتين تدوران في محجريهما إلى اليمين وإلى الشمال، وتمتدان حتى تكادا تخترقان ظلمة الطريق.

وفي وسط حجرة الاستقبال أمام مائدة مستديرة وقفت ليلي، فتاة في الحادية عشرة من عمرها، سمراء، مليئة، ويدها تعبت في حركة آلية بصندوق خشبي للسجائر، وعيناها اللامعتان تنظران بعيدًا.. إلى لا شيء. وطرقت ليلي غطاء صندوق السجائر في عنف، وسارت إلى الصالة في خطوات ثابتة، وجاوزت أباهما حيث يجلس، واتجهت إلى باب الشقة ووضعت يدها على المزلاج.

وارتجفت شفتا الأب وشحب وجهه ورفع إليها عينيها باهتتين كأنهما عينا ميت، وقال بصوت مختنق:

- رايحة فين؟

وقالت هي بصوت فيه نبرة تحدّ:

- رايحة أفنش على محمود.

ولمعت عينا الأب الرماديتان وهلة، ثم أغمضهما وقال في صوت متهالك:

- امشي ادخلي جوّه.

وعزز كلامه بإشارة من يده وكأنما شعر بضعفه. واقتربت منه ليلي، ووقفت إلى جانبه، وأرادت أن تقول له شيئاً ولكنها لم تستطع، ومدت يدها تريد أن تضعها على كتفه، ولكن يدها وقفت في منتصف الطريق وبقيت وهلة مُعلّقة في الهواء ثم سقطت إلى جانبها.. وجرت ليلي والدموع تغطي عينيها إلى أمها في حجرة الاستقبال، وأمسكت بذراعها وهمست:

- ماما.. ماما.

وارتجفت الأم وكأن تياراً كهربائياً قد مسها، واستدارت وقد ارتسم الرعب على وجهها تقول في صوت ملهوف:

- إيه؟ فيه إيه؟

ما تخافيش يا ماما، ما تخافيش . أنا عارفة إن محمود بخير.

دلوقتي يبجي، ضروري يبجي، ضروري ضروري، الصبح... وخنقتها الدموع ولم تستطع أن تُكمل.

وتلملم أبوها في جلسته...

- الصبح، الصبح قلت له: ((ما تخرجش يا محمود)). وعند الباب وقف: ((ما تخافش يا بابا، دي مظاهرة سلمية)). ((يعني المظاهرة مش حنقوم من غيرك؟)). وضحك محمود وقال: ((طيب يا بابا لما كل واحد يقول كده، ما هي ما تقومش فعلاً)). ((إنت صغير، لما تبقى تروح الجامعة ابقى اعمل إللي إنت عايز تعمل)). ((أنا مش عيل، أنا في رابعة ثانوي، وعندي النهارده ١٧ سنة)).

وجز الأب على شفته السفلى بأسنانه، لو ضربه، لو حبسه، لو رماه في حجرة وأخذ مفتاحها لعرف مكانه الآن على الأقل. لو بلغ البوليس الآن لقبض عليه، ولو قبض عليه .. إنه صدقي، صدقي باشا الذي يدفن الناس أحياء ! ولكن ماذا يعمل؟ قد يكون مجروحاً.. قد يكون...

ودمدم الأب وهو يخزي الشيطان.

وبدأت الساعة المُعلّقة في الصالة تدق، والأم تنصت لدقاتها، وتنفسها يكاد يتوقف، وأعلنت الساعة السابعة، وجمدت الأم في مكانها لحظة ثم اندفعت إلى الصالة ووقفت أمام زوجها تنظر إليه بعينين زائغتين وتقول:

- الولد راح! راح خلاص! راح!

وهي تضرب كفاً بكف دون أن يسمع للضربة صوتاً.
وفجأة اكتسبت ملامحها اللينة الضعيفة صرامة غريبة وهي تقول:
- إن ما كنتش حتنزل...

وماتت الكلمات على شفتي الأم، وقام الأب من مكانه مضطرباً.. على السلم اتضحت خطوات،
خطوات أكثر من شخص، خطوات ثقيلة بطيئة، خطوات ترحف.. وجرت ليلى إلى الباب وخلفها
الأب واندفعت إلى السلم وصرخت:
- محمود!

وفقدت الأم توازنها وكادت تسقط ولكنها استندت إلى حافة المقعد.
وعندما دخل محمود مستنداً إلى كتف عصام سقطت على الأرض مغشياً عليها.

وفي صباح اليوم التالي طالبت ليلى أن ترى أخاها قبل أن تذهب إلى المدرسة، ونظرت إليها
أمها بعينين حمراوين منتفختين نظرة غريبة وكأنها تخفي سرّاً، وأخبرتها بصوت هامس أن محمود
ما زال نائماً، وانزعجت ليلى من نظرة أمها وطريقتها في الكلام:
- فيه إيه يا ماما؟

ومالت الأم على ليلى وقالت بنفس الصوت الهامس وقد جمدت عيناها وكأنها ترى مسدساً
مصبوباً إليها:

رصاصه، رصاصه دخلت في فخذة!

- طيب ما أنا عارفة

وتدخل الأب في المناقشة والصابون يغطي وجهه، وقال وهو يوجه الكلام إلى الأم:

- حاكم إنت تحبي تهولي كل حاجة، قلت لك الدكتور قال إنه جرح بسيط.. خدش.

وأشاحت الأم بيدها تستبعد كلام الأب، وسارت تصرف شؤون البيت على أطراف أصابعها
والنظرة الغريبة في عينيها وكأنها تخفي سرّاً.

وهزت ليلى كتفها، ووقفت أمام باب الشقة في انتظار ابنة خالتها جميلة التي تسكن في الدور
السابع من نفس العمارة، وفتحت ليلى الباب عندما لمحت يد جميلة تمتد من خلف الزجاج لتضرب
الجرس، وخرجت وأقفلت الباب خلفها في بطء وحرص شديدين.

وعلى السلم قالت جميلة:

- مالك يا ليلى؟

- مفيش.

- لا والنبي صحيح.

وخرجتا إلى الشارع في طريقهما إلى المدرسة، وقالت ليلي:

- أما امبارح كان يوم!

- ليه؟ كان فيه إيه؟

وضربت ليلي على صدرها بيدها وهي تقول:

- هوّ عصام ما قالش؟

وقالت جميلة في انزعاج:

قال إيه؟

وشردت عينا ليلي في حركة تمثيلية وهي تقول في صوت هامس:

- على إللي حصل لمحمود، محمود أخويا.

وتوقفت جميلة وقد بلغ بها الانزعاج أقصاه، وقالت:

- ماله؟ ماله محمود؟

وجمدت عينا ليلي كأنها ترى مسدسًا مصوبًا إليها، ومالت على جميلة وهي تقول بصوت هامس وببطء:

- رصاصة.. رصاصة دخلت في فخذة!

وسقطت الحقيبة من يد جميلة، ونظرت إليها ليلي لحظة ثم تابعت المشي، وجرت خلفها جميلة وأنفاسها متقطعة:

- رصاصة! والرصاصة دي جت له ازاي؟

ورفعت ليلي رأسها:

الإنجليز ضربوه.. ضربوه عشان وطني، عشان بطل!

ضربوه؟ ضربوه فين؟!

- هوّ إنت ما تعرفيش حاجة أبدًا يا جميلة! في المظاهرة بتاعة امبارح في ميدان الإسماعيلية.

والدكتور قال إيه؟ مش يمكن حاجة بسيطة؟

وأرادت ليلي أن تخبر جميلة بما قاله الطبيب وبما أكده أبوها، ولكنها رأت نظرة الخوف في عينيها والإكبار، وبدلاً من أن تقول الحقيقة قالت وهما تدخلان باب المدرسة:

- حيقول إيه؟ رصاصه!

رصاصه.. وطني.. مظاهرة.. وانتشر الخبر في المدرسة، ووجدت ليلي نفسها وهي التلميذة في أولى ثانوي موضعًا للاهتمام والإعجاب طول النهار.. البنات الكبيرات يلتفن حولها، والمدرسات يستوقفنها في الممرات يسألنها وتحيب. وانتشت ليلي وانطلقت، انطلق خيالها:

((اسمه؟))، ((محمود سليمان)). ((عمره؟))، ((١٧ سنة)). ((وما راحش المستشفى ليه يا ليلي؟))، ((يروح المستشفى ازاي، دا يقبضوا عليه)). ((أمال عمل إيه؟))، ((ساعة ما انجرح برضه فضل يضرب في الإنجليز، يضرب والدم ينزل منه، صاحبه يقول له: ((كفاية، مفيش فايذة)). وبعدين فضل وراه لغاية ما جرحه على بيته في عمارة ((أسترا))، وجاب له دكتور قريبه عشان ما حدش يعرف، وفضل مستخبي لما الدنيا تضلم، لوكان خرج في النور وهو مجروح كده.. يا خبر!)).

وفي نهاية اليوم الدراسي كان محمود أسطورة في المدرسة، كان هو الذي أشعل النار في العربات الجيب، وفي الحواجز التي اختفى خلفها الإنجليز. وهو... وهو...

وشعرت ليلي وهي تخرج من باب المدرسة بأسف لانتهاؤ اليوم الدراسي. وعند الباب استوقفتها عنايات وهي تشد على خصرها النحيل حزامًا من الجلد الأسود وترسل شعرها في خصلات على جبينها.

وتورد وجه ليلي.. كانت كل فتاة في فصلها تتمنى أن تكلمها عنايات.

وقالت عنايات وهي تعبت بطرف حذائها العالي في الرمل:

-محمود أخوكي شكله إيه يا ليلي؟

وبدا الارتباك على وجه ليلي، وقالت عنايات:

-يعني أسمر، أبيض، طويل، قصير؟

-لا هو أسمر ولا أبيض، ولا هو طويل ولا قصير.

وضحكت عنايات ومالت برأسها إلى كتفها:

-حلو!

واحمر وجه ليلي ثم رفعت وجهها مبتسمة في تحد:

-زي القمر.

ولتدل على كلامها أبرزت صورة محمود من الحلية المعلقة في صدرها.

ودرست عنايات الصورة في تمن ثم ضمت شفثيها وقالت:

- مش بَطال، جَذاب.
- وأخذت ليلي الحلية ولبستها في رقبتها وهي تنتظر إلى الأرض، ثم رفعت رأسها فجأة:
- حاقول لمحمود، عنايات بتقول عليك جذاب.
- وهوَّ محمود يعرفني منين؟
- كل طلبة الخديو إسماعيل بيعرفوك، وكمان بيقلولوا إنك ملكة جمال السَّنية.
- وضحكت عنايات في رضا، ثم قرصت خد ليلي:
- إوعي يا ليلي.. أحسن أزعل منك.
- ودبت ليلي على الأرض بقدمها:
- حاقول، حاقول.
- وانطلقت تجري إلى البيت واندفعت إلى حجرة محمود:
- محمود...محمود...



- ولم تكمل، شعرت أن الجو مكهرب، كان محمود نائمًا على جنبه مواجهًا للحائط وعيناه مسمرتان عليه، وكأنه لم يتحرك منذ الأمس، لم يغير موضعه. وعصام ابن خالتها يجلس على حافة السرير وهو يحك ذقنه بيده، وإلى جانبه وقفت أمها وفي يدها كوب من الليمون. وقالت الأم:
- قوم يا ابني، قوم بل ريقك.
- ولم يبذُ على محمود ما يدل على أنه قد سمع.
- وتقدمت الأم ووضعت الليمون على مائدة قريبة، ومالت على السرير ومدت يدها تتحسس جبين محمود:
- مالك يا ابني؟ طمني؟ فيك إيه؟ حاسس بايه؟
- واربد وجه محمود وقال دون أن يستدير:
- مفيش.
- مفيش ازاي؟
- والتفتت الأم إلى عصام:
- عابجك الحالة دي يا عصام! أهو من ساعة ما جه وهوَّ مكتوم الكتمة السوداء دي!

وفجأة استدار محمود على السرير وجلس وواجه أمه وهو يصيح بصوت أعلى من صوته، صوت يجد صعوبة في إخراجه من حنجرته:

- عشان إيه الدوشة دي؟ عشان إيه؟ قلت لك خدش، لعب عيال.. لعب عيال!

وانهار صوته وهو يكرر الكلمتين الأخيرتين وسقط على ظهره منهكاً، ورمقته أمه لحظة.. كان وجهه شاحب البياض وعينه الخضراوان واسعتين لامعتين كأنه محموم، وحبات العرق تتجمع على جبينه.. وفتحت الأم فمها لتقول شيئاً ثم أطبقته واستدارت خارجة، وعندما وصلت إلى الباب قال محمود بصوت ضعيف:

ماما.

وعادت الأم ووقفت على مبعدة منه، وجلس محمود في السرير وأشار لها أن تقترب، وعندما أصبحت على مقربة منه مال عليها بوجهه وكأنه يسر لها بشيء، وقال بصوت هامس:

- عارفة، عارفة لما تدبحي الفرخة، والدم يسيح والفرخة ترفس دقيقة، دقيقة واحدة وتسكت على طول.. تخلص؟

واربدت عينا محمود وانقلب وجهه ونزل بقبضته على المائدة المجاورة للسرير وهو يقول بصوت يختلط به العويل:

ناس كتير ماتوا! ماتوا بالشكل ده!

وقالت أمه:

أحسن لك تنام شوية يا محمود.

ومدت يديها إلى كتفيه تريد أن تساعد على الاسترخاء، ونحى هو يديها عنه في بطاء وعينه تبحثان عن عيني عصام:

- ليه؟ ليه يا عصام؟

وهز عصام كتفه وقال بصوت هادئ:

- ليه إيه؟

وهز محمود رأسه لحظة وكأنه يفيق من كابوس، وأسند رأسه إلى ظهر السرير وقال:

- مفيش.

وخرجت الأم من الغرفة، وحلت ليلى محلها إلى جانب المائدة المجاورة للسرير، ووقفت تنتظر إلى محمود في وجوم.

وساد السكون لحظة ثم قال عصام:

- يعني مش عايز تتكلم!

- وايه الفايده؟ لو قلت لك مش حتفهم، إنت راجل كلك عقل وحكمة واتزان.. راجل ما يندفعش، ما يضعفش.

- بلاش تريقة وحياة أبوك!

وابتسم محمود ابتسامة خفيفة وتسلمت الحمرة إلى وجهه وهو يقول:

- إنت عارف يا عصام أنا حاسس بايه؟ أنا حاسس كأني انضربت علقه، علقه حامية، وما قدرتش أضرب إللي ضربني، ما قدرتش حتى أصرخ!

وارتجفت شفتا ليلي، وتقلص وجهها تقلصات متتالية كأنها تعاني ألماً داخلياً، وقال عصام:

- يوم ما حيكون السلاح في أيدينا مش...

وقاطعته ليلي صارخة:

- محمود...

واندفعت إلى أخيها، وقالت في صوت باكٍ وهي تهز كتفيه:

— محمود.. إنت إللي ضربت الانجليز مش هم إللي ضربوك.. إنت.. إنت يا محمود!

ولم يجب محمود، واستدارت هي برأسها إلى عصام ويدها على كتفي محمود، وقالت في استعطاف:

- عصام، محمود هو إللي ضرب الانجليز، مش كده يا عصام؟ وقال عصام وهو يبتسم باستخفاف:

- ودي عايزة كلام!

ولم تفتتح ليلي، استدارت إلى محمود وقالت بصوت مختنق:

- إنت، إنت يا محمود إنت.

وحاول محمود أن يتجنب عينيها ولكنهما واجهتا وفيهما مزيج من الأمل واليأس المميت.. ودفن رأسها في كتفه، وقال وهو ينظر بعيداً:

- أيوه يا ليلي.. إحنا إللي ضربنا الإنجليز.

وضحكت ليلي على كتفه ضحكات متلاحقة مختلطة بالنشيج، ثم رفعت رأسها مبتسمة وقالت والدموع تلمع في عينيها:

- أنا عارفة.. عارفة كده، وكمان قلت لهم في المدرسة.

وقال محمود:

- قلت لهم إيه؟

- كل حاجة.. والمدرسات مبسوطين منك و...
ووضع محمود يده على فمها، ونحت ليلى يده وهي تضحك وتقول في خبث:
- وحتى عنايات بتقول عليك حلو!
وحاول محمود أن يكتم ابتسامته.
وقال عصام:
- عنايات! عنايات مين؟
والتفتت إليه ليلى ويدها ما زالتا تحيطان بكتفي أخيها:
- يعني مش عارف عنايات.. ملكة جمال السّنية؟!
وقال عصام:
- يا ابن الإيه! عنايات حنة واحدة!
وغرق محمود في الضحك. وشعرت ليلى أن مهمتها قد انتهت، فنزلت من السرير واندفعت
تجري، واستوقفها محمود عند الباب:
- ليلى.
- أفندم.
- أولًا إنت كدابة.
- كدابة! كدابة ليه؟
- يعني، يعني.. عنايات حتشوفني فين عشان تقول عليّ حلو ولّا وحش؟
وأخذ عصام يرقبهما وقد علت شفثيه ابتسامة مأكرة.
وقالت ليلى وهي تشير إلى الحلية في صدرها:
- شافت صورتك دي.
وبدا الاهتمام في عيني محمود:
- وريني كده.. أنهى صورة دي؟
وتركتها بين يديه، يفحصها باهتمام.
واتسعت ابتسامة عصام، ووضع يده على فخذ محمود وقال:
- محمود..
والتفت إليه محمود ويده اليسرى ممسكة بالحلية:

- أيوه يا عصام.

- إيه أخبار العلفة دلوقت؟

ولكز محمود عصام بقدمه وترك الحلية تسقط من يده على الأرض، وركعت ليلى على ركبتيه وانحنى بجسمها لتلتقط الحلية، والتقطتها ثم رفعت جسمها لتقوم، وحين أصبح رأسها بحذاء رأس محمود توقفت ولمعت عيناها وكأنما خطرت لها فكرة رائعة، وقالت:

- أنا كمان لما أكبر حاضرب الإنجليز.. حاضربهم بالسلاح..

لما أكبر.

وقال عصام:

- ودي عايزة كلام.

ونفضت ليلى بسرعة، واتجهت خارجة وهي تقفز قفزات رتيبة كما يفعل المتظاهرون، وترفع يدها اليمنى وتخضعها وتقول منعمة:

- السلاح السلاح.. نريد السلاح.

وفجأة تسمرت في مكانها وسقطت ذراعها إلى جانبها وماتت الكلمات على شفثيها.. اصطدمت بأبيها وهو يدخل الحجرة.

وبعد أيام قليلة عادت الحياة تجري مجراها العادي، وتشغل كل فرد بمطالبها اليومية، وبدا الناس كما لو كانوا قد نسوا ما حدث، ورجع محمود إلى مدرسته ولم يعد أحد يسأل ليلى عنه ولا عن المظاهرة. وأحست ليلى بمرارة في بادئ الأمر ثم بدأت تشغل بأمورها الخاصة هي الأخرى.

وفي ذلك الصباح استيقظت مبكرة كعادتها لتقرأ الجريدة قبل أن يستيقظ أبوها وأخوها، وجلست على المقعد الأسبوطي في مواجهة باب الصالة وعيناها تنتقلان بين عتبة الباب والساعة، واندفعت الجريدة من تحت العتبة. وحين فرغت ليلى من قراءتها كانت الساعة السادسة والنصف ولم يستيقظ أحد بعد، لا أبوها ولا أخوها محمود.

وقامت وهي تتمطى في ارتياح، وألقت بالجريدة على المقعد، وقبل أن تصل إلى غرفتها رجعت وأعدت طيها ومرت بأصابعها على أطرافها وهي تجز على شفثها السفلى غيظاً لاضطرارها إلى ذلك العمل خوفاً من تعليقات أبيها. وأسرعت إلى غرفتها تسدل على جسمها مريلة المدرسة، وتبحث محمومة عن الشراب والحذاء تحت السرير والدولاب، وتمشط شعرها الأسود القصير وهي تضع قدميها في الحذاء، وتخطف كتاباً من على المائدة وآخر من تحت وسادة السرير وتلقي بهما في حقيبتها الجلدية، ثم تندفع إلى حجرة الطعام وكأن إنساناً يطاردها، ولا تتوقف حين تصطدم بأخيها محمود ولكنها تبطئ خطاها حين ترى أباه يقف أمام الحوض يحلق.

وتضع على شفيتها ابتسامة مؤدبة:

- صباح الخير يا بابا.

ويدمد أبوها بشيء غير مفهوم وهو يلقي برأسه إلى الخلف يزيل بآلة الحلاقة شعرات في رقبتة.

وما إن تختفي خلف باب حجرة الطعام حتى تصرخ تطلب الأكل، وتتنظر إليها أمها:
القول لسه ما جاش.

ولا تثبط من همتها نظرة البرود التي تطالعها بها أمها.
- أي حاجة.

- ملحوقة على إيه؟ الساعة لسه سبعة والجرس ثمانية ونص!

- والمشوار؟

- عشر دقائق.

- أنا عايزة أكل والسلام.

وتتنزع مقعدًا من على المائدة وتغرسه في الأرض بقوة، وتجلس وتبسط قطعة من الجبن في نصف رغيف من العيش وفوقها طبقة رقيقة من المربى، وتقضم من الساندويتش قطعًا تجد صعوبة في ابتلاعها لتخرج مسرعة إلى المدرسة، وتقذف بحقيبتها على العشب وتتضم إلى زميلاتها، ثم يذق الجرس وتستعيد بعد طول بحث حقيبتها لتدخل حصة الحساب.

وتجلس على مقعدها، وتضع ذراعها على الدرج وتسند إليها وجهها وقد تعلقت عيناها بيد المدرسة وهي تكتب على السبورة... ضروري ضروري تفهم كل كلمة وكل عدد، ضروري. أبلّة نوال قالت إنها بقت أحسن في الحساب ولكن لازم تبقى أحسن وأحسن، وأحسن واحدة في الفصل عشان أبلّة نوال تحبها، ضروري تحبها ضروري.

وكانت هذه هي الضرورة الوحيدة في حياة ليلي في هذه الفترة، ضرورة التغلب على هذه المدرسة النحيلة التي تشد شعرها وتجمعه خلف رأسها، وتلبس ملابس شبيهة بملابس الرجال، وتركز عينيها الصغيرتين المستديرتين فيك وكأنها تستطيع أن تنفذ إلى أفكارك، وتختفي شفاتها الرقيقتان وهي تكتم ابتسامتها.

وفي أول السنة وضعت ليلي على شفيتها ابتسامة مؤدبة، وجلست في حصة الحساب وقد ربت ذراعيها، وتجاهلت همسات عذيلة التي تشاركها الدرج، بل ذهبت أكثر من ذلك واكتفت بأن تجز بأسنانها على شفتها السفلى حين لكزتها عذيلة بقدمها، كل ذلك وأبلّة نوال ولا هي هنا. وفي آخر

الحصة انتظرت ليلي حتى فرغت آخر تلميذة من وضع كراسيتها على مائدة المدرسة ووضعت كراسيتها وسوت كومة الكراريس واستعدت لتسير بها إلى حجرة المدرسات خلف أبله نوال، ولكن أبله نوال ضغطت على شفتيها وأخذت منها الكراريس بعد أن شكرتها. وتحيرت ليلي من هذه المدرسة الغريبة التي ترفض أن تحمل تلميذة كراريسها. ولكنها لم تيأس، فهناك طريقة تنجح دائماً، فأنت تعطي المدرسة وردة جميلة، وحين تدخل حجرة المدرسات بأي حجة تجد المدرسة وأمامها الورد في كوب، وتعرف حينئذ أن ارتباطاً ما قد بدأ بينك وبينها. ألم تحتفظ بالورد، وردتك في الكوب أمامها؟ ولكن أبله نوال لم تحتفظ بالورد في الكوب، ولم تخرج بها حتى من الفصل... أخذتها نفيسة، نفيسة ذات الأنف الأفتس والشعر الأكرت. بدأ كل شيء طبيعياً ثم تحول، في أول الحصة أعطت ليلي الورد للمدرسة، قربت أبله نوال الورد من أنفها وشمته ثم وضعتها في عناية على كراسة التحضير، ووقفت تكتب مسائل الحساب على السبورة، وقبل أن تكمل كتابة المسألة الأولى استدارت فجأة وواجهت الفصل:

- أول واحدة حتل المسألة دي حتاخذ مني الورد.

وأخذتها نفيسة، وجمد وجه ليلي وقررت أن تخاصم أبله نوال وخاصمتها فعلاً، ولكن حدث في البيت ما جعلها ترجع عن قرارها، طلبت منها أمها أن تناولها المنبه لتملاه فسقط منها المنبه وتحطم زجاجه، تحطم كما تحطمت الزهرية الخضراء ذات الورد الأبيض، وكما تحطمت العروس التي تفتح عينيها وتقول: ((ماما))، وكما يتحطم في البيت كل شيء، كل شيء في يديها. وصرخت أمها صرخة طويلة وكأن حريقاً شب في البيت، واتجهت نحوها وقد احمر وجهها، وضربت على كفها ثم مسحت العرق من على جبينها وهي تقول:

- لكن أعمل إيه، أعمل إيه في بختي المنيل، ربنا شقيك من كله، ربنا ياخذك أحسن ويريحنا.

وأنهى أبوها الموضوع، وقف على باب حجرته هادئاً وقال بصوت قاطع وبلا غضب:

- أنا قلت إن دي مش بنت.. دي فتوة!

ثم دخل غرفته وأقفل وراءه الباب.

ووقفت ليلي أمام المرأة البيضاء في حجرتها وأخرجت لسانها ثم أخذت تحركه في حركة دائرية حول شفتيها.

- بنت.. بنت.. بنت ظريفة.

أبله الناظرة قالت في الحوش وقرصتها في خدها، أبله الناظرة بتحبها وأبله زينب وأبله زاهية وأبله رتيبة وكل المدرسات.. كل المدرسات إلا... وسحبت ليلي لسانها وأطبقت فمها.. إلا أبله نوال، ضروري، ضروري كل واحدة في المدرسة تحبها، ضروري أبله نوال تحبها، وأغمضت عينيها وأدارت ظهرها إلى المرأة.. رأت نفيسة تقرب إلى أنفها الأفتس وردة حمراء - ثم خطرت لها فكرة وأسرعت إلى حقيبة كتبها وأخرجت كراسة الحساب والكشكول وقلم رصاص وانبطحت

على الأرض وفتحت الكراسة من أولها.

وبدأت محاولة عنيفة من جانب ليلي للتغلب على الأرقام.. أرقام عارية تقفز أمام عينيها بلا معنى، تتفرق وتتجمع، وتتضاعف وتنقسم ثم تواجهها بالحل يحرق فيها.. أبلّة نوال قالت: ((استعملي عقلك)) ، ولكن في الحساب عقلها جامد لا يمشي، في الإنشاء العربي يمشي عقلها، كلمة تجر كلمة وجملة تجر جملة وتسرع يدها تلاحق عقلها، وهي طائر يحلق في السماء عاليًا فوق كل الطيور ويعود إلى العش بالحب لطيوره الصغيرة يحيطها بجناحيه ويدفئها، وهي طفلة تائهة في الطريق بين ناس غرباء ينظرون إليها ولكنهم لا يرون دموعها، وهي ((مدام كوري)) وبطل يحطم قضبان السجن لينقذ شعبه من الاستعمار، وهي كل هذا وأكثر من هذا، أو هي على الأقل معهم. أما في الحساب فهي مع بقال يبيع سكرًا ويشترى زيتًا، ومع صنبور يقطر في الدقيقة عددًا من قطرات الماء، ومع حوض يمتلئ بهذه القطرات، ومع أرقام تقفز أمام عينيها بلا جمال ولا معنى. معنى أو لا معنى، من الضروري أن تفهم كل كلمة وكل حرف. وبدأت تتغلب على الأرقام، تجمع خيطًا من هنا وخيطًا من هناك وتلفها وتمسك بها بين قبضتها في فرح. وبدأت تتقدم وأبلّة نوال تشجعها خطوة وراء خطوة حتى لم يتبق أمامها إلا نفيسة، فما زالت نفيسة تحل المسائل قبل أن تحلها هي، وما زالت درجات نفيسة في الكراسة أحسن من درجاتها. وتركز كيان ليلي في هذه الفترة في محاولة التغلب على نفيسة.

وقامت نفيسة ترد على سؤال لأبلّة نوال، قامت في بطة، وتكلمت في بطة، وأجابت الإجابة المطلوبة لا أكثر ولا أقل.. هل يمكن أن تسبق نفيسة؟ إن نفيسة قوية في الحساب، طول الدراسة الابتدائية وهي أقوى منها بمراحل، فهل يمكن أن تسبقها في حساب أولى ثانوي وحساب أولى ثانوي صعب، وهي ضعيفة، ضعيفة في الحساب وفي كل شيء؟

ووجهت أبلّة نوال لليلي سؤالًا مفاجئًا، وتلعثمت ليلي ثم أجابت. وجلست وانصرفت اهتمامها إلى حل مسائل الحساب، وساد السكون الفصل وأبلّة نوال تمر بين الصفوف تقرأ الحلول من فوق رؤوس الطالبات.

وحين وقفت أبلّة نوال إلى جانب ليلي أطرقت برأسها وبقي القلم مُعلقًا في يديها وكأنها تفكر. وقرأت أبلّة نوال الحلول وضمت شفيتها مالت على ليلي:

- بقينا هايلين خالص.

والتقت عينا ليلي بعيني أبلّة نوال وهي تميل عليها، وشعرت بشيء يقف في حلقها وابتلعت ريقها في صعوبة. ومدت أبلّة نوال يدها تثير شعر ليلي وكأنها تمشطه من أسفل إلى أعلى ثم مضت في طريقها.

ومدت ليلي كفيها إلى رأسها تسوي شعرها ولكنها جمدتا لحظة في مكانهما وطفرت الدموع إلى عينيها، وأدركت أنها تستطيع أن تسبق نفيسة وعشرًا مثل نفيسة ما دامت أبلّة نوال معها.



وقفت ليلي بعد انتهاء اليوم الدراسي تحت شجرة الجميز في المدرسة، وعلى المقعد الخشبي المواجه لها جلست جميلة وإلى جانبها على العُشب سناء وفي الوسط وقفت عديلة.

كانت عديلة تُقلد مُدرسة اللغة الإنجليزية، تضغط خديها ويتصلب جسمها وتمشي جامدة دون أن تحرك ذراعيها وترفع ساقًا في حركة عمودية إلى أعلى ثم تسقطها لترفع الأخرى، ويخرج صوتها غائرًا وكأنها دمية خشبية. وغطت جميلة وجهها بيديها وهي تضحك، ومالت سناء تسند بطنها بيدها، وتكورت وجنتا ليلي وضافت عيناها واندفعت الضحكات من فمها في موجات تتابعت ثم تلاحقت وتشابكت حتى كادت تحول بينها وبين التنفس. وأولت ظهرها إلى زميلاتها وهي تستند إلى شجرة الجميز لتستجمع أنفاسها، وأخرجت المنديل من جيبها لتجفف دموعها، ووقفت يدها في الهواء قبل أن تصل إلى عينيها.

أدركت فجأة أن عديلة قد بدأت جملة ولم تكملها، وأن الضحك قد توقف، وأن شيئًا ما قد حدث، شيئًا غير مرغوب فيه.

واستدارت ليلي تواجه زميلاتها.

كانت سناء قد أرخت عينيها إلى الأرض وراحت تقتلع العُشب بسرعة، ما تكاد تفرغ من اقتلاع قبضة حتى تقتلع غيرها وكأنها مكلفة بذلك العمل. وكانت جميلة تنتظر ساهمة إلى الأفق البعيد. وقالت عديلة:

- إيه الأحمر إيلي في مريلتك يا ليلي؟

وأدارت ليلي رأسها وجذبت ظهر المريلة إلى الأمام، وقالت وقلق بسيط يتسلل إليها:

- ضروري حبر.. سيكون إيه يعني؟

وهزت جميلة رأسها تنفي هذا الاحتمال، ونظرت إلى ليلي نظرة طويلة، نظرة حزينة. واندلع خوف غامض في جسد ليلي، وهمت بالاندفاع إلى أحضان جميلة ولكنها لم تتدفع، لمحت في عيني عديلة نظرة ساخرة متعالية، وجمدت مكانها.

وقالت عديلة وهي تبتسم في استخفاف:

- مبروك يا ست ليلي، بلغت.

وسحبت جميلة ليلي برفق، وفي دورة المياه قطعت البقعة الحمراء من مريلتها بموس.

وحين رأت أم ليلي المريلة قالت:

- طيب يا بنتي ما غسليتيش البقعة ليه بدل ما تقطعي المريلة؟!

ولكن الأم لم تعنف ليلي هذه المرة.



اعتدلت ليلى في سريرها في بطء وحرص شديدين وكأن جسدها من زجاج هش سهل التحطيم، ونامت على ظهرها وعيناها تحدقان في الظلام.. غريبة! إنها لم تشعر بذلك النّقل في جسمها قبل أن ترى هذه النظرة في عيني جميلة.. نفس النظرة التي رأتها في عيني أمها.

حدث لها ما حدث قبل أن تكتشف الأمر عذيلة، ربما من الصباح، ومع ذلك لم تحس هذا الصباح بتعب في جسمها، بالعكس، شعرت أنها خفيفة، وأنها تريد أن تجري وتضحك وتدفن رأسها في أزهار الحديقة، شعرت أنها قوية وأنها ذكية وأنها تستطيع أن تسبق نفيسة في الحساب.. واكتشفت ليلى فجأة وعيناها تحدقان في الظلام، أن كل شيء قد فقد أهميته.. أبلّة نوال ونفيسة والحساب.. كل شيء وكأنما قد حدث لها كل ذلك من زمن بعيد. وأغمضت عينيها وحاولت جاهدة أن تسترجع صورة أبلّة نوال وهي تميل عليها، وركزت فكرها حتى شعرت بعرق ينفر في جبينها، ومع ذلك بدت لها الصورة باهتة لحظة واحدة ثم طمست خطوطها صورة شجرة الجميز وجميلة وهي تنظر إليها بعينين تعكسان حنانًا حزينًا.

وقالت ليلى بصوت مسموع:

- ليه يا جميلة ليه؟ أنا عايزة أكبر عايزة أكبر.

وعادت تحديق في الظلام.

تكبر وتصبح مثل أمها، لا، مثل... مثل مفتشة التاريخ ذات الجبين الأبيض العريض، والرأس المرفوع إلى أعلى، والشعر الأسود الطويل الملفوف، والمشية الهادئة كمشية الملكات.

وسمعت ليلى الباب الخارجي للشقة يفتح، وتسرب إليها نور الصالة ثم اختفى حين اتجه أبوها إلى غرفته المجاورة لغرفتها.

عندما عادت من المدرسة كان قد خرج، وعلى المائدة قالت أمها إنه مدعو للعشاء.

سيعرف أبوها الآن، سيعرف حتمًا، ستخبره أمها، ترى ماذا يقول؟ سيفرح طبعًا كما فرح عندما بدأ الشعر ينمو في ذقن محمود. في الصالة استوقف أبوها محمود، وجذبه تحت النافذة في الضوء، ونظر إليه طويلًا نظرة خُيل إلى ليلى معها أن أباه لم يعد يقف على الأرض بل يطير بمحمود عاليًا. ثم تورد وجهه وضحك ضحكًا طويلًا بلا سبب.

وساد السكون طويلًا خافتًا، وعينا ليلى تحدقان في الظلام وكأنهما تنتظران شيئًا، وسمعت أمها تتكلم بصوت منخفض، وتصلب جسمها حين تبينت اسمها يتردد في الحديث، ثم أطبق الصمت مع الظلام على الحجرة من جديد.

وقطع الصمت صوت نحيب، وقفزت ليلى كالمدوغة من السرير ثم وقفت مُسمّرة في وسط الحجرة حين عرفت في الصوت صوت أبيها، واختلط النحيب بدعاء يقطعه ما بين الحين والحين صوت أمها هادئًا منخفضًا:

- يا رب تقدرني يا رب، دي ولية يا رب!

- كفاية يا سيدي البنّت تسمعنا!

- الستر يا رب الستر!

وانخفض الصوت تدريجيًا، وأعقبته غصة ثم صمت.

وشعرت ليلي بخواء في صدرها، وسرت الرجة في شفتيها وفي يديها وساقها، وانسحب مجرى من العرق من أعلى رقبتها إلى أسفل ظهرها، وتخبّطت في الظلام تبحث عن الباب، وهَمَّت أن تصرخ تتادي أمها. قالت أمها ذلك العصر:

- ما تخافيش يا بنتي.

ماتت الصرخة على شفتيها، وجرت ساقها إلى السرير، وتمددت على ظهرها.

- ما تخافيش يا بنتي ما تخافيش، إنت كبرت.. كبرت.

وسحبت ليلي الغطاء على جممها وعلى وجهها حتى طرف رأسها.

ولم تفهم ليلي تلك الليلة لِمَ نظرت إليها جميلة هذه النظرة الحزينة وَلِمَ بكى أبوها، ولكنها فهمت على مر السنين، فهمت أنها ببلوغها دخلت سجنًا ذا حدود مرسومة، وعلى باب السجن وقف أبوها وأخوها وأمها، والحياة مؤلمة بالنسبة للسجان والسجينة: السجان لا ينام الليل خشية أن ينطلق السجين، خشية أن يخرج على الحدود، والحدود محفورة، حفرها الناس ووعوها وأقاموا من أنفسهم حراسًا عليها. والسجينة تستشعر قوى لا عهد لها بها، قوى النمو المفاجئ، قوى جارفة تسعى إلى الانطلاق، قوى في جسمها تطوقها الحدود، وقوى في عقلها تشلها الحدود، حدود بلهاء عمياء صماء.

ورسم أبوها الحدود العامة وهم جلوس على مائدة الغداء، قال في صوت هادئ قاطع:

- إنت ضروري تدركي يا ليلي إنك كبرت، ومن هنا ورايح خروج لوحذك مفيش، زيارات مفيش، من المدرسة على البيت!

واتجه بعينييه إلى محمود وأضاف:

- ومش عايز أشوف في البيت روايات ولا مجلات خليعة! فاهم؟ وأطرق محمود ولوى شفته السفلى، وقال الأب في صوت أرق:

- إيلي إنت عايز تقراه اقراه برّه ولّا اخفيه، أنا مش عايز حاجة تسم أفكار البنّت!

والتقت عينا الأب بعيني محمود في نظرة رجل لرجل، وابتسم محمود ابتسامة من يعرف ويفهم، واستأنف الأب كلامه:

- وكمان يا محمود أنا مش شايف داعي إن أصحابك يزوروك في البيت، يا أخي مش كفاية القهوة والنادي؟

واتسعتا ابتسامة محمود:

- كفاية يا بابا! بس المهم عصام، عصام بيذاكر ويايا! ورفعت الأم عينيها عن الطبق وقد ارتسم فيهما قلق:

- عصام! هوّ عصام غريب؟! عصام ابن خالتك يا ابني، هيّ ليلي حتتغطى على ابن خالتها؟! ومسح الأب فمه بالفوطة:

- عصام معلش، عصام منا وعلينا.

ولم تقل ليلي شيئاً - لم يكن أحد ينتظر منها أن تقول شيئاً. وبدأ دور الأم. دور لا ينتهي.. حتى أصبحت ليلي تلتفت خلفها كلما سمعت خطوات، تنتظر تعنيف أمها لها عن شيء حدث منها ولا تعرف ما هو، شيء ((خارج)) أو ((ما يصحش)) أو ((ما يليقش بننت ناس، بنت محترمة)).. الضحكة الطليقة النابعة من القلب خارجة.. ((خارجة ليه؟))، ((عالية)). والكلمة المخلصة الصريحة خارجة.. ((خارجة عن إيه؟))، عن الأصول، ((فيه حاجة اسمها الأصول)).. والقعدة:

- إنت يا تقدي مجعوسة، يا تحطي رجل على رجل؟! الناس تقول إيه؟ ((مش متربية))؟

- أنا زهقت من الناس! مش عايزة أشوف حد!

- لأ، ضروري الناس تشوفك . يقولوا: ((مستخبية ليه؟ كتعة ولا عرجة!)).

وإذا مانعت في الدخول للضيوف اتهمتها أمها بأنها ((براوية ما بتحبش حد))، وإذا دخلت لامتها لأنها لا تسامرهم، وإذا تكلمت لامتها لأنها تتدخل في شؤون الكبار، وإن أطالت جلستها أشارت لها بالخروج، وإن خرجت مسرعة قالت لها: ((إنت كنت ملحوقة على إيه؟)).

- أنا في الحقيقة احترت وياك يا ماما، كل حاجة أعملها تطلع غلط في غلط!

- إللي يمشي على الأصول ما يغلطش.

- وإيه هيّ الأصول دي؟!!

- الأصول إن الواحد...

وتضيف الأم حدوداً جديدة، كقطرات الماء تسقط بروي ونظام، يسلب رويها ونظامها النوم من عيني النائم، ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم وسنة بعد سنة.

وسنة بعد سنة نمت ليلي.

وفي السابعة عشرة أصبحت ليلي فتاة ممثلة الجسم، متوسطة القامة، خمرية، مستديرة الوجه، دقيقة الملامح في استواء، عريضة الجبهة، عيناها عسلتان عميقتان ضيقتان شديدتا اللمعان، وإذا ما ابتسمت ارتفعت وجنتاها الورديتان إلى أعلى وضافت عيناها حتى أصبحتا خطاً رفيعاً من نور يلتمع، وإذا ما اطمأنت ضحكت بكل وجهها.. بشفتيها وبعينيهما وبأنفها، وإذا ما أثار الحديث اهتمامها مالت برأسها وأنصتت والكلمات تتدفق من أذنيها إلى قلبها، وإذا أثار الحديث حماسها أو شفتيها التمعت عيناها بالدموع.

كان وجهها يشع بالانطلاق والحيوية والإشراق على عكس جسمها. كانت تمشي وكأنها مقيدة بسلاسل ثقيلة، تجر جسمها خلفها وكتفاها منحنيان رأسها ممدود إلى الأمام وكأنها تريد أن تصل بأقصى سرعة إلى هدفها لتختفي عن الأنظار، وحين تجلس لا تكاد تستقر في مكان بل تتحرك باستمرار، ولا تكاد تعرف أين تضع يديها وكأنهما جسمان غريبان عليها، وفي حركاتها ثقل وخوف وخاصة في البيت، أما في المدرسة فكانت أكثر انطلافاً، كانت المدرسة جزءاً من عالمها الذي تحبه، هذا الهدير من الأصوات المختلفة، الجرس، الضحكات المججلة حيناً والمكتومة حيناً آخر، والخطوات التي تدب في الممر مسرعة إلى الفصل، والعيون التي تبتسم، والمرح في الفصل، والمؤامرات الهامسة التي تدبر ضد المدرس أو المدرسة، والولاء الذي يجمع بين الطالبات لا ينال منه تهديد ولا عقاب، والتعليقات المكتوبة التي تمرر حين يستعصي الكلام، وفسحة الظهر والشلة، والنكات الهامسة التي تحمر منها الوجوه ثم تنفجر في ضحكة طويلة، والقصص الخافتة في ركن ناءٍ والمستمعة تفتح فمها كالبلهاء، ووقع الملاعق على الأطباق في المطعم، وساندويتش الموز، والتريقة على عباد الله، والفصل المقفول في الفسحة والرقص البلدي، والمناقشة في السياسة، والخلاف حول أم كلثوم وعبد الوهاب، والصدقات التي تتبع فجأة، والخصام والدموع والصُّلح. وهي تستحوذ على اهتمام الفصل بتفنها في الشقاوة، وتغضب المدرس وتعود فتسترضيه، وتخطب في المناسبات الوطنية، وتبرز في الجمعيات الأدبية، ويعترف لها مدرس اللغة العربية بالتفوق، وتفوز ببطولة المدرسة في ((البنج بونج))، وتشترك في فريق الكشافة وكرة السلة، وتترجم شلة تغرقها حباً.

وعندما ينتهي اليوم الدراسي تنتظر حتى تتصرف آخر تلميذة ثم تطلع إلى فصلها والمدرسة ساكنة خالية، وتعد كتبها وتتصرف إلى البيت بخطوات متثاقلة.

وفي البيت تبدأ أمها تعنفها على شيء، فلا بد أن يكون هناك شيء ما، شيء كان ينبغي أن يُعمل ولم يُعمل، أو كان ينبغي ألا يُعمل وعُمل، ثم يظهر أبوها بوجهه الهادئ الصامت الخالي من

التعبير ويفرض صمته وهدوءه على كل من في البيت. وتبدأ أمها تمشي على أطراف أصابعها وتلتفت حولها بعينين قلقتين تتأكد أن كل شيء مُعد كما ينبغي أن يُعد، ثم يبدأ الغداء.. وعلى المائدة يبدأ الأب يُعنف أمها في هدوء وفي صوت هامس، والأم طبعًا حريصة على ألا ترتكب ما يوجب التعنيف، ولكن هناك إخوتها، وهي طبعًا تتحمل المسؤولية الكاملة عن تصرفات إخوتها، لقد قال أخوها الشيء الفلاني وما كان ينبغي أن يقوله، وفعل كذا وما كان ينبغي أن يفعله، وتبيض شفثا أمها ولكنها لا تُجيب.

ولكن الغداء يكون ألطف من ذلك بكثير عندما لا يتغيب محمود في كلية الطب، عندما يعود إلى البيت في الظهر ويشد الكرسي ويجلس على المائدة بوجهه المشرق الحلو، وبعينيه الخضراوين القلقتين، وبشفثيه الرقيقتين الباهتتين، ويصطنع الجد ويبدأ في الحديث:

- النهارده...

ويحكي كل شيء، ما حدث في الكلية، وما سمعه في الترام، وما قرأه، وآخر نكتة يتداولها الناس، ويحكي ويعلق ويبالغ ويدلي بآراء غاية في الغرابة.. آراء تميزه هو عن الآخرين.. وينقلب الجو على المائدة، وكأنه جاء بنسمة من الهواء المنعش من الخارج، وتتفرج ملامح الأم المتوجسة ويصبح وجهها جميلًا كوجه طفل وتضحك ضحكاتها اللطيفة المنخفضة القصيرة. ولكن المنظر الذي يستحق المشاهدة حقًا هو منظر أبيها، يجلس وقد ثبتت عينيه على محمود لا يرخيها عنه وكأنه معجزة تتحرك على الأرض. وينصت الأب باهتمام ويسقط عن وجهه القناع ويكتسب الوجه الجامد الخالي من التعبير تعبيرًا من حنان، وعندما يصل محمود إلى نقطة من السرد تبرز تفوقه أو شجاعته أو ذكائه أو خفة دمه تجمد عينا الأب وتكسوهما طبقة خفيفة من دموع.

وعندما يبدأ محمود في السخرية من الأوضاع الاجتماعية السائدة في مجتمعه لا يترك شيئًا تحيطه التقاليد بهالة من التقديس إلا ويحاول هدمه، وتلمع عينا ليلي، وترتجف شفثا الأم، ويتوجس الأب شرًا، ولكن محمود يخرج من المأزق بلباقة، يخلط سخريته بالفكاهة فيكتم الأب ضحكاته ويختلط الأمر عليه فلا يعرف إن كان ابنه جادًا أم هازلًا .

وتتشعب موضوعات الحديث ولكنها تنتهي عادة بمناقشة في السياسة وخاصة إذا كان عصام موجودًا على الغداء وغالبًا ما يكون موجودًا، فهو دائمًا مع محمود في كلية الطب وفي المذاكرة. وإذا كان ذلك تميل ليلي بنصفها الأعلى على المائدة، وتركز عينيها على محمود وتستمتع أذناها إلى كلمات عصام وإلى كلمات أبيها ولكنها لا ترخي عينيها عن محمود، وينقبض وجهها بين الحين والحين وكأنها تعد في عقلها ردًا لاذعًا، ويستدير فمها وكأنها تهتم بالكلام ثم ينبسط وجهها عندما يجيب محمود وكأنه قال تمامًا ما أرادت أن تقول.

قالت مرّة لجميلة:

- عارفة يا جميلة بابا بيقول إيه؟ بيقول أنا ومحمود بنفكر بقلبنا مش بعقلنا.

- دا بيتريق عليكم يا عبيطة.

- ما أنا عارفة، ولكن دي هي الحقيقة.

* * *

ويعتدل محمود إيداناً ببدء المناقشة، ويُرْكَز عينيهِ على عصام وكأن عصام مسؤول عن كل تصرفات الحكومة ويقول:

- تقدر تقول لي الحكومة الوفدية بتاعتك عملت إيه؟ قعدنا نقول: ((الوفد. ما حدش حينقذ البلد غير الوفد))، وبعدين الوفد عمل إيه؟
ويقول عصام:

- المسألة مسألة وقت والدنيا ما اتخلقتش في يوم!
- ما تجنننيش بقه يا عصام! إنت عارف إن المفاوضات مش حتجيب نتيجة والبلد كلها عارفة كده، مش النهارده بس.. من سنين!
ويمسح الأب فمه ويقول:

- على العموم الوفد أحسن من غيره.
ويميل محمود إلى الأمام، وتندفع الكلمات من فمه متتالية كأنه يتشاجر:
- الوفد أزفت من غيره، لأن الشعب كان بيثق في الوفد والوفد خان الثقة دي!
ويهرع الاب إلى الحَمَّام دون أن يجيب فلا بد له أن يتوضأ ليلحق صلاة العصر.
ويقول عصام في هدوء:

- المسألة مش مسألة حماسة يا سي محمود، تقدر تقول لي الحكومة تعمل إيه؟ تحارب الملك؟!
تحارب الإنجليز؟!
ويستند محمود إلى ظهر مقعده:

- أيوه تحاربهم، تحاربهم لو كانت شعبية زي ما بتقول.
- تحاربهم بايه؟
- تحاربهم بينا.. بالشعب، بالجيش، بالجيش بيغلي، الجيش فلاحين، مصريين زيي وزيك!

ويخيل إلى ليلي أن شعر رأسها قد وقف، وتسري الرجفة إلى جسمها، نفس الرجفة التي تصيبها حين تسمع في الراديو حديثاً عن مجد ماضٍ لمصر، أو تقرأ جانباً مشرقاً من تاريخها، أو تسمع عن ظلم وقع بشعبها، رجفة من يمتلك شيئاً يفخر به ويخشى عليه.
ويقول عصام:

-الشعب.. الشعب المصري يحارب الإمبراطورية البريطانية؟! يا أخي فكر في الموضوع بتعقل!

وهنا يفقد محمود السيطرة على نفسه ولا يتحرج، يستخدم أول لفظة تخطر بباله، ويشتم سنسفيل جدود الإمبراطورية البريطانية والملك والحكومة، ويلعن التعقل والمتعقلين، وينتهي باتهام عصام بالخيانة وبمهادنة الاستعمار، ويكاد الموقف يتعقد، ونقول الأم لمحمود:

- يا أخي بلا خيبة! حازق نفسك أوي كده على إيه، تقولشي وزير ولأً أمير!

ويضحك محمود ويضحك عصام وينتهي الغداء، وتدخل ليلى إلى غرفتها وتقف الباب وراءها وتنتهد بارتياح.

فهنا في هذه الحجرة عالمها الذي تتصرف فيه كما يحلو لها، عالمها الذي تقف فيه وحيدة بعيدة عن كل من في البيت حتى عن محمود. وفي ذلك العالم عاشت تحلم وتفرح وتتألم وتشتي أشياء غامضة لا تدري ما هي.. أشياء تتراقص أحياناً في كل ذرة من كيائها، وتجعلها تشعر أن جسمها خفيف فتجري إلى النافذة وتفتحها ويخيل إليها أنها تستطيع في نشوتها أن تطير مع هذه الطيور التي تحلق في الفضاء، وترسخ أحياناً هذه الأشياء على صدرها وتتراكم طبقات فوق طبقات، طبقات من حزن غامض مضى، ومن حزن غامض آت، طبقات فوق طبقات حتى تكاد تخنقها، فتجري إلى الدولاب وتدفن فمها في الملابس وتصرخ بكل ما فيها من قوة، بكل كيائها، وتخرج من الدولاب ترتجف وترتمي على السرير تبكي.. ولم تكن تريد إلا أن تُترك وحيدة في حجرتها بعيدة عن الآخرين، ولذلك هادنت كل من حولها حتى لا يطغى صوت خارجي على عالمها الخفي، لو تمردت أو ثارت لظلت أمها تعنفها بالساعات ولانتزعها أبوها من سريرها ليُلقي عليها درساً في الأخلاق، لا، هي لا تريد أن تتشغل بحدث خارجي تافه عن عالمها الرائع.

ولم تكن المذاكرة تشغل جانباً كبيراً من وقتها، كانت تنتقل من فرقة إلى فرقة في سهولة، وأهلها لا ينتظرون منها خيراً من ذلك، وكان وقتها في البيت موزعاً بين القراءة الخارجية وبين أحلام اليقظة، ولكن أمها كانت تنتزعها بين الحين والحين إلى الواقع الذي بدا لها جافاً ومملًا للغاية، بلا شعر.

كان عليها مثلاً أن تقابل ضيفات أمها، وأن تسامرهن. وكانت الآن قد تدربت بما فيه الكفاية. كانت قد تعلمت كيف تبتسم في أدب، وكيف ومتى تضحك، ومتى تجلس ومتى تتسحب، وكيف تنصت باهتمام مهما كان الحديث تافهاً، ومتى تهز رأسها بالموافقة، ومتى تُبدي إعجابها أو عجبها.

ولكنها كانت تكره كل هذا، تكرهه من أعماق قلبها، وتعتبره تقييداً لحريتها وقتلاً لإنسانيتها، ولذلك كانت تخطئ أحياناً. كما حدث ليلة زيارة سامية هانم.

دخلت الأم على ليلى في حجرتها:

- يلاً قومي، البسي هدومك عشان تدخلي لسامية هانم.

وسامية هانم قريبة من قريبات أمها من الفرع الغني من الأسرة. وأطرقت ليلى:

- أنا مش عايزة أدخل لحد!

- ليه؟

- كده.

- كده ليه؟

ورفعت ليلى وجهها وقالت:

- مش عايزة أشوفها، ما باحبهاش، ما باحبهاش من يوم فصل الشربات.

وأغمضت عينيها.. رأت سامية هانم في صالونها تقفز واقفة من الفوتيل اللاكيه المشغول بـ((الأوبيسون)) وكأن كارثة قد وقعت، ويد أمها ممدودة مُعلّقة في الهواء والسفرجي قد أدرك أنه خالف الأصول فتراجع بعد أن اقترب من أمها بصينية الشربات، وبدأ بزینب هانم، الضيفة المهمة. وهزت ليلى رأسها وهي ما زالت مغمضة العينين.. المصيبة، المصيبة أن أمها لم تغضب. قالت يومها:

- كل واحد له مكانه في الدنيا دي، لو عرفه ما يتعبش.

ومسحت ليلى دموعها وقالت في سخرية:

- وزینب هانم دي أحسن منك في إيه؟ عشان غنية يعني؟!

وقالت الأم يومها في بساطة:

- أيوه عشان غنية.

وفتحت ليلى عينيها لتجد أمها ما زالت واقفة أمامها، ودون أن تتكلم قامت لترتدي ملابسها.

وجلس صامتة تستمع إلى حديث الضيفة مع أمها، وتطرق الحديث إلى مغني مشهور يجاور سامية هانم في السكن، ومدى ما يملكه من ثروة وعمارات ثم إلى صوته. ولما كان من المفروغ منه أن الأم لا تفهم في الأغاني العاطفية فقد وجهت سامية هانم المتصابية الكلام إلى ليلى:

- أنا أموت في صوته، صوته جنان، مش كده يا ليلى؟

وقالت ليلى:

- بس بيغني زي ما يكون بيعيط، زي ما يكون واحدة ست!

وبعد فترة قصيرة قامت سامية هانم التي اعتادت أن يؤمّن الجميع على أقوالها ممتعة، وألقت بالفرو على كتفيها وقالت:

- بنتك ملححة أوي يا سنية هانم.

وهي تشد على حرفي اللام والحاء وتمد كلمة أوي.
وقفلت الأم باب الشقة وراء الضيفة وواجهت ليلي بوجه حاد:
- إنت إزاي تقولي الكلام الفارغ ده لسامية هانم؟
- أهى الكلمة إللى جت على لسانى قلفتها والسلام!
- الكلمة إللى جت على لسانك؟! لو كان كل واحد يقول الكلمة إللى تيجي على لسانه كانت الدنيا خربت!
- ولا يقول إللى يحسه.
- إللى يحسه ده لنفسه هو مش للناس!
- يعني يكذب؟
- دا مش كذب دي مجاملة. الواحد ضروري يلاطف الناس ويجاملهم.
- حتى ولو ما كانش بيحبهم؟
- حتى ولو ما كانش بيحبهم.
وطفرت الدموع في عيني ليلي وقالت في صوت مختنق:
- يعني يكذب؟ يعني يكذب؟
ولان وجه الأم ووضعت يدها على كتف ليلي:
- إنت صعبانة عليّ يا بنتي، إنت جاهلة، الدنيا عايزة كده، وإن ما كانش الواحد يعمل كده هو إللى يتعب.
وأغمضت ليلي جفنيها، ونحت يد أمها برفق عن كتفها، ودخلت إلى حجرتها، وأقفلت وراءها الباب.

وسارت إلى النافذة واستندت إلى حافتها وودت لو استطاعت أن تخرج من البيت.
وسارت إلى النافذة واستندت إلى حافتها وودت لو استطاعت أن تخرج من البيت.
نعم.. فتحت أمها عينيها.. فتحت عينيها! على ماذا؟
على الدنيا.. على الحياة.. ((إنت جاهلة بالدنيا)) أمها قالت. وكان من الممكن أن تقول ((إنت ضروري تتعلمي الكذب والنفاق يا بنتي)) وطبعًا لم تقل هذا، ولكنها قالت ما يساويه. ولم؟
الأمر سهل وبسيط وواضح ولم يحرك حتى شعرة من شعر أمها ((عشان الدنيا عايزة كده..

عشان الحياة عايزة كده)).

وأى حياة هذه؟ إنها حياة لا تستحق أن يحياها الإنسان، هذه الحياة التافهة التي يسيطر عليها رجال تافهون ونساء تافهات مثل سامية هانم وأختها دولت هانم.

هذه المرأة هي الأخرى.. دولت هانم.. وشعرت ليلي ببرودة تتسلل إلى جسمها، وأقفلت النافذة، وأسندت رأسها إلى زجاجها، وقررت ألا تفكر في موضوع دولت هانم. ولكي لا تفكر بدأت تحلم.

أين تقابله؟ في حفلة رقص.. وستكون في ثوب أبيض كثوب ((أودري هيبورن)) في فيلم ((سابرينا)).. وعندما يراها.. كلام فارغ إنها لا ترقص وحتى لو كانت تعرف الرقص فمن الأكيد أنها ستعيش وتموت دون أن تذهب إلى حفلة رقص. دعنا إذن نغير الموقف. في الجامعة؟ أبدًا. لقد اعترض أبوها على دخولها ثانوي ولولا محمود لما أكملت دراستها.. فما بالك بالجامعة؟ في زيارة؟ ((مش أوي مش رومانتيك))، ولكن ليس هناك فرصة أخرى. إذن في زيارة.. ولكن أين تكون أمها إذ ذاك؟ ستكون في حجرة الاستقبال مع صاحبة البيت وتخرج هي إلى الحديقة.. ولكنها لا تعرف أحدًا يملك حديقة سوى سامية هانم وأخواتها.. لا لا.. لا يمكن أن تتصور الموقف مع صديقي ابن سامية هانم، ولم لا؟ إنه أنيق أسمر طويل ويشبه ((جريجوري بك))، ولكنها قطعًا لا تحب صوته ولا نظراته، في صوته نبرة متعالية متكلفة، ونظراته تقول ((انظري إليّ إنني متواضع.. إنني لطيف.. إنني ديمقراطي)). وعندما أوصلها وأمها بعربته إلى البيت بعد زيارتهما الأخيرة لسامية هانم، جلست إلى جانبه مشدودة وعيناها موجهتان إلى الأمام لا تجسر على توجيههما إليه. وعندما شكرته أمها وابتسم نصف ابتسامة وقال بصوته المتعالي وعيناه عليها هي: ((تعبكم راحة يا طنط))، ودت لو استطاعت أن تصفعه.

لا، إن الرجل الذي تتصوره، الذي سيحبها وتحبه لن يكون كصديقي، ولن يكون كأبيها أيضًا، ولا كأى رجل قابلته إلى الآن، سيكون... إنها لا تعرف كيف سيكون ولكنها على يقين من أنه سيكون مختلفًا عن الآخرين، مختلفًا قطعًا. وشكله؟ أسمر طويل جذاب قوي النقاطيع بعيون سود كبيرة مثل.. مثل صديقي مثلًا ولكن من ناحية الشكل، من ناحية الشكل فقط.

صديقي.. صديقي، لنفرض أن صديقي أحبها.. سيخرجان إلى الحديقة وضوء القمر يلتمع من خلال الأشجار في بقع ذهبية على ممر الحديقة المرصوف ورائحة النرجس تفعم المكان، ويقول بصوت متهدج تختفي منه نغمته المتعالية: ((ليلى))، ويحرق في عينيها ويضطرب صوته: ((ليلى.. أنا عايز أقول لك حاجة ومش عارف أبنتي إزاي)).

وتضحك هي وتجري أمامه وحين يكاد يلحق بها تدير رأسها وتتنظر إليه من طرف عيناها: ((عايز تقول إيه يا صديقي بيه؟)). ويقول هو بصوت متوسل: ((أرجوك يا ليلي بلاش بيه دي)). وتهز هي كتفها وتميل على حوض القرنفل وتقطف قرنفة حمراء وتقربها من أنفها ثم تبدأ تنتثر أوراقها ورقة ورقة في الهواء. ويهمس هو: ((أرجوك خليك جد شوية، أنا باحبك، باحبك يا ليلي)). ويحيطها بذراعيه ويحاول أن يقبلها. وهنا تدفعه هي بعيدًا وتصفعه صفعة قوية يرن صداها في أنحاء الحديقة. ويضع هو يده على خده ويتمتم: ((أنا آسف! آسف يا ليلي! ما قدرتش أتحمك في نفسي)). وتضحك هي في سخرية. ((إنت فاكرك يعني عشان ما أنا فقيرة أبقي لقمة سهلة،

فاكر الفقرا ما عندهمش شرف يا سي صدقي)).

لا.. لا يمكن أن تقولي هذا، أولًا هذا الكلام لا يحدث في الحياة وإنما هو على طريقة يوسف وهبي في الروايات، وثانيًا هذه الفصاحة قد تواتيها في حجرتها ولكنها لا تواتيها في معاملتها مع الناس، فهي جبانة مع الناس. إذن فلنحذف هذا الجزء ولنقف عند الصفة والاعتذار. ((أنا آسف يا ليلي! آسف ما قدرتش أتحكم في نفسي)). ويمسك بيدها في يديه مستغفراً، ولكن يده تمتد إلى ذراعها فتمر عليه وتنتقل منه إلى كتفها ومن كتفها إلى صدرها فخصرها.. تعالينها، تمامًا كما فعلت يد دولت هانم.. دولت هانم من جديد!

وابتعدت ليلي عن النافذة، ومشت في الحجرة وقد غطت وجهها بيديها.. تعالينها من أعلى إلى أسفل كما لو كانت جاموسة معروضة للبيع! هذه المرأة لم تتغير، حدث لها ما يُفتت الحجر ولم تتغير، هي هي، بقامتها المديدة، وبشخصيتها القوية، وبقدرتها العجيبة على امتلاك كل من حولها من الناس وعلى تكيف حياتهم. هي هي، لم يتغير فيها شيء سوى ملابسها طبعًا فهي سوداء الآن.

عندما كانت طفلة كانت دولت هانم تسحبها حيث يقع الضوء كلما رأتها، وتدرس ملامحها لحظة، ثم تضربها على فخذاها وتقول:

- لا لسه برضه حلوة يا مضروبة.

وتلتفت إلى من حولها وتقول:

- أصل ليلي عندها حاجة جذابة في وشها، وكل ما أشوفها ضروري أطمئن على إن الحاجة دي لسه موجودة.

ولم تكن تغضب إذ ذاك، بل لم تغضب حين قالت لها دولت هانم زمان:

- لا يا ليلي، شعرك فظيع يا حبيبتي، طفلة في سنك يبقى شعرها طويل كده؟

- لا يا ليلي، شعرك فظيع يا حبيبتي، طفلة في سنك يبقى شعرها طويل كده؟ الناعم على الأرض، ولكن دموعها اختلطت بضحكاتها حين قالت لها دولت هانم بعد أن انتهت من قص شعرها:

- أيوه كده وشك بان.. بقيتي جميلة خالص يا مضروبة.

لا لم تغضب إذ ذاك - كانت تحبها - وعندما دخلت حجرة الاستقبال في بيتهم، ووجدتها جالسة ارتمت في صدرها، ولم تكن قد رأتها منذ أن حدث ما حدث.

وبدأت ليلي تهز ساقيها وهي جالسة على السرير.. ليتها ما دخلت ولكنها أرادت أن تدخل، لم ترغما أمها بل اندفعت هي في حماس! وأخذت ليلي تستعيد الصورة جزءًا جزءًا وكأنها تجد لذة في تعذيب نفسها، ورغم أن أسبوعًا قد مر على الحادث فقد كان حيًا في خيالها بكل تفاصيله.

قالت دولت هانم:

- دِهده.. دا إنتِ بقيتي عروسة في غاية الرقة يا ليلي.

وفرحت هي وسألتها عن ابنتها:

- وازي سناء ...

وكادت أن تنطق باسم صفاء إلى جانب سناء بحكم العادة ولكنها تداركت الأمر.

- والله سناء في إسكندرية مع جوزها.. النهارده الصبح كانت بتكلمني في التلفون وبتقول...

والتفتت إلى أمها وقالت:

- من حق يا سنية، عملتوا إيه في العريس إللي أنا جايباه لبنت أختك جميلة، الراجل كلمني إمبراح في التلفون.

وأطرقت أمها:

- نعمل إيه؟ يظهر مفيش قسمة يا دولت هانم.

- يعني إيه مفيش قسمة؟ الراجل وراغب، يبقى الرفض منكم إنتم. وقالت أمها وكأنها تعتذر:

- والله ما أنا عارفة أقول إيه يا دولت هانم.. سميرة أختي تعبت مع البنت مفيش فايدة! وقلنا لها ميت مرّة يا بنتي الراجل ما يعيبوش إلا جيبه!

- بلا كلام فارغ، بكرة ياخذ ستها.

وأشاحت دولت هانم بوجهها بعيدًا ووقع نظرها عليها:

- اسمعي يا سنية.. ما تاخديه ليلي.

وظهرت دهشة على وجه أمها ثم ابتسمت ابتسامة اعتذار:

- البنت صغيرة على الجواز يا دولت هانم.. دي عندها سبعتاشر سنة.

- صغرة! ما حدش صغير، قومي يا ليلي.

ومسحت ليلي وجهها بيديها في حركة دائرية. وقالت في صوت مسموع: ((كفاية كفاية)).. ولكن المنظر انطبع أمام عينيها، والصوت تردد في أذنيها.

هي واقفة وسط الحجرة ودولت هانم أمامها، تفحصها من بعيد بعين نفاذة. دولت هانم تسحبها حتى تصبح قريبة منها، وتمر على جسمها بيدها اليمنى في بطء من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى، وتتوقف يدها وهي صاعدة عند خصرها ثم عند صدرها.

وغطت ليلي عينيها وهي ما زالت جالسة على السرير وهمست: ((يا رب.. يا رب)).

ولكن صوت دولت هانم تردد في أذنيها:

- البنت لازمها فستان كويس بيرز كسمها، ولازمها كورسيه يرفع صدرها ويشد وسطها..
البنت مبهدلة أوي.

ثم قالت لأُمها:

- حرام عليك.. البنت النهارده ملهاش سعر!

قالت بالكلمة:

- حرام عليكِ البنت النهارده على وش جواز، والبنت إن ما كانتش تلبس ما بيقلهاش سعر في السوق!

وقفت ليلي من السرير واقفة.. جارية! جارية في سوق الرقيق! تلبس وتنزين ليرتفع سعرها! ولكن لماذا تغضب؟ لماذا تثور؟ أليست هذه هي الحقيقة؟ لا يمكن.. نعم هي الحقيقة. هذه هي الحياة، هذا هو وضع البنت في المجتمع الذي تعيش فيه ويجب أن تتقبل هي هذا الوضع أو تموت.. تموت؟!

وتربعت ليلي على الكرسي الأسويطي.

عندما تولد البنت بيتسمون ابتسامة تسليم، وعندما تكبر يسجنونها ويدربونها على فن.. فن الحياة! تبتسم وتنحني وتتعطر وتترقق.. وتكذب وتلبس كورسيه يشد خصرها ويرفع صدرها لكي يرتفع سعرها في السوق وتتزوج.. تتزوج من؟ أي إنسان ((والراجل ما يعيبوش إلا جيبه)) وتلبس الطرحة البيضاء، وتنقل إلى منزل الزوج ((والدنيا عايزة كده)) وكل شيء سهل وبسيط ومفهوم ولكن.. ولكن يجب أن تكون حريصة، حريصة جدًا، يجب ألا تحس وألا تشعر وألا تفكر وألا تحب، يجب والإا.. وإلا قتلوها كما قتلوا صفاء.

وانكمشت ليلي في جلستها.

عندما قالت ذلك في هذه الغرفة نظرت إليها أمها نظرة غريبة وكأنها تراها لأول مرة، وفتحت فمها في دهشة، وخرجت تهوول من الحجرة. ولكنها مسرورة مما حدث بعد خروج دولت هانم، من كل كلمة قالتها، ومن كل حركة.

كانت هذه من المرات القليلة التي جرّوت فيها على أن تقول ما ينبغي أن يُقال.. كانت إذ ذاك مستلقية على السرير لا تبكي ولا تفكر، ودخلت أمها عليها وقالت كلامًا دوى في أذنها ولم تفهمه، ثم هزت كتفها هزة عنيفة:

- جرى إيه؟ إنت نمت ولّا إيه؟

ورفعت وجهها إلى أمها.

- جرى لك إيه؟ مال وشك مصفر كده؟

وألقت ليلى بوجهها على الوسادة من جديد.

وقالت أمها بصوت رقيق:

- ما تاخديش بالك من الكلام إللي قالتة دولت.. لسه بدري على حكاية الجواز دي.

وغشت عينيها طبقة من الدموع، وقالت في هدوء دون أن ترفع وجهها:

- هيَّ عايزة مني إيه؟!!

- مين؟

- الست دي!

- حتعوز منك إيه؟

واعتدلت بسرعة، وجلست على السرير، وواجهت أمها:

- عايزة تقتلني زي ما قتلت بنتها؟

- اخرسي قطع لسانك!

وقالت هي بصوت هادئ وكأنها تقرر حقيقة ثابتة:

- هيَّ مش قتلت بنتها؟

- صحيح إلك ما عندكيش إحساس، واحدة منكوبة زي دي، تقولي عليها الكلام ده!

ولم تتأثر هي بهذا الكلام.

- هيَّ مش انتحرت؟

- وإنتِ تعرفي منين؟

- أنا عارفة، وعارفة انتحرت ليه كمان! تحبي أقول لك؟

- هيَّ إللي كانت حطت لها السم في بقها؟

واستلقت هي على سريرها ببطء وهي تبنتسم ابتسامة كئيبة وتقول:

- هيَّ إللي سممت حياتها، وقفلت عليها أبواب الرحمة.. ما لقتش قدامها إلا السم!

وفتحت أمها فمها إذ ذاك في دهشة، ونظرت إليها نظرة غريبة وكأنها تراها لأول مرّة، وخرجت من الغرفة مهرولة.

ومدت ليلى ساقها، وأسندت ظهرها إلى المسند الخلفي للكرسي.. ثم خاصمتها أمها ثلاثة أيام..

ثلاثة أيام كاملة وهي غاضبة.. وهي تعرف لم غضبت أمها، غضبت أولًا لأنها عرفت أن صفاء قد انتحرت، فقد أخبرتها في حينه أنها ماتت، وغضبت أيضًا لأنها قالت: ((تحيي أقول لك انتحرت ليه كمان؟)).

كانت أمها حريصة على ألا تعرف شيئًا عن هذا الموضوع أو عن مثله من الموضوعات، ولكنها تسمع كلمة من هنا وكلمة من هناك وتجمع الخيوط وتستعمل عقلها.. موضوع صفاء مثلاً، سمعت أولًا أن صفاء انتحرت، ابتلعت أنبوبة الحبوب المنومة التي كانت تعينها على النوم في ظل زوج يعيبه كل شيء إلا جيبه، ولكنها لم تعرف إذ ذاك أنها انتحرت في نفس الليلة، نفس الليلة التي لجأت فيها إلى أمها. وعملت الأم بالأصول ورفضت أن تؤويها، أوصدت في وجهها الباب فرجعت صفاء إلى منزل الزوج وانتحرت.. وبعد مدة أيضًا عرفت قصة الحب وثورة الأم وطلب الطلاق ورفض الزوج، بعد مدة، مدة أحالت الفتاة الحلوة إلى تراب.

ودولت هانم أم هذه الفتاة الحلوة هي هي لم تتغير، حدث لها ما يفتت الحجر ولم تتغير، حزنّت على موت ابنتها كما تحزن كل أم، ولكن هل شكت لحظة واحدة في صحة تصرفها؟ أبدًا.. ولا الآخرون شكوا في صحة هذا التصرف. إنها تمضي برأس مرفوع، وبخطوات ثابتة، وتقرض احترامها على الآخرين.. يا رب أي قوة هذه؟! وأي مناعة؟! وأي ثقة بالنفس؟ ومن أين يستمدّها الناس؟ من أين؟ ولم لا يرى الناس في تصرف هذه المرأة ما تراه هي؟ ولماذا زاد احترامهم لها بعد أن ماتت ابنتها؟ وما السر، ما السر في هذا الاحترام؟

ودقت ليلى يدًا على يد دون أن يسمع لدقة يدها صوت، وقامت واقفة وبدأت تذرّع الحجرة. هل يمكن أن تكون مخطئة؟ هل أخطأت في حكمها على هذه المرأة؟ هل أخطأت هذه المرأة أيضًا؟ ((إللي يعرف الأصول ما يغلطش)).. أمها قالت.. ما يغلطش وما...

وتوقفت ليلى في وسط الحجرة فجأة، واتسعت عيناها، وقالت بصوت هامس: ((ما يغلطش.. وما يضعفش.. وما يفقدش الثقة في نفسه)). وضمت شفثيها، ولمعت عيناها كأنها وصلت بعد مجهود إلى حقيقة طال بحثها عنها.

والمسألة التي تطلبت منها كل هذا التفكير مسألة بسيطة.. مسألة عرفتتها أمها دون تفكير.. ((إللي يعرف الأصول ما يغلطش)).. تمامًا.. كما في لعبة الكونكان، يعرف الواحد قواعد اللعبة، ويلتزمها، ويلعب باطمئنان وهو واثق طول الوقت أنه على حق، أنه على صواب، لا يخطئ أبدًا، ليس المهم أن يكسب أو يخسر ولكن المهم أن يلعب تبعًا للأصول.

ودولت هانم قتلت ابنتها وهي تلعب، ولكنها على حق، على صواب، فقد التزمت أصول اللعبة، والناس يحترمونها لأنها فعلت ذلك.

وانهارت ليلى على حافة السرير.. وضمايرهم، وضمايرهم.. أليست لهم ضمائر؟ لا.. المهم المظهر.. المهم ما يراه الناس.

- ماما...

قالت هي يومًا لأُمها:

- ماما، مش كان كفاية فستانين بدل ثلاثة وتشتري لي قميصين تحتانيين، هدومي التحتانية كلها تقطعت؟!

وقالت أُمها:

- الناس ما بتشوفش هدومك التحتانية، المهم إنك تظهري بمظهر كويس.

واندفع باب حجرة ليلي ودخل محمود وهو يرتدي ملابسه الخارجية ووقف في وسط الحجرة وقال:

- إنْتِ قاعدة هنا والبلد بتغلي؟

وابتسمت ليلي التي تعرف ميل أخيها إلى المبالغة، وهزت ساقيها وهي تقول:

- بتغلي ليه؟

- الحكومة لغت المعاهدة! معاهدة ٣٦!

وقفزت هي من على طرف السرير واقفة وقد احمر وجهها:

- مش معقول!

- افتحي الراديو واسمعي.

وجرت هي خارجة من الغرفة إلى الصالة لتفتح الراديو، وتوقفت وهي تمر بمحمود، أرادت أن تحتضنه وتقبله، ثم مالت عنه في خجل وهي تبسم في ارتباك.

ولم تحلم ليلي هذه الليلة. كان كل جزء من جسمها ينبض بالحياة، وقضت ليلتها ساهرة وهي مستلقية على ظهرها وكأنها تنتظر شيئًا.

وفي الصباح وصلت ليلي المدرسة متأخرة والجرس يدق، ودخلت وقد جمد وجهها وكأنها تنتظر شيئاً، وتلفتت حولها ثم لان وجهها واندفعت تجري.. كان الجرس يدق والطابور لا ينتظم، والطالبات متفرقات جماعات في الحوش. وأخذت تنتقل من جماعة إلى جماعة في سرعة واضطراب دون أن تدري لذلك سبباً، كانت الكلمات تنفذ من أذنيها إلى قلبها، والرجفة تسري في جسمها من أسفل إلى أعلى حتى تتركز في رأسها، في شعرها.

- نزلوا البنات إيلي في الفصول.. لأ مفيش شغل ولا بنت حتشغل.. عليّة، شوفي بنات سنة أولى، طمنيهن إذا كانوا خافين.

- بالعكس دول متحمسين خالص.. دول حتى أشجع من البنات الكبار.. إحنا مش أقل من الطلبة.. بنات بنات، البنات برضه عندهم شعور.. ضروري نعبر عن شعورنا!

والجرس يدق، والمشرفات والمدرسات يصفقن، والبنات متفرقات جماعات، ووصلت ليلي إلى ثلثتها وقالت عديلة:

- تعالي يا ست ليلي شوفي قريبتك، مش عايزة تخرج. وبدت الدهشة على وجه ليلي:

- تخرج؟ تخرج فين؟

- في المظاهرة طبعاً.

- إنتو حتخرجوا في مظاهرة؟!

- طبعاً حتخرج.. البلد كلها قايمة على رجل وكل المدارس حتخرج وإشمعنى إحنا إيلي ما نعبرش عن شعورنا؟!

وانقطعت المناقشة عندما خرجت الناظرة إلى الحوش والجرس ما يزال يدق في إلحاح، وتجمعت الجماعات المتفرقة في كتلة آدمية كبيرة متساندة، وعلا الهتاف:

يسقط الاستعمار

نريد السلاح

السلاح

وتقدمت الناظرة إلى الميكروفون وقالت إن وظيفة المرأة هي الأمومة ومكان المرأة هو البيت.. وإن السلاح والكفاح للرجال.

وساد الصمت برهة، خائفاً ثقيلًا، ثم اخترقت الصفوف فتاة سمراء قصيرة الشعر عريضة المنكبين سوداء العينين لامعتهما، وتقدمت وصعدت السلالم الأربعة التي تفصل الطالبات عن الناظرة، ووقفت أمامها وقالت وصوتها يرتجف في الميكروفون:

- إن حضرة الناظرة تقول إن المرأة للبيت والرجل للكفاح، وأنا أريد أن أقول إن الإنجليز حين قتلوا المصريين سنة ١٩١٩ لم يفرقوا بين الرجل والمرأة! وإن الإنجليز حين سلبوا حرية المصريين لم يفرقوا بين الرجل والمرأة! وإن الإنجليز حين نهبوا أرزاق المصريين لم يفرقوا بين الرجل والمرأة!

وعلت صرخات متفرقة، وبدأت الطالبات يقفزن ويعانقن بعضهن البعض، ثم ارتفع صوتهن موحدًا كالهدير:

يسقط الاستعمار

السلح السلاح

نريد السلاح

وتراجعت الناظرة.

وقالت ليلى لسناء:

- أما بنت هايلة صحيح!

- أهو كده الجدعنة صحيح! تقدري إنت تعملي كده؟

وضحكت ليلى وهي تغمض عينيها وتتصور نفسها في ذلك الموقف، وقالت:

- يا ريت!

ثم رجعت إلى الموضوع من جديد:

ثم رجعت إلى الموضوع من جديد:

- اسمها إيه؟

- سامية زكي في توجيهية علمي.

وانعقدت القيادة لسامية وسارت الطالبات خلفها إلى باب المدرسة الرئيسي، وطرقت سامية الباب وطرقته البنات خلفها، وظل الباب موصدًا، وانقطع الهاتف وانقسمت المتظاهرات إلى جماعات تتشاور وتتصايح، ثم ساد الصمت برهة، كانت الطالبات ينصتن إلى مهمة خافتة تترامى من بعيد، واكتسبت المهمة قوة شيئًا فشيئًا حتى صارت هتافًا يصم الأذان، ونزلت طالبة تجري من على السلم:

- طالبة الخديو إسماعيل.

واجتمعت الطالبات كتلة واحدة من جديد، وبدأ الهتاف من جديد يتبادلته الطلبة في الخارج والطالبات في الداخل:

لا استعمار بعد اليوم

يسقط أعوان الاستعمار

السلاح السلاح.. نريد السلاح

نموت وتحيا مصر

وازداد طرق البنات على الباب، وصعد أحد الطلبة على سور المدرسة وقال:

- ابعادوا عن الباب.

وتراجعت الفتيات إلى الخلف، وبدأ الباب يضعف من الدفعات القوية من الخارج دفعة وراء دفعة.

وقالت عديلة:

- يلاً يا سناء.

وتبعته سناء دون تردد، دون أن تنتظر إلى الخلف، وانفصلت الشلة إلى قسمين، وبقيت ليلي مع جميلة.

وقالت جميلة:

- أنا مش خارجة!

وهزت ليلي كتفها وقالت وهي تمشي في اتجاه الباب:

- خليك. أنا شخصياً خارجة.

وقالت جميلة:

- ليلي.. إنت المسئولة عن إللي حيحصل، افرضي أهلك شافوك، أبوك ولّا محمود؟

وابيضت شفتا ليلي وقالت في ضيق:

- أهلي، أهلي! هوّ ما حدش له أهل غيري؟

ولكنها وقفت في مكانها لا تتقدم.. وقفت مترددة.

وقالت جميلة:

- ارجعي.. ارجعي أحسن دي حتبقى بهدلة!

وفي هذه اللحظة اندفعت جماعة من الطالبات تجاه ليلي وحاولت ليلي أن تتراجع، أن تشق

لنفسها طريقاً لتنفصل عن الكتلة الآدمية المتدفقة، ولكن الكتلة جرفت في طريقها وفصلتها تدريجياً عن جميلة ووجدت ليلي نفسها في الشارع.

وترجع الطلبة إلى الخلف وأفسحوا للطالبات طريقاً، وتقدمت الطالبات الموكب يتبعهن الطلبة، وعلى جانبي شارع خيرت تجمع المارة وأصحاب المحلات الصغيرة وصبية الشوارع، وامتلات النوافذ والشرافات بالناس.

وسارت ليلي تتلفت حولها، يتنازعها الخوف والخجل. الخوف من أن يراها أحد، والخجل من جسمها الممتلئ الذي خيل إليها أن كل العيون تتركز عليه.. وهتاف يعلو كالموج ثم ينحسر، لتلحق الموجة الأولى موجة ثم تمتزج الموجتان.. وتصفيق وزغاريد وأيدٍ تلوح وعيون تلمع وأجسام ترتفع وتنخفض في قفزات مجنونة، وأفواه مفتوحة، وحببات من العرق تلتصق على جبين عريض، وأقدام تدق، وأعلام تخفق، ودموع تنهمر واندفاع.

واندفع الدم في رأس ليلي، انتشت، وشعرت أنها قوية وخفيفة كالطير، وشقت الصفوف إلى الأمام، وارتفعت على أكتاف الطالبات وهتفت لحظة بصوت غير صوتها، صوت اجتمع فيه كيائها الذي مضى وكيانها الآتي وكيان هذه الآلاف التي امتدت على مرأى بصرها، ثم ضاع صوتها، تلتفته الآلاف ونزلت.

واجتذبتها عينان، عينان راحتا تحدقان فيها في إلحاح صامت، إلحاح يطوقها ويخنق منابع القوة في جسدها وروحها.

وتقدمت إلى الأمام، ولكن العينين ما زالتا تلاحقانهما في إلحاح وكأنهما مسطرتان على قفاها. ورأت ليلي نفسها في البيت على مائدة الطعام، وأباها وقد اكفهر وجهه ومد يده مهدداً، وأمها وقد ابيضت شفتاها. وسرت رعدة في جسدها وانهارت ساقاها، وتلفتت خلفها لترى أباها. كان ما زال واقفاً في مكانه على رصيف ميدان لاطوغي بالقرب من القهوة، وقد كز بأسنانه على شفته السفلى.

والكتل من خلفها تدفعها بلا رحمة إلى الأمام، بعيداً عن أبيها وقد اسود وجهه، وعن أمها وقد ابيضت شفتاها. وتلاشى أبوها من مرأى بصرها، ولم تعد تراه. لم تعد ترى إلا هذه الآلاف وقد انصهرت في كل.. كل إلى الأمام يدفعها، كل يحيطها ويحميها، وانطلقت من جديد تهتف بصوت غير صوتها، صوت وحد كيائها وكيان الكل.

كز أبو ليلي على شفته حين فتح لها الباب، فتح لها الباب في هدوء، وفي هدوء أغلقه، ثم أظهر الشبشب الذي أخفاه خلف ظهره وحاول أن يطرحها أرضاً، وتدخلت أمها تحول بينه وبينها ودفعها بعيداً، وبعيداً وقفت ترتجف شفتاها، ويبيديه خلع حذاء ليلي، وعلى قدميها دوت طرقة الشبشب وعلى ساقها وظهرها، وضحكة امرأة على السلم وصراخ طفل وليد ونهضة أمها،

وصوت أبيها يصرخ فيها: ((اخرسي))، وطرقعة الشبشب مرّة بعد مرّة وبين المرّة والمرّة توقف، توقف، ونفس محبوس، ثم تدوي الطرقعة من جديد، وحفيف حقيبة الكتب وهي تسحبها على البلاط، وصرير أسنانها في الجلد، وخطوات أبيها تتباعد وطرقه باب غرفته، وخطوات أمها تقترب، ويدها وقد امتدت إليهما برودة البلاط وهي ترحف على قدميها ويديها إلى غرفتها.

وعندما وصلت ليلي إلى غرفتها تحاملت على نفسها ووقفت على قدميها وأقفلت الباب في وجه أمها وأوصدته بالمفتاح، وجرت ساقبيها إلى المقعد المواجه للسرير وجلست، وشعرت أنها تختنق، ووضعت يدها على رقبتها وقامت واقفة، وراحت تجري في الحجرة وهي تهمس: ((أروح فين؟ مش ممكن، مش ممكن أستنى هنا)).

وكالعمياء تخبطت في السرير وفي الدولاب وفي المقعد.

وقرعت أمها الباب قرعاً خفيفاً وهمست:

- افتحي يا ليلي.

وتوقفت ليلي في وسط الحجرة وغطت وجهها بيديها: ((أروح فين؟ لو قفلت ميت باب مش حيبعدوا عني، دايماً ويايا، دلوقت ويايا حتى والباب مقفل، دايماً ويايا، أبويا وأمي ويايا، على نفسي، على صدري، ولا دقيقة أنسى ولا دقيقة أحلم ولا دقيقة أفكر في شيء ثاني، ولا دقيقة لي، دايماً أنا وهمّ والحقيقة، الحقيقة الكئيبة، أنا وهمّ على جسمي الممدود في الصالة)).

ومضت ليلي تذرع الحجرة: ((أعمل إيه؟ أعمل إيه يا رب؟ أموت نفسي؟ وساعتها)). وتخيلت ليلي نفسها نائمة على السرير ميتة وعيناها مقفلتان وجسدها متصلب وأبوها إلى جانب السرير ييكي بحرقة.. ((زي.. زي العيل)). والناس الذين يخاف منهم يشيرون إليه ويقولون: ((هو ده إيلي قتل بنته))، وأمها سيسود وجهها وتصرخ في أبيها وتقول: ((إنت.. إنت إيلي قتلت بنتي)).

أبدًا لن يسود وجه أمها ولن تصرخ في أبيها، ستظل طول عمرها تمشي على أطراف أصابعها ودموعها تسيل بلا صوت.

وانهارت ليلي على طرف السرير ودفنت وجهها في يديها.. لم تعيش؟ لم؟ إنها ليست إنساناً، إنها ممسحة ممددة في الصالة، كالمسحة التي يمسح فيها الناس أقدامهم! وليس هناك من يحبها ولا من يعاملها كإنسانة.

وقرعت أمها الباب:

- يا بنتي افتحي، كلي لقمة، ولأً بلي ريقك بشوية ميه!

- يا بنتي افتحي، كلي لقمة، ولأً بلي ريقك بشوية ميه!

- ليلي مش بنتنا.. لقيناها على باب الجامع.. حتى شوف يا محمود أنا أبيض وأنت أبيض وماما بيضة، ليلي بس إيلي سودة.

ونظرت هي لأمها وأمها ضحكت وقالت:

- لقيناها في اللفة غلبانة ومسكينة قلنا نربيها ينوبنا ثواب.

ووجدت ليلي نفسها تسحب يدها وتخفيها خلف ظهرها، تمامًا كما فعلت وهي طفلة.

وعاودت أمها قرع الباب في خفة وهي تهمس:

- افتحي يا بنتي، افتحي يا ليلي، إنت أصلك تبقي بايخة لما تعندي.. تبقي زي...

وهزت ليلي ساقها في انتظام، وقالت لنفسها: ((زي الكلب، زي الحشرة، زي الدبة.. بابا قال وهو في السرير عيان وأنا باحضنه: ((زي الدبة إللي قعدت تحضن في ابنها لغاية ما مات)))).

لم؟ لم احتضنته بشدة؟ لم لا تكون رقيقة كما يريد هو؟

كل شيء تفعله تندفع إليه بقلبها وبكيانها وتحسب أنه صواب فإذا به خطأ. كل ما تفعله خطأ في خطأ، وليس هناك من يحبها.. في المدرسة؟

لو رأتها عديلة ممددة في الصلاة لهزت كتفها وقالت: ((غلط، غلط منك.. إنت إللي غلطانة، فضلت ساكتة لما ركبوك، إنت أصلك ضعيفة)).

وقالت ليلي بصوت هامس باكٍ: ((أعمل إيه يا عديلة؟ أقدر أعمل إيه؟)).

نعم هي ضعيفة، ضعيفة كأماها، وكأماها ستظل ضعيفة طول عمرها.. تبيض شفتاها وتنزل دموعها بلا صوت.

وارتفع صوت أمها من خلف الباب:

- يا بنتي إحنا ضروري صوتنا يجيب لآخر الشارع؟ افتحي يا بنتي، حتموتي من الجوع!

وقال محمود:

- افتحي يا ليلي، بابا نزل.

ولحظت لأول مرة أن الحجرة قد أظلمت وأنها لم تضيء النور.

وازداد القرع على الباب ولم تجب.

وقال محمود في صوت غاضب:

- ليلي.. حنضطر نكسر الباب!

وترددت برهة ثم قامت إلى الباب وأدارت فيه المفتاح.

وعادت إلى المقعد وخلفها وقع أقدام والنور الكهربائي يؤلم عينيها.

ورفعت ليلي يديها تحجب النور عن عينيها.

وقالت أمها:

- قومي بقه بلاش عند، قومي يا بنتي.

وأزلت ليلي يديها ونظرت إلى أمها دون أن تتكلم، وبدأت في عيني الأم دهشة أعقبتها استنكار وقالت:

- كان حد قال لك تعملي العملة السوداء إللي عملتيها؟ تفضحينا وتجرسينا في الحتة؟ هي جميلة مش بنت زيك؟ إسمعني ما عملتش عملتك؟

ودخل محمود وهو يحمل كوبًا من الماء ووقف أمام ليلي، وأخذت ليلي الكوب دون أن ترفع عينيهما إليه، وتقلصت أعضاؤها والماء ينزل فيها، وانطوت بنصفها الأعلى على بطنها وأحاطتها أمها بذراعيها من الخلف.

ووقف محمود يواجه النافذة وقد أعطى ليلي ظهره، وحين خرجت الأم استدار في ببطء وقال في ارتباك وكأنه يجد صعوبة في طرق الموضوع:

- أنا آسف يا ليلي على إللي حصل، وأعدك إنه مش حيتكرر تاني.. أبدًا!

وسالت دموع ليلي، وقلبت شفتها السفلى، وبدأت في عينيها نظرة حزينة، وهزت رأسها وهي تقول:

- وإيه الفائدة؟ إيه الفائدة يا محمود؟ أنا اتقتلت خلاص! انتهيت! بعد إللي حصل النهارده كل حاجة اتغيرت، ما بقيتش إنسانة، بقيت ممسحة، ممسحة جزم!

وغطت ليلي وجهها وانخرطت في عويل اهتز له جسمها.

واقترب منها محمود ووضع يده على كتفها وقال:

- بلاش كده يا ليلي، بلاش عشان خاطري، بلاش المبالغة دي.

- دي الحقيقة.

وسكت محمود قليلًا ثم قال في تردد:

- عارفة يا ليلي، المهم إنك تدركي إنك كنت غلطانة، لو أدركت كده مش حتتألمي زي ما بتتألمي دلوقت.

وأزاحت ليلي يد محمود بعنف عن كتفها، وقفزت واقفة وشفتاها ترتجفان:

- وإنت كمان؟ إنت كمان يا محمود؟ إنت بتقول إني غلطانة؟!

وانهار صوتها وهي تردد:

- وإنت كمان يا محمود؟! وإنت كمان؟!

- اهدي شوية وخلينا نتناقش بعقل.

- عقل! فين هوّ العقل ده؟ أنا مش فاهمة حاجة، مش فاهمة حاجة خالص.. أنا غلطانة.. غلطانة ليه؟ ما سرقتش حد، ما قتلتش حد.. خرجت في مظاهرة فيها ألف بنت، عبرت عن شعوري! وتوقفت ليلي عن الكلام برهة وكأنها تفكر، ثم قالت بصوت خافت وكأنها تخاطب نفسها:

- غلطانة، فعلاً غلطانة، عبرت عن شعوري زي ما أكون إنسان ونسيت، ونسيت إنني مش إنسان، نسيت إنني بنت.. ست!

وضحكت ضحكة أشبه بالعويل.

والتفتت إلى محمود وهي تكمل كلامها:

- مش ده إللي إنت عايز تقوله يا محمود؟

- أنا ما قتلتش كلام فارغ زي ده، وإنت عارفة كويس، عارفة إنني أحترم المرأة، وأعتقد إنها زي الرجل تمام.

وأكملت ليلي كلامه وهي تشير بيدها إشارة خطابية:

- لها كل الحقوق وعليها كل الواجبات.

ثم التفتت إلى محمود وهي تبتسم ابتسامة باكية:

- على الورق؟ مش كده يا محمود؟ على الورق؟

- ورق إيه؟

- كلام حلو على الورق، ولكن لما ندخل في الجد، لما أختك تعبر عن نفسها كإنسان تبقى غلطانة! مش كده؟ تبقى غلطانة والغلط ركبها من راسها لرجليها!

وأدرك محمود أنها تقول الحقيقة، وأثاره هذا الإدراك وصاح في حدة:

- دي مش طريقة مناقشة دي، اهدي شوية وأنا أفهمك كل حاجة. وهزت ليلي رأسها، وقالت وقد اختفت من صوتها نبرة الغضب وحلت محلها نبرة يأس:

- أنا مش فاهمة حاجة يا محمود، مش فاهمة حاجة خالص، إيه الصح؟ وإيه الغلط؟ مش عارفة أصدق مين؟ وما أصدق مين؟ وأعتقد في إيه؟ وما أعتقدش في إيه؟

ولم يحر محمود جواباً، وقالت ليلي:

- قول لي يا محمود، أعمل إيه؟

ونظرت إليه بتوسل وكأن حياتها تتوقف على رده على هذا السؤال. وبدأت الحيرة على وجه محمود، وود لو استطاع أن يهون عنها بأي كلمة، أن يكذب عليها كما كان يفعل وهي صغيرة وأن يدفن رأسها في صدره، ولكنه أدرك أنها كبرت، كبرت أكثر مما كان يتوقع، وأراد أن يقول لها إن

المشكلة ليست مشكلتها وحدها وإنما مشكلته هو أيضًا ومشكلة جيلهم كله، ولكنه وجد أن من السخف أن يتفلسف وإنسان يتألم أمامه.

ودخلت أمه تحمل صينية الطعام ومسح محمود وجهه بيده، وبقي السؤال معلقًا بلا جواب.

ووضعت الأم الصينية على مائدة خشبية صغيرة أمام المقعد وقالت:

- اقعدي يا بنتي كلي لقمة، والله إنت غلبانة ومسكينة وجايبة لروحك النكد!

ولم ترخ ليلي عينيها عن محمود. وضايقه إصرارها على انتظار الجواب وقال بحدة:

- ما تسمعي الكلام يا ليلي وتقعدي تاكلي!

وأغمضت ليلي عينيها لحظة ثم فتحتهما وقالت:

- اخرجوا الأول.

ونظرت الأم إلى محمود تنتظر قراره. وأشار إليها بالخروج وسار خلفها، وعندما هم بإغلاق الباب خلفه تعمد أن تلتقي عيناه بعيني ليلي.. وفهمت ليلي، ففهمت أنه هو بدوره حائر مثلها، مسكين مثلها، إنه يعرف ما الخطأ وما الصواب ولكن على الورق.. على الورق.

ونظرت ليلي إلى الطعام لحظة ثم أشاحت بوجهها عنه، واتجهت إلى مفتاح النور وأطفأته ثم تحسست طريقها إلى المقعد وجلست.

وسمعت ليلي طريقة خفيفة على بابها، واتصلت الطريقة خفيفة في إلحاح، ولم تجب، ثم انفتح الباب وسطع النور في الحجرة، ووقف عصام على الباب وعلى شفثيه بسمة مرتبكة:

- أقدر أدخل؟

ولم تجب هي، واختفت ابتسامة عصام، وبدأ يحك ذقنه بيده، وقالت ليلي:

- أرجوك يا عصام سبني دلوقت!

وأشرق وجه عصام، وتقدم إلى داخل الغرفة، وجلس على طرف السرير مواجهًا ليلي، ومال بنصفه الأعلى إلى الأمام وشبك يديه حول ساقيه وقال:

- أسيبك إزاي بقه يا ستي؟ إنت مش أختي الصغيرة؟

وأخذت ليلي تفرع مسند الكرسي بيدها قرعات خفيفة منتظمة.

أختها! أختها الصغيرة! لم تعد هذه الجملة تؤثر فيها، ولكن في يوم من الأيام كانت غارقة وانتشلتها هذه الجملة.. في حوش البيت محمود قفز وقال: ((ليلي مش أختي.. مش بنتنا.. مش بنتنا))، وعصام قال: ((أختي أنا.. أختي الصغيرة)). ((خلاص.. أنا أخت عصام، أخت عصام

الصغيرة)). ومن يومها وهو يدللها بهذا اللقب.

وكان عصام ما زال في جلسته وما زالت عيناه متعلقتين بليلي. ولحظت هي أن يدها تقرع مسند المقعد وسحبته إلى جانبها وارتمت في جلستها ومالت برأسها إلى الخلف.

وقام عصام من على طرف السرير، وجلس نصف جلسة على مسند المقعد الذي تجلس عليه ليلي، ومال عليها ومر بيده برقة على خدها من أسفل إلى أعلى، وأزاح خصلة من الشعر تهدلت على جبينها. وتوقف تنفس ليلي حتى أكملت يد عصام دورتها، وهوى قلبها إلى أسفل جسمها ودق دقة عنيفة. وقال عصام:

- أنت مش عايزة تكلميني ولأ إيه يا ستي؟

بصوت صغير كمن يكلم طفلة صغيرة، طفلة تافهة حقيرة.

وقامت ليلي كالملدوغة من على المقعد وقد سعد الدم إلى رأسها، وأعطت ظهرها لعصام وتقدمت حتى حاذت النافذة، وخلفها وقف عصام ووضع يديه على كتفيها، واستدارت هي استدارة عنيفة لتواجهه وهي تقول في غضب:

- اسمع يا عصام أنا مش عيلة!

ولم تكمل جملتها. تقلص وجه عصام كمن يعاني ألماً عنيفاً، ولمعت حبات من العرق على جبينه، ولفحت أنفاسه وجهها ساخنة، وشعرت بجسمه يلاصق جسدها، وتراجعت حتى التصقت بجدار النافذة. ولانت ملامح عصام، ولانت عيناه، وأشرق فيهما نور ثاقب اخترق جسدها واستقر في حناياها.

وقطعت خطوات أمها لحظة السكون التي دامت بينهما، وعيناه في عينيها والنور في حناياها، وهز عصام رأسه كمن يفيق من حلم، واحمر وجهه وأخرج منديله وجفف العرق من على جبينه ثم بدأ يحك ذقنه بيده.

وفتحت أمها الباب نصف فتحة، واستدار عصام دون أن يلتفت إلى ليلي واتجه إلى الباب، وتراجعت أمها تفسح له الطريق، وأقلع عصام الباب خلفه في رقة وحرص، وسمعت ليلي همساً في الصالة ثم خطوات تبتعد.

وجرت ليلي إلى المرأة، وأسندت خدها إليها، ولكن برودة المرأة لم تطفي ذلك الشيء الذي يتوهج كالشرار في صدرها بل زادته اشتعالاً. وجرت إلى النافذة وفتحتها على مصراعيها، وانكفأت على حافتها ودلت رأسها ويديها في الهواء.

كم دامت هذه اللحظة؟ دقيقة؟ عُمر؟ لقد عاشتها من قبل، نعم عاشتها بكل تفاصيلها. متى؟ قبل أن تولد؟ بعد أن ولدت؟ في الحقيقة؟ في الحلم؟

وانسحبت غمامة من على القمر، وشعرت ليلي بالنور يغمرها ويتساقط كالأزهار من شعرها ويديها. وعرت جسدها رعدة من برودة الجو فاستقامت وأقفلت النافذة وعادت إلى مقعدها، ولمحت الطعام فشعرت بجوع شديد، والتهمت عشاءها بشهية، واندست في قميص النوم وأطفأت النور

ودخلت السرير وأغمضت عينيها ونامت نومًا عميقًا، ولكنها صحت مبكرة مع الفجر .



صحت ليلي واسم عصام على لسانها، وأبقت عينيها مغمضتين على صورته وهو يقف تجاهها يركز عينية في عينيها.

وشعرت وهي مستلقية في سريرها كأنها تعيش اللحظة من جديد، شعرت بنور ثاقب يخترق جسدها ويستقر في حناياها.

وتنهدت ليلي وتمطت وفتحت عينيها وراحت تستعيد ملامح عصام في ذاكرتها، وانطبعت أمامها صورته وهو يقف تجاهها يركز عينية في عينيها، وحاولت أن تتذكره كما كان منذ سنة، منذ شهر، منذ أسبوع، ولكنها لم تستطع، وكأنها لم تشاهده من قبل، وكأنها لم تشاهده إلا أمس وهو يقف تجاهها ينظر إليها بوجهه الحليق وببذلتة الأنيقة في لون البن المحروق، وبربطة عنقه السماوية، وبقميصه الأبيض بياض الثلج.

ووضعت ليلي يديها على الوسادة تحت رأسها وابتنمت.. أليس من المضحك أنه كان دائمًا معها، منذ الطفولة معها، تحت سقف واحد ولم تره إلا بالأمس؟ وهذه الفكرة بدورها مضحكة. كيف؟ كيف لم تره إلا بالأمس؟ لقد رأته آلاف المرات، ولعب معها وهي طفلة، وكان هو الذي علمها العد من واحد إلى عشرة، وكتابة اسمها بالعربية والإنجليزية، وهو الذي حماها من سيطرة محمود. ثم رأته بعد أن بلغت كل يوم. ومع ذلك لم تره إلا أمس، وكأنه مخلوق جديد، وكأنها رأته من قبل بعين غير العين التي رأته بها أمس، عين.. عين القلب، عين الحب.

وقفزت ليلي جالسة في سريرها وأحاطت فخذها بذراعيها..

نعم هو الحب.. الحب. وهمست ليلي: ((عصام بيحبني وأنا باحب عصام)).. واستمعت إلى الكلمات كلمة كلمة، وملأتها الكلمات كأنها السحر بشعور غامر من السعادة، وعادت تردد الجملة كأنها أغنية، تستمع كل مرة إلى وقعها في نفسها وهي تهز رأسها منتشية.

وغمرها الشعور بالسعادة حتى لم تعد تتحمله، وأرادت أن تصرخ، أن تغني، أن ترقص، أن تقفز.. وقفزت من السرير إلى وسط الحجرة وجرت إلى النافذة، وفي سرعة واضطراب فتحتها على مصراعيها.

كان نور الفجر يمزق ما تبقى من وحشة الليل، وحشة الظلام. ووقفت ليلي رافعة الرأس مفتوحة الصدر، وقفت تتلقى أشعة النور وكأنها تمتصها في حناياها شعاعًا وراء شعاع.

وأدركت فجأة، وهي واقفة في النافذة، أن مرحلة جديدة من مراحل حياتها قد بدأت. لقد انتهت دنيا أحلامها، انتهت بلا رجعة، حطمها أبوها. وبدلاً من دنيا الأحلام تفتحت أمامها دنيا الحقيقة، لا دنياهم الكئيبة المقيدة، بل دنيا حرة، تستطيع فيها أن تحب وتحب، بلا خوف بلا وجل بلا لوم بلا ندم.. دنياها هي وهو.. دنياهما التي لا يستطيع العالم الخارجي أن ينفذ إليها أو أن يتحكم فيها.. دنياها التي تستطيع فيها أن تعبر عن نفسها كالطير الطليق، وهي تعرف طول الوقت أنها محبوبة

وأنها مرغوبة وأنها محترمة وأن كل تصرف لها معقول ومقبول.

واستدارت ليلي وأعطت ظهرها للنافذة واستندت على حافتها بذراعيها وأغمضت عينيها، ومضت تمشي في الحجرة وهي تتمايل كأنها ترقص، ثم توقفت وفتحت عينيها، وعلى مبعدة عكست لها المرأة صورة فتاة متوردة الخدين يشع النور من عينيها ومن شفثيها ومن خديها، وخيل إليها أن الشمس المنعكسة على المرأة تخدعها، وجرت إلى المرأة والتصقت بها.

واكتشفت ليلي لأول مرّة في حياتها أنها جميلة.. ووجدت نفسها تضحك وحدها كالمجنونة أمام المرأة، وابتعدت قليلاً وأحنت رأسها وسندت صدغيها بيديها وراحت تسكن من موجات الضحك التي اجتاحت جسمها.

ولمدة أربعة أيام لم يظهر عصام. انتظرت له ليلتي ظهر اليوم الأول ثم في العصر ثم في المساء واليوم التالي والذي يليه ولم يظهر عصام.

وانتقلت له الأعذار في بادئ الأمر، قد يكون مريضاً أو اختلف مع محمود، ولكنه لم يكن مريضاً ولم يكن مختلفاً مع محمود. شيئاً فشيئاً تمكنت من ليلتي الحقيقة التي حاولت أن تهرب منها، أدركت أن عصام يتجنبها، يتجنبها هي بالذات.

وداهمها شعور ممض بالخوف، كما لو كانت تركت وحيدة في صحراء شاسعة مظلمة مخيفة، وما من إنسان معها، ولا حائط تستند إليه، وهي ضعيفة لا تقوى على الوقوف، والأرض تغور تحت قدميها، وهي لا تستطيع أن تنظر إلى الخلف، فقد انقطعت الصلة بينها وبين الخلف، بينها وبين الأحلام، ولا تستطيع أن تنظر حواليتها فليس حواليتها إلا الصحراء الكئيبة، ولا تستطيع أن تنظر إلى الأمام فليس أمامها إلا الظلام.

هل أخطأت؟ ألم ينظر عصام إليها هذه النظرة؟ وإن لم يكن قد فعل فلم تغيب؟ لم إذن يتجنبها؟ هل أملت نفسها عليه؟ هل فرضت نفسها عليه؟ إنها لم تتكلم! لم تنطق! يا رب ماذا فعلت؟ ماذا فعلت ليتملكها هذا الشعور بالهوان، بالضياح؟!

لو استطاعت أن تفهم، لو فهمت حقيقة الوضع لهان عذابها، ولكنها تحاول ولا تستطيع، لا تستطيع أن تفهم لماذا اقتحم عصام حياتها هكذا؟ ولماذا مضى هكذا؟ إنها تستطيع دائماً أن تصعد إلى شقة خالتها وأن ترى عصام، وأن تستوضحه الأمر، ولكنها لن تفعل، ولو طال هذا الوضع ألف سنة، لن تملي نفسها على أحد، لن تفرض نفسها على أحد، وكفاها ما أصابها من هوان، هوان لم يكن لها يد فيه، فهو الذي جاء وهو الذي ذهب.

ومن حول ليلتي مضت الدنيا كما تمضي دائماً، وليلى تصبح وتمسي وتذهب إلى المدرسة وتأكّل وتتكلّم وتذاكر وتندّش عندما تجد نفسها تضحك أحياناً وتتحمس. كانت الجرائد قد بدأت تتكلم عن ضرورة تنظيم كفاح مسلح في منطقة القناة، وباب التطوع قد فُتح للفدائيين، ومحمود قلق يتقلب كالحمص في المقلاة وهو يمر بمرحلة اتخاذ قرار، وفي قلب كل إنسان تطوف رغبة في أن يكون هناك في القناة وجهاً لوجه أمام العدو في معركة موت أو حياة.

وكانت هذه الرغبة تطوف بقلب ليلتي أحياناً، كما تطوف بكل قلب، وفي كل مرّة طافت هذه الرغبة بقلبها كانت تجد لذة غامضة في تحقير نفسها، فهي أولاً بنت والبنت ليست إنساناً. وحتى لو كانت رجلاً لما استطاعت، إنها ضعيفة، وشرف الكفاح من أجل مصر ليس من نصيب الضعفاء!

وفي مرّة همس لها خاطر حيرها.. في المظاهرة لم تكن ضعيفة، كانت قوية، كانت خفيفة،

والجماهير تحميتها وتسندها، وحتى أبوها لم يستطع أن يخيفها وهي في المظاهرة!
ولكنها سخرت من نفسها من جديد، إن قوتها، إن كان لديها قوة لا تتبع من داخلها، بل تأتي من الخارج، وهي على كل حال لا تستطيع أن تقضي بقية عمرها في مظاهرة!

* * *

كانت ليلي جالسة مع أمها العصر في الصالة حين أخبرتها أن جميلة قد قررت قبول العريس، وأن الخطبة ستُعقد قريباً، وقالت ليلي:

- يعني جميلة كانت ويايا طول النهار في المدرسة وما قالتش!

وقالت أمها:

- يمكن خايفة تجرحك.

وبدت الدهشة في وجه ليلي:

- تجرحني؟

- يعني عشان من سن واحدة وهي حتتجوز قبل منك.

وأرادت ليلي أن تحتج ولكنها لم تجد في نفسها القدرة حتى على الاحتجاج، وجلست تستمع من أمها إلى القصة كاملة، وبدأت تهتم بالموضوع وتستقصي ما استعصى عليها فهمه.

فالعريس هو المقاول الذي قام ببناء بيت دولت هانم في الدقي، وقد طلب منها أن تخطب له بنت ناس على أن تكون بيضاء، وفكرت دولت هانم في جميلة وعرضت عليه صورتها فوافق وتقدم إليها وعرض أن يدفع مهرًا قدره 300 جنيه مقابل تأثيث أربع غرف.

ووجدت خالتها أن العريس ((لُقطة)) ولا يقع للبنت مثله مرّتين. ولكن ظروفها المالية لم تكن تسمح بمواجهة نفقات الزواج، فهي تعيش وجميلة وعصام على المعاش الذي تركه المرحوم زوجها، ومصارييف كلية الطب ((تقطم الوسط)) وكل شيء ارتفع ثمنه ((والدنيا بقت نار)).

ولم تصرح أم جميلة بهذه الحقيقة في بادئ الأمر ((والواحد نفسه عزيزة)).

وتعللت بأن البنت ما زالت صغيرة، ولكنها لم تقطع حبل الاتصال بينها وبين العريس خلال وساطة دولت هانم، شددت الحبل باحتراس حتى لا ينقطع، ثم فرغ صبر دولت هانم واضطرت أم جميلة أن تخبرها بالحقيقة من خلال دموعها، وتولت دولت هانم تنظيم المهمة.

أخذت جميلة إلى ((شيكوريل)) واشترت لها فستان دانتل مبني، ومن ((شيكوريل)) إلى الكوافير حيث أشرفت على تصفيف شعرها وتزيين وجهها، ومن هناك إلى بيت دولت هانم حيث كان العريس في الانتظار.

وكانت هذه نقطة التحول، فعندما رأى العريس جميلة أمامه وجهًا لوجه، لحماً ودمًا ((والبني آدم

مش زي الصورة)) وقع ((الشوشته))، كما قالت أم ليلي.

ولكن المؤكد أن جميلة لم تقع ((الشوشتها)) في العريس في بادئ الأمر، فقد أخبرت ليلي أنه عجوز وبلدي وبكرش، ولكن التحول حدث تدريجيًا، أوصل العريس جميلة وأمها إلى البيت بعربته ((الفورد))، وفي الطريق أراهما فيلته في الهرم وقال إنه سيخليها من السكان لتسكنها العروسة، وبدأ رأس جميلة يلف.

ولكن مشكلة أم جميلة كانت ما زالت قائمة، كيف تؤثث أربع حجرات بثلاثمائة جنيه؟ هذا إلى جانب الأثاث اللازمة لجميلة وقمصان النوم والملابس الداخلية وما إلى ذلك؟

ولكن أم جميلة لم تفكر في المشكلة طويلًا، ففي اليوم التالي زارتها دولت هانم وأخبرتها أن ((الرجل حيتجن على جميلة وما بينامش الليل)) وأنه إكرامًا لعيني جميلة يعرض أن يقوم هو بتجهيز البيت بأكمله والمطبخ بكل المعدات بما فيها ((الفريجيدير)) و((البوتاجاز))، وأن يدفع علاوة على ذلك المهر الذي كان سيدفعه أولًا وقدره ٣٠٠ جنيه.

ولم تسع الدنيا فرحة أم جميلة، وبدأت ((تدوي على ودن البنات والدوي على الودان برضه بينفع))..

وأسندت ليلي ظهرها على المقعد، وتصورت خالتها وهي ((تدوي على ودان جميلة))، وانطبعت أمامها صورة خالتها بجسدها المليء وسمرتها الرائقة وشعرها المصفف وملامحها السمحة الدقيقة، ورأتها وهي تميل على جميلة تُقبلها وتحضنها وتدللها وكأنها طفلة صغيرة وتأسرها في نفس الوقت بقبلاتها وبنعومتها وبحنانها.

وابتسمت ليلي ابتسامة خفيفة.. إنها تعرف طريقة خالتها، تعرفها جيدًا، إن خالتها مختلفة تمامًا عن أمها، إنها تشبهها في الشكل فقط، ولكنها أكثر مهارة منها في فن الحياة، إن خالتها تعرف دائمًا ما تريد، وتصل دائمًا إلى ما تريد، بالنعومة وبالقبالات وبالحنان، وأمها قد تعرف ما تريد ولكنها لا تصل دائمًا إليه، إنها تهاجم الإنسان وتصرح بما تريد وتؤنب وتلوم وتقرع، بينما لا تصرح خالتها أبدًا بما تريد، إنها توحى به بلفتة، بكلمة عابرة، وتلف وتدور فإذا ما وجدت مقاومة تراجع مؤقتًا لتعاود السعي. إذا قالت جميلة: ((لأ يا مامي مش عاجبني، مش عايزة أتجوزه))، قالت هي: ((بلاش يا حبيبتي، أنا مش عايزة حاجة إلا إنك تكوني دايمًا مبسوفة)).

ثم تشير إشارة عابرة، إلى فلانة الفلانية التي تزوجت عن حب ثم فشلت في زواجها لأن الاستقرار المالي أساس كل زواج سعيد. وتقول لجميلة في مناسبة أخرى: ((نفسى يا جيجي يكون عندك أحسن عربية في البلد وأحسن فساتين، إنت جميلة يا جيجي والجمال ده خسارة يتبهدل يا حبيبتي)).

وقالت أم ليلي:

- شاطرة.

وانتزعت هذه الكلمة ليلي من تفكيرها وقالت:

- هي مين؟

- أختي سميرة، خالتك، شاطرة، عرفت تطوي البنت تحت جناحها، والبنت كمان عقلها طار لما سمعت حكاية الخاتم ((السوليتير)) دي.

- ((سوليتير)) إيه؟

- العريس عقبال عندك حيحبيب لها خاتم ((سوليتير)) و...

ودق جرس الباب الخارجي، وقامت ليلي لتفتح، ووجدت على الباب سيدة خادمة خالتها. ورفعت سيدة وجهها المكتنز إلى ليلي وانفجرت شفتاها الغليظتان عن ابتسامة:

- الست الصغيرة بتقول اتفضلتي شوية.

وأعطت سيدة ليلي ورقة مطوية.

وفتحت ليلي الورقة وقرأتها:

سواء وعديلة هنا، أرجو أن تطلعي، وإذا لم تطلعي فسأنزل لإحضارك، قبلا.

وقالت ليلي لسيدة وهي ترد الباب:

- انتظري شوية.

وأمسكت ورقة وقلماً وبدأت تكتب وقد تجهم وجهها.

وقالت أمها:

- مش عايزة تطلعي ليه؟

- دماغي بتوجعني!

- عايزاهم يقولوا إيه؟! غيرانة!

وجزت ليلي على شفتها وهي تكتم سيل اللعنت التي توالى في ذهنها، وقالت:

- أنا؟! أنا غيرانة؟!

- خلاص، اطلعي باركي لخالتك وللبنات.

ووقفت ليلي مترددة في الصالة.. إنها لا تريد أن ترى عصام، ولكن لا بد أنه ما زال في الخارج مع محمود، ثم إنها لا تستطيع أن تنقطع عن خالتها نهائياً، وخاصة أن ذلك الانقطاع سيفسر تفسيراً عجيباً بعد خطبة جميلة، وإن رأته، إن كان موجوداً، ستعامله بطريقة عادية كما لو كان شيء ما لم يحدث بينهما.

وفتحت ليلي الباب وقالت لسيدة:

- طيب يا سيدة قولي للست إنني طالعة.

ومضت سيدة في تنافل وهي تهز ردفها.

ووقفت ليلي أمام الدولاب وامتدت يدها دون أن تشعر إلى أجمل أثوابها، إلى ثوبها الأحمر حمار البطيخ.. لقد قالت خالتها إنه يبرز جمال بشرتها.. لا لن تلبس هذا الثوب، لن تتزين له، لن تسعى إلى استعادته. ونحت ليلي يدها عن الثوب واختارت بلوزة وردية وجيب أسود بسيطاً، ومشطت شعرها القصير في إهمال وصعدت إلى شقة خالتها وضربت الجرس

فتح عصام الباب وكان مرتدياً ملابس الخروج، بذلته الكحلي المقلمة التي يعتز بها، ووقف يسد الباب وكأنه لا يريد أن تدخل ثم تراجع إلى الخلف.

ونسيت ليلي ما انتوته من معاملته بطريقة عادية، فما إن لمحته حتى تجهم وجهها وأشاحت بنظرها بعيداً عنه، وتقدمت في اتجاه حجرة الجلوس.

وهمس عصام يناديها:

- ليلي.

واستدارت تواجهه. وفي عينيه رأت نظرة عجيبة، نظرة لم ترها من قبل في عيني إنسان، نظرة حيوان حبيس يتألم، نظرة حيوان جريح.

وقفزت الدموع إلى عينيها، وأغمضتهما وجزت على شفتها لتكتم الدموع، واستدارت لتمضي في طريقها من جديد.

ووضع هو يده على كتفها في رقة متناهية، وكأنها مخلوق رقيق يخشى عليه أن يتحطم من لمسة يده، وعندما استدارت لتواجهه من جديد كان وجهه قد لان وعيناه قد لانتا وأشرقتا بنور ثاقب يخترق جسمها ويستقر في حناياها.

وسالت من عينيها دمعتان مسحتهما بكم ثوبها، وهزت رأسها في حيرة وفتحت باب حجرة الجلوس ودخلت.

ووقف عصام أمام باب حجرة الجلوس الذي أغلق في وجهه.. لا.. لا يمكن أن تتركه هكذا، هكذا، والدموع في عينيها، لا، لا يمكن أن تتركه، إنها معه هنا في جسده، في دمه، في أحضانه، يمسح بقبلاته دموعها وخديها وفمها الدقيق الوردي المنفرج كزهرة متفتحة.. وشعر عصام بالدم يغلي في عروقه ويتركز في مؤخرة رأسه وكأن ليلي في صدره فعلاً، وكأنه يُقبلها فعلاً، يذيب في قبلاته حرمان أربعة أيام وحرقة أربعة أيام، يُقبلها في نهم، في جنون، بلا توقف، بلا انقطاع، في فمها المستدير، في صدرها المستدير، في جسمها المستدير.

وهز عصام رأسه وكأنه يفيق من حلم، واحمر وجهه، وجلس على مقعد في الصالة وعيناه معلقتان بباب حجرة الجلوس.. إنه قدر! كيف يجرؤ على التفكير فيها بهذه الطريقة وكأنها.. وكأنها امرأة رخيصة في الطريق، وهي ابنة خالته وأخت محمود، ووجهها وجه طفل، وجه أم، وجه أخت، وجه يصرف الشيطان نفسه عن الشر، وهو لم ينقطع عن التفكير فيها لحظة خلال الأربعة أيام الماضية، بهذه الطريقة القذرة المخجلة؟!

ذلك اليوم.. عندما التصق جسمه بجسمها بالقرب من النافذة شعر بألم مفاجئ، ألم حاد ممض وكأن سكيناً قد اخترق ظهره بغتة ثم.. ثم نظرت إليه بعينيها و.. وارتد طفلاً، استعاد نفس الشعور اللذيق الهادئ الهائئ الذي لم يستشعره سنين طوالاً.. شعوره وهو طفل وأمه تميل عليه في سريره بوجهها الحلو. وغزت جسده سكينه تخدره وتهدهده، سكينه لم يعرف مثلها طوال حياته، وأدرك إذ ذاك، أدرك فجأة أن مصيره قد ارتبط بهذه الفتاة الحلوة التي تقف تجاهه، إلى الأبد.. إلى الأبد.

ولم يعرف كيف خرج من الحجرة وكيف استمع إلى هراء محمود وكيف صعد إلى شقته.. هل طار أم مشى؟

وفي فراشه كانت ليلي معه، في قلبه، في دمه، في جسده، وشعور ممض، شعور غارق في أعماقه لا يدرك كنهه، شعور يحول بين سعادته والاكتمال.

ثم بدا وهو مستلق على السرير يفكر في ليلي كجسد، بهذه الطريقة القذرة المخجلة، وكأنها.. وكأنها امرأة في الطريق... وطفا الشعور الممض الذي كان غارقاً في أعماقه ثم تحدد تدريجياً واتضحت معالمه.. وأدرك عصام أنه في مأزق مؤلم مضئ.. إنه يستطيع أن يتزوج ليلي ولكن متى؟ بعد سنين طويلة، بعد أن يتخرج، بعد أن يمضي سنة الامتياز، وربما بعد ذلك بكثير، بعد أن يستطيع أن يقف على قدميه مالياً، وطوال هذه السنين؟ طوال هذه السنين سيظل يشتهيها كما يشتهي الإنسان امرأة في الطريق، سيظل يجرم في حقها وفي حق محمود وخالته وأمه وأخته، في حق كل القيم الأخلاقية.

القيم الأخلاقية التي تعلمها والتي يؤمن بها تقول إن النساء نوعان: امرأة في الطريق تُستهي، وأم أو أخت أو زوجة، والمرأة التي تُستهي شيء رخيص، يحاز وتنتهي قيمته بانتهاء الشهوة، وهي صيد يصطاده الرجل، وينتصر عليه ويسببه كما تُسبى النساء في الحروب ويتفاخر بانتصاره أمام الآخرين. والإنسان لا يشتهي ابنة خالته ولا يشتهي حتى أخت صديقه إذا كان مهذباً، لأن الشهوة مرتبطة بالجسد والجسد قدر إلى أبعد حدود القذارة!

وفي تلك الليلة نام عصام نوماً مضطرباً وهو يتقلب في سريره وكأنه بحر مائج مكفهر، وصحا عدة مرّات على نفس الحلم يضمنه ويعذبه، حلم سخيّف، عديم المعنى، حلم مخيف.

فهو يجري في حوارٍ مظلمة، حوارٍ موحشة، يجري وخطر ما يهدده، خطر لا يدرك كنهه، ولكنه يدرك أنه يقترب منه خطوة بعد خطوة.

ويخرج إلى ساحة واسعة ويرى فيها جمعاً من النساء، ويدرك أنه نجا، ويسرع يشق طريقه بين جموع النساء، حتى إذا ما وصل إلى الوسط سقط منهاكاً.

ويتلفت عصام حوله فيجد ملابسه غارقة في الدماء، وعيني ميت تلاحقه، تخرق رأسه وصدره، تخرق جسمه وكأنها مسامير محمية.. ثم تستدير جثة الميت وتواجهه وتشير بإصبعها إليه.. الميت محمود والدم دمه.

ويحاول عصام أن يتراجع، ولكن النساء من حوله يطوقنه، ويشرن إليه بوجوه مكفهرة، بوجوه متشابهة، بنفس الوجوه، وجه.. وجه أمه.

وفي صعوبة يشق طريقاً بينهن، ويتراجع بظهره، وهن يلاحقنه خطوة بعد خطوة، وجهاً أمام وجه، وأصابعهن مشرعة في وجهه وفي صدره وفي جسده كالمسامير المحمية.

ويلتفت عصام خلفه ليجد نفسه على حافة هاوية عميقة مظلمة والنساء يتقدمن نحوه خطوة بعد خطوة.

ويصرخ عصام ويستيقظ من النوم.

وفي الصباح قرر عصام أن يتجنب ليلي وأن يدفن عاطفته لها، ولكي يتمكن من ذلك قرر في نفس الوقت أن يقوي من علاقته بعنايات، زميلته في الكلية، إن العلاقة بينهما لا تتعدى دور الاستلطاف ولكن من الممكن أن تتطور، إن عينيها السوداوين الكبيرتين تقولان أشياء وتعدان بأشياء، وقد تخرج معه إذا طلب منها ذلك، وقد تسمح له حتى بتقبيلها. إن عنايات جميلة قطعاً، بشعرها الأسود الذي ترسله في خصلات على جبينها، وبخصرها النحيل، إنها قطعاً من أجمل بنات كلية الطب.. منذ أيام السّنية وهي جميلة، أجمل بنات السّنية.

وقد استطاع أن يصمد لقراره أربعة أيام كاملة، ولكن ها هو ذا يجلس في الصالة وعيناه وأذناه وكيانه كله مشدود إلى باب حجرة الجلوس. كان من المفروض أن يخرج، أن يحضر حفلة الشاي في كليته ويقابل عنايات كما اتفقا، ولكنه لم يخرج، ارتدى ملابسه ولم يستطع أن يخرج. وها هو ذا يجلس في مكانه وكأنه مشدود إلى باب حجرة الجلوس بخيوط سحرية. لا يقوى على الحركة ولا يرغب في الحركة. ينتظر في صبر وكأنه خلق لينتظر، لينتظرها حتى تخرج إليه وتتنظر إليه بعينيها العميقتين، وتلفه بحنانها، وتعيد إلى قلبه وجسده السكينة التي لم يعرفها في حياته إلا حين نظرت إليه بعينيها الرائقتين تلك النظرة.

وسمع عصام صوت ليلي وهي تقول:

- دقيقة واحدة، حاشوف خالتي وننزل على طول.

وخرجت ليلي من الحجرة تتبعها جميلة، ومرت به دون أن تنتظر إليه وقالت جميلة:

- دهده! يعني ما نزلتش!؟

وقال عصام في اختصار وكأنه يريد أن يقلل الموضوع:

- عندي شوية صداع!

- طيب ما تيجي جوّه.

ومشى عصام خلف جميلة في الممر المؤدي إلى حجرة نوم أمه، وحين وصل إلى الحجرة كانت أمه تُقبل ليلى وتقول:

- عقبال عندك يا حبيبتي.

وعندما لمحته أمه التفتت إليه وقالت:

- إيه يا حبيبي إنت ما نزلتش ولّا إيه؟

وقالت جميلة وهي تمد يدها بـ ((الأسبرو)):

- عنده شوية صداغ. ((الأسبرو)) أهو يا عصام، وحاجيب لك الميه.

وخرجت جميلة من الحجرة.

ووقف عصام إلى جانب مقعد أمه، وليلى تجاهه على السرير. لم يرخ عينيه عنها، ولكنها تعمدت أن تتحاشى نظرتة.

وتناولت أم عصام قطعة من ((الأوبيسون)) كانت تطرز فيها وعرضتها على ليلى:

- إيه رأيك في الرسمة، عشان صالون جميلة؟

وفحصت ليلى الرسم وقالت:

- حلوة خالص يا خالتي، والغرزة جميلة، إنت هائلة خالص!

وقامت ليلى من مكانها لتعيد قطعة ((الأوبيسون))، وأمسكت بها خالتها وأمالتها إليها وقبّلتها في حنان. ورفعت ليلى رأسها وتقابلت عيناها بعيني عصام لحظة ثم أشاحت بوجهها بعيداً عنه.

وقالت أم عصام:

- عارف يا عصام ليلى بتفكرني بإيه؟ بتفكرني بنفسى لما كنت في سنّها، صورة طبق الأصل.

وابتسم عصام وأغمض عينيه لحظة ثم عاد يركزهما على ليلى. وقالت ليلى وهي تنظر إلى خالتها ثم تتلفت حولها إلى الغرفة الأنيقة الأثاث:

- مش معقول يا خالتي. بقه أنا حلوة زيك كده، ولّا شيك ولّا شاطرة؟!

وقالت خالتها:

- تمام يا ليلى، دا إنت شبيهي أكثر من جميلة، كان حقك تبقي بنتي مش بنت أختي سنية.

واستمعت جميلة إلى جانب من الحديث وهي تدخل حاملة كوباً من الماء، وأعطت الكوب لعصام وهي تقول:

- هيّ إيه الحكاية؟ نازلين مدح كده يعني في بعض!

وأمسك عصام ((الأسبرو)) في يد والكوب في اليد الأخرى، ووضع ((الأسبرو)) في فمه

وارتفعت اليد الأخرى بالكوب.

ثم توقفت في منتصف الطريق معلقة في الهواء.. كانت ليلي تنتظر إليه نظرة تساؤل حزينة.. نظرة عتاب.. وجرع عصام الماء دفعة واحدة واستدار ليضع الكوب على مائدة مجاورة، وتعهد أن يبقى مستديرًا مدة حتى يتغلب على تأثيره.

وقالت ليلي:

- عن إذنك بقه يا خالتي.

- مستعجلة ليه يا حبيبتي؟

- نازلة مع سناء وعديلة.

واستدار عصام وواجهها مبتسمًا:

- طيب سناء وعديلة وراهم مشوار وإنك وراك مشوار إيه؟

وقالت جميلة:

- قول لها يا عصام!

ولم تنتظر ليلي إلى عصام وهو يتكلم، وقفت عيناها عند ربطة عنقه ولم تتعدّها إلى وجهه، وحين تكلمت، لم توجه له الكلام:

- معلّش يا جميلة مرة ثانية.

وعندما توقف المصعد أمام شقة ليلي صممت أن تدخل عديلة وسناء معها الشقة، واحتجت عديلة بأن الوقت متأخر وألحت ليلي:

- عشر دقائق بس! اخص عليك يا عديلة! والنبي عايزة أسألك في حاجة!

- طيب ما تسألني دلوقتي.

- لأ جوّه.

وجلست الصديقات الثلاث في ركن من أركان حجرة الجلوس المذهبة، وبعد أن اطمأنت ليلي إلى أن الباب مقفل قالت:

- هيّ جميلة قالت لكم الصبح على حكاية الخطوبة دي؟

وقالت عديلة:

- هوّ دا السؤال؟ أما إنت بايخة صحيح! طبعًا قالت لنا! آمال إحنا جايين ليه؟ مش عشان

نبارك؟

- أنا أصلي عايزة أعرف، إشمعنى أنا إللى تخبي عني؟!

ومدت عديلة رقبته الطويلة إلى الأمام، ودقت على مسند الكرسي بإصبعها، ونظرت إلى ليلي بعينيهما الكبيرتين المغرقتين في السواد:

- بس كده؟ أفهمك أنا يا ستي، لو قالت لك حتقدي تتفلسفي زي عوايدك، والمثل بيقول ((الباب إللى يجيلك منه الريح سده واستريح)).

وضحكت ليلي وهزت كتفها:

- وأنا مالي حاتقلسف ليه؟ ما دام عاجبها خلاص، مبروك عليها. وقالت سناء:

- إيه إللى مش عاجبك فيه يا ليلي؟ إيه والنبي؟

ولم تجب ليلي. وقامت عديلة واقفة ووضعت يديها في وسطها ومالت على ليلي كأنها تستجوبها:

- جيبه فاضي؟

وابتسمت ليلي:

- مليون.

- عنده عربية؟

- ((فوردد)).

- والفيلا؟

- في الهرم.

وأشارت عديلة بيدها إشارة يأس وقالت:

- يا أختي بلا نيلة، ومش عايزاها تاخده، طول عمرك كده يا ليلي وش فقر!

وابتسمت ليلي وقالت:

- ساكتة ليه يا سناء؟ ما تلحقيني يا أختي!

وقلبت سناء شفتها الرقيقة، وارتفع أنفها الدقيق إلى أعلى، وسألت عديلة:

- بتحبه؟

ووضعت عديلة يدها على رأسها وتظاهرت بأنها داخت من السؤال وقالت:

- اتلهي.

ثم استدارت تواجه سناء وتقول:

- دي جوازة يا خيبة مش رواية.

وضحكت ليلي حتى طفرت الدموع إلى عينيها، وضمت سناء شفتيها الرقيقتين وهي تخفي ابتسامتها، واتسعت عيناها وهي تصطنع الدهشة:

- أمال حتتجوزه إزاي؟

وأدركت عديلة أن سناء تتعابط، وأمسكت بذراعها وقالت:

- قومي، قومي يا مقصوفة الرقبة نروح.

ولم تتحرك سناء.

- والنبي يا عديلة، حتتجوز إزاي؟

وقلبت عديلة كفها:

- حتخليني أقل أدبي! زي الناس.. زي أمك ما اتجوزت أبوك.

وقلبت سناء يدها بدورها وهزت كتفها:

- من غير حب، من غير شعر، من غير شوق، من غير...

وقاطعتها عديلة وهي تجلس:

- بس، بس، إنت حتلضميهم، ما إحنا حافضيهم.

وقالت ليلي:

- المسألة مش هزار يا عديلة، إنت زي أمك؟ أفكارك زي أفكار أمك؟ أمك اتجوزت من غير حب لأنها ما كانتش تقدر تعمل غير كده، ما كانتش تقدر تختار، وإن اختارت ما تقدرش تتجوز إللي اختارته، أمهاتنا كانوا حريم، ملكية للأب ينتقل للزوج، ولكن إحنا ملناش عذر.. تعليم واتعلمنا، وكل شيء فهمناه، وضروري نتحكم في مصيرنا، الحيوان نفسه بيختار.

وتحمست سناء ومدت يدها تخطب بها على كف ليلي وتقول:

- يا بت يا جامدة، تعجبيني.

وقالت عديلة ببرود:

- ومين قال لك إن جميلة ما اختارتش؟

وقالت ليلي ونظرة حزينة تبدو في عينيها:

- لأ يا عديلة. جميلة ما اختارتش، إللي اختار أم جميلة والناس إللي حواليتها، والأفكار القديمة بتاعتهم و...

وأكملت سناء كلام ليلي:

- ومواصفات ابن الحلال، إنه يكون ابن ناس وكويس ومريش ومقطوع من شجرة ولا يسكرش ولا يدخنش.

وقالت عديلة:

- أما بواخة صحيح، ضروري تفهموا إن الناس مش زي بعض. جميلة عندها فكرة عن الجواز وبتحاول تحققها، جميلة عايزة العربية وعايزة ((الفريجيدير)) وعايزة ((السوليتير)) وعايزة...

وأكملت سناء كلامها:

- الشاري إللي يدفع أكثر، مش كده؟

وتدخلت ليلي في الكلام:

- جميلة عايزة الحاجات دي كلها، لأن الناس فهموها إن الحاجات دي مهمة، إن قيمة الإنسان في امتلاك الحاجات دي، إن الإنسان ما يكونش محترم إلا إذا كان غني.

وقالت سناء:

- لا، وفيه كمان نقطة تانية، هيّ جميلة مش كانت عايزة تتجوز واحد تاني؟!

- واحد تاني مين؟

وأدركت ليلي أن عديلة لا تعرف قصة جميلة وممدوح، وقالت لكي تستبعد الموضوع من المناقشة:

- دا كان مجرد كلام.

وسادت فترة سكون، ثم قالت ليلي في وجوم:

- عارفين حكاية صفاء دي، ما بتروحش أبداً من دماغي، بتخليني دايمًا أعتقد إن البنت النهارده ما تقدرشي تعيش زي أمها ما كانت عايشة.

وقالت سناء:

- العقلية قطعًا اتغيرت، بالنسبة لأمهاتنا الجواز كان نصيب مكتوب على الجبين، لا الواحد يقدر يغيره ولا يهرب منه، ضروري يتقبله زي ما هو.. وبالنسبة لنا الوضع اتغير لأن عقلية الحريم اتغيرت.. البنت النهارده ما تقبلش الوضع إللي كانت أمها بتقبله.

وقالت عديلة:

- طيب قومي يا حضرة المفتي الأعظم، قومي أحسن الساعة قربت على تمانية، وبعدين أمك تضربك.

وقامت سناء وهي تضحك، ووقفت عذيلة في وسط الحجرة وقالت في سخرية:

- والله إحنا مصيبتنا سودة، علي الأقل أمهاتنا كانوا فاهمين وضعهم، أما إحنا، إحنا ضايعين، لا إحنا فاهمين إذا كنا حريم ولّا مش حريم، إن كان الحب حرام ولّا حلال، أهلنا بيقولوا حرام وراديو الحكومة طول الليل والنهار بيعني للحب، والكتب بتقول للبنت روجي إنت حرة، وإن صدقت البنت تبقى مصيبة، تبقى سمعتها زفت وهباب.. بالذمة دا وضع؟ بالذمة إحنا مش غلابة؟!

وأغمضت ليلي عينيها وارتجفت شفتها السفلى ورسمت بيدها على حافة المقعد خطوطًا متشابكة متعارضة. وقالت عذيلة:

- يلاً بينا، أظن اتفلسفتوا كفاية.

وضحكت سناء وقالت:

- يعني إنت إلهي ما اتفلسفتيش؟

وهزت عذيلة كتفها وهي تبتسم:

- يعني مليش نفس؟ أهو اتفلسفت باللي فيه القسمة.

ووقفت ليلي تودعهما حتى اختفتا عن نظرها، وأقفلت الباب ببطء واتجهت إلى غرفتها، وعند باب الغرفة توقفت قليلاً.. لا.. لا.. إنها لا تريد أن تتفرد بنفسها.. واستدارت واتجهت إلى غرفة الجلوس حيث جلست أمها إلى آلة الخياطة تخيط لها قميصًا للنوم. ورفعت أمها عينيها وقالت:

- نزلوا؟

- أيوه نزلوا!

وظهرت على ملامح الأم علامات الارتياح، وابتسمت ليلي في نفسها، إن أمها لا ترتاح ولا تطمئن حتى ينزل الضيوف.

وجلس ليلي إلى جانب أمها، ومدت يدها إلى كتاب على مائدة مجاورة وقلبت صفحاته حتى وصلت إلى الصفحة التي وقفت عندها، وبدأت تقرأ وصوت آلة الخياطة يصل إلى أذنيها متصلًا حينًا ومنقطعًا حينًا آخر.

دق جرس الباب الخارجي، وجرت نبوية الخادمة لتفتح الباب، واتضح خطوات في الممر، ورفعت الأم عينيها في توجس ثم انفرجت ملامحها، ووقف عصام على عتبة الباب مترددًا وعلى شفثيه بسمة مرتبكة.

وقالت الأم:

- ما تيجي يا عصام.

- هو محمود لسه ما جاش؟

- زمانه جاي.. ادخل يا ابني.

وجلس عصام على مقعد يواجه ليلي وأمها، وحجبت ليلي وجهها بالكتاب وتظاهرت باستئناف القراءة، وواصلت أمها العمل بعد أن قالت لعصام:

- مبروك يا ابني عقبال عندك.

وساد الصمت لا يقطعه إلا صوت آلة الخياطة. وعصام يسلط عينيهِ على ليلي، وليلى تتظاهر بالقراءة.

وقال عصام:

- بتقري إيه؟

وأزاحت ليلي الكتاب عن وجهها، وقالت في جفاف:

- كتاب لسلامة موسى.

وابتسم هو، ابتسامته نصف المكتملة:

- إشمعنى سلامة موسى؟

- لقيته في مكتبة محمود.

- إذا كنت عايزة تقري كتب قديمة عندك كتب...

وذكر عصام اسم أحد المؤلفين.

- قرئت له، لكن سلامة موسى أحسن.

ومال هو بنصفه الأعلى إلى الأمام وهو يجادلها عبر الحجرة:

- أحسن في إيه؟

- سلامة موسى بيقول إللي هوّ عايز يقوله على طول، ولكن الثاني بيلف ويدور وفين وفين على ما يقول إللي هوّ عايز يقوله.

ونظرت ليلي إلى عصام نظرة مباشرة صريحة، واحمر وجهه وحك ذقنه بيده ثم ابتسم وقال:

- إنت أصلك لسه صغيرة يا ليلي، ومش فاهمة إن فيه ظروف تخلي الكاتب ما يقدرش يقول إللي هوّ عايزه مباشرة.

وتوقفت آلة الخياطة، وقالت الأم:

- ونويتوا إمتى إن شاء الله؟

والتفت إليها عصام وفي عينيه نظرة مرتبكة وكأنه ضُبط وهو يرتكب جريمة، وقال:

- العريس عايز النهارده قبل بكرة، ولكن أنا باقول كفاية الخطوبة دلوقت، والجواز لما تبقى تاخذ التوجيهية.

وقالت الأم:

- طبعًا يا ابني، بعد التعب دا كله تخرج من غير شهادة؟!

ودارت آلة الخياطة من جديد.

وقالت ليلي:

- يعني جميلة مش حتروح الجامعة؟!

وابتسم عصام:

- يعني إنت إللي حتروحي الجامعة؟!

- وما رحش ليه؟

- وفايدتها إيه؟ كل بنت مسيرها الجواز.

وتوقفت الأم عن العمل وضحكت ضحكتها القصيرة اللطيفة:

- يسلم فمك يا ابني، طول عمرك عاقل، مش زي الشعنونة دي وأخوها.

وبدأت ليلي ترسم بيدها على ثوبها خطوطًا متوازية لا تتقابل، ورفعت رأسها وقالت في جد ووجوم:

- عارف يا عصام، أنا ما كنتش عارفة إنك رجعي كده!

وفلت الخيط من الإبرة وانهمكت الأم في لضمه.

- أنا مش رجعي يا ليلي، ولكن أنا عايش في الجامعة وأدرى بظروفها، وما أحبش إن أختي تكون فيها ولا إنت.. وإنت...

وارتجفت شفته السفلى، وغزا عينيه حزن عميق، يعكس رغبة حبيسة ترتجف في أعماقه، رغبة في الاندماج بهذه الفتاة التي تجلس أمامه. ودخل الخيط في الإبرة وانفرج وجه الأم.

وتحركت موجة جياشة في كيان ليلي وكأن عصام نقل إليها بهذه النظرة إحساسه، ولمعت الدموع في عينيها وتناولت الكتاب الملقى إلى جانبها في لهفة وغطت به وجهها.

وقالت أمها:

- أطلب لك شاي يا عصام؟

وباغته كلماتها من جديد وقال مرتبكًا:

- بلاش تعب يا خالتي.

- مفيش تعب، أنا خارجة بره على كل حال.

وأدار عصام رأسه حتى اطمأن إلى أن خالته قد اختفت، وتردد قليلًا وهو يتململ في جلسته، ثم وقف واتجه إلى ليلي وهي ما تزال تغطي وجهها بالكتاب، ووقف على مبعده منها وقال في صوت مختنق ثقيل:

- ليلي.

وسقط الكتاب من بين يدي ليلي ومالت لتستعيده، ورفعت إلى عصام وجهها تدريجيًا وهي تناديه بدورها، بشفتيها المنفرجتين، بخديها الورديين، بعينيها اللتين تلتمعان في خط من نور. واقترب عصام منها وكأنه مشدود إليها بقوة هائلة، قوة لا تقاوم، وقال:

- إنت عارفة؟ مش كده؟ عارفة من غير ما أقول.

ولم تستطع ليلي أن تتكلم، ضمت شفتيها في شبه ابتسامة وأغمضت عينيها وهزت رأسها من أعلى إلى أسفل هزات متكررة ثم فتحت عينيها على سعتيها بغتة، وكأن فكرة طرأت لها.. فكرة انتقصت من هذه السعادة التي غمرت كل ذرة من جسمها.. وهبت واقفة وقالت في صوت مشروخ:

- لكن إنت ما جيتش يا عصام! كل الأيام دي ما جيتش! ليه؟ ليه يا عصام؟

وارتسم على وجهها ألم لا يحتمل، ومد عصام ذراعيه ليحتضنها ليؤكد لها أنه لا يستطيع، حتى لو أراد، أن يبتعد عنها، ثم توقفت ذراعه في الهواء لحظة وانهارتا ثقيلتين إلى جانبيه، وأشاح بوجهه عنها وهو يقول:

- لكن إنت ما جيتش يا عصام! كل الأيام دي ما جيتش! ليه؟ ليه يا عصام؟

وارتسم على وجهها ألم لا يحتمل، ومد عصام ذراعيه ليحتضنها ليؤكد لها أنه لا يستطيع، حتى

لو أراد، أن يبتعد عنها، ثم توقفت ذراعاه في الهواء لحظة وانهارتا ثقيلتين إلى جانبيه، وأشاح بوجهه عنها وهو يقول:

- كنت خائف يا ليلي!

وأشارت ليلي بيدها إلى صدرها في دهشة:

- خائف مني؟ مني أنا؟

وابتسم وهو ينظر إليها في حنان:

- خائف عليك.

- من إيه؟

وقال عصام بعد تردد:

- من نفسي، ومن الناس، ومن الظروف، ومن... في الحقيقة مش عارف أفهمك الموقف إزاي يا ليلي!

- والناس مالهم ومالنا يا عصام؟ أنا مش فاهمة حاجة، مش فاهمة حاجة خالص و...

وتوقفت ليلي عن الكلام حين سمعت خطوات أمها تقترب من الحجرة، واتجه عصام إلى آلة الخياطة وتظاهر بفحص القميص.

وقالت الأم لليلي وهي تتجه إلى مكانها:

- هو إيه إيلي إنت مش فاهماه؟

وقالت ليلي في ارتباك:

- حنة من الكتاب، مش قادرة أفهمها.

وجلست الأم أمام آلة الخياطة وهي تقول:

- طيب ما تخلي عصام يفهمك.

وزال ارتباك ليلي ومالت برأسها إلى كتفها وهي تبتسم في خبث:

- عصام مش عايز يفهمني.

وأخفى عصام ابتسامته ونظر إلى خالته وهو يقف تجاهها وقال:

- أنا قلت لأ يا خالتي!

- أبدًا يا ابني، طول عمرك ابن حلال وبتفهمها كل حاجة، مش محمود إيلي ما عندوش صبر.

ودقت ليلي الأرض بقدمها وعيناها تلمعان في شقاوة:

- حتى كمان مش عارف، مش عارف يفهمني.

وانفجرت في الضحك، والتقت إليها عصام وود لو استطاع أن يحتضنها بين ذراعيه، أن يدفن هذا الوجه الضاحك في صدره، ويكتم هذه الضحكات بقبلاته قبلة وراء قبلة. ود لو استطاع أن يحتويها، أن يفنيها فيه فلا تضحك منه ولا تضحك إلا له ولا...

وسمع صوت مفتاح يفتح الباب الخارجي، وتوقفت ليلي عن الضحك واحمر وجه عصام وعاد إلى مكانه الأول وجلس في مقعده.

* * *

ودخل محمود وصافح عصام في حرارة وكأنه لم يره من سنين، ثم قَبَّل أمه في فمها وفي جبينها وخديها قبلات صغيرة متناثرة وهي تقاومه وتقول:

- ما تتكسف يا محمود!

ووجهها يحمر كفتاة في الرابعة عشرة من عمرها، ويدها تمسح في ارتباك على شعرها الذي تسللت إليه خيوط من فضة، ومحمود يحتج ويقول:

- إيه؟ الواحد ما يقدرش يبوس أمه كمان؟! أمال يا إخوانا يبوس مين؟ إيه رأيك في المشكلة دي يا عصام؟

وأدركت ليلي وهي تنتظر إلى أخيها أنه قد مر بمرحلة القلق، وأنه قد اتخذ قرارًا.. وجلست على مقعدها وقد ركزت عينيها عليه.

وقال عصام:

- لا، دا إنت رايق أوي النهارده!

وقال محمود:

- قرارات يا أستاذ، قرارات خطيرة.

وانسحبت رجة إلى جسم ليلي وتركزت في رأسها.. محمود ذاهب إلى القناة، إلى القناة.. وترددت هذه الكلمات في رأسها وكأنها نشيد، وغزت جسمها موجة من فخر، من حنان، من خوف، وهبت واقفة واندفعت إلى محمود وعيناها تلمعان. أرادت أن تحتضنه وتقبله ولكن عندما حاذته انحرفت عنه في خجل وقالت بصوت مرتجف دون أن تنتظر إليه:

- أعمل لك شاي يا محمود؟

وأدرك محمود أن ليلي قد فهمت، وليخفي تأثره جذب شعرها مقربًا رأسها إليه وقال:

- بعدين، بعدين يا ليلي.

وعادت ليلي إلى مكانها وعصام يقول:

- والحفلة كانت كويسة؟
- حفلة إيه؟ ودا وقت حفلات! أنا مش فاضي للكلام الفارغ ده.. ولكن على فكرة إنت يعني خرجت من الكلية من غير إحم ولا دستور.
- كنت تعبان.
- تعبان ولا جيت تلبس وتستوجه عشان الحفلة؟
- آديني ما رحتهاش يا سيدي!
- أمال الوجاهة دي عشان إيه؟
- كنت رايح وبعدين غيرت رأيي.
- وابتسم محمود في خبث وقال:
- ولكن صاحبتنا حترعل.. حترعل تمام.
- ولمح عصام ليلي تنتظر إليه، واحمر وجهه وقال:
- إنت حتلبخ!
- ورفع محمود كتفيه وذراعيه واصطنع البراءة وقال:
- أنا قلت حاجة! حاغير هدومي وأجيلك، عندي أخبار خطيرة.
- وخرج محمود.

* * *

- جلست ليلي صامته وقد جمد وجهها، واستأنفت أمها عملها،
وبدأت آلة الخياطة تدور وتطن في أذني ليلي، وارتفع طنينها تدريجيًا حتى خيل إليها أنها أصبحت معاول تدق في رأسها بعنف.
- وهبت ليلي واقفة وهي تنتظر إلى عصام، وأشاح عصام بوجهه بعيدًا عنها.
- والآلة تدور والمعاول تطرق في رأسها بعنف، وارتفع الدم في جسد ليلي وتركز في رأسها، وتقدمت نحو عصام وقد أعطت ظهرها لأمها وبدأت شفتاها تكون كلمات دون أن يرتفع صوتها وهي تدعم كلماتها بإشارات من يدها:
- مين هي؟ مين هي؟
- وأغمض عصام عينيه.. ((مجنونة.. قد تلتفت أمها.. قد يدخل محمود، ماذا أفعل؟ ماذا أفعل في هذه المجنونة؟)).

وتوقفت الآلة وهزت ليلى رأسها وكأنها تستيقظ من النوم.
وقالت أمها:

- ما تروحي يا بنتي تشوفي الشاي! هيّ طبخة ولّا إيه؟!

ولكن الخادمة دخلت بالشاي في هذه اللحظة ووضعت على مائدة صغيرة أمام عصام.
وعادت ليلى إلى مكانها وقد جمد وجهها. ونظر إليها عصام من طرف عينه ورأى في عينيها نظرة أكدت له أن الخطر لم ينته بعد، وأفرغ فنجاناً من الشاي وسار به إلى آلة الخياطة ووضع عليها وقال:

- ما تتفضلي يا خالتي.

- اشرب إنت يا عصام، أنا ما أشربش شاي دلوقت.

وجر عصام مقعداً من الخيزران وجلس يشرب الشاي في حمى خالته.

وبدأت الآلة تدور من جديد والمطارق تقرع في رأس ليلى والدم يتركز في رأسها. وبيد مرتجفة انتزعت ورقة من كراسة تجاوزها وبقلم رصاص كتبت فيها شيئاً وطوتها وقامت واقفة. ووقف الفنجان في يد عصام. وتقدمت منه ليلى وحاذته معطية وجهها لأمها، ومالت على آلة الخياطة وكأنها تبحث عن شيء وقالت أمها:

- بتفتشي على إيه؟

ومن تحت الآلة أسقطت الورقة المطوية في يد عصام اليسرى وعادت إلى مكانها بالمقص.
وبقيت الورقة كقطعة الثلج في يد عصام، وظل منحنيًا فترة لا يجرؤ على فضاها، ثم مد يديه تحت الآلة وقرأ:

مَن هي؟ ما هي علاقتك بها؟ أجب في الحال وإلا سألتك أمام الجميع.
وتطلع عصام إلى ليلى وقد جلست تقص أظافرها متظاهرة بعدم الاكتراث وفي عينيها نفس النظرة الخطرة.. قد تفعلها، إنه يعرفها، يعرفها مندفعة إلى أقصى حد، تفكر بقلبها لا بعقلها كما يقول أبوها.

وبدأ عصام يشعر بصوت الآلة في أذنيه وفي كيانه بأجمعه.. وهي تدور في رتابة ونظام، تدور وتدق، تدق.. ك.. كالساعة.. يجب أن يتصرف قبل أن يرجع محمود، يجب، والآلة يرتفع صوتها تدريجيًا وتدق والوقت يمضي، ووجهه يكفهر وعيناه تدوران بين الباب وليلى في سرعة وفي جنون.. كيف؟ كيف يتصرف؟ والآلة تدق، ماذا يقول لهذه المجنونة؟ وكيف؟ والآلة تدق وتدق.

ونهض عصام واقفًا وقد ارتسمت على وجهه علامات الغضب وسار إلى ليلى بخطوات بطيئة ثقيلة وهو يخرج من جيبه قلمًا ويفتحه ويقول:

- شفت القلم الجاف دا يا ليلي؟

ويقترب من المائدة التي تجلس بجوارها ويخرج من جيبه مذكرة، ويضعها على المائدة وينحني عليها بالقلم وهو يقول:

- شوفي قد إيه خطه لطيف.

ويكتب على صفحة بيضاء كلمة بالإنجليزية ثم يشطبها في ارتباك ويكتب:

إنت مجنونة وأنا أحبك.

وكان هذا ما انتوى كتابته، ولكنه يرى النظرة التي تشرق في عينيها ويود لو قضى بقية عمره يكتب وهي تنظر إليه. ويكتب من جديد:

أحبك، أحبك، أحبك.

وفي سرعة، وفي عنف، وفي قوة، يرسم تحت الكلمات خطوطاً ثقيلة، خطوطاً عميقة، خطوطاً تمزق الورقة، والدم يتركز في رأسه، والآلة تطرق في رأسه، ثم يشعر بغصة في حلقه، ويلوي وجهه بعيداً عنها، وتبدو في عينيها نظرة حزينة.. نظرة حيوان حبيس، حيوان جريح، ويستقيم دون أن ينظر إليها ويطوي المذكرة ويضعها في جيبه ويستدير، وحين يصل إلى مكانه ينهار على الكرسي منهكاً.

ويخرج عصام بيد مرتجفة سيجارة يشعلها، ويمتص الدخان ويخترنه في صدره، ويظل مطبقاً فمه برهة ثم يفتحه، ويتصاعد الدخان في حلقات، حلقات متشابكة متعارضة، وهو يطيل النظر إليها ثم ينفرج وجهه تدريجياً ويغمض عينيها ويستمر في التدخين.

وتجلس ليلي جامدة متوترة لا تعرف ماذا تفعل بهذه الفورة التي اجتاحت جسمها، فورة لا تُطاق، لا تُحتمل، فورة من سعادة، من حنان، من ألم. وتود لو استطاعت أن تقفز، أن ترقص، أن تصرخ، أن تغني، أن تقول للناس أن عصام يحبها، وأنها تحب عصام، والفورة جياشة تعصف بها.

وأما؟ أمها تجلس إلى جانبها تخطط ذيل القميص بالإبرة في هدوء، هدوء قاتل.

وقفزت ليلي واقفة واندفعت خارجة من الحجرة.

وقال محمود وهو يدخل بمنامته:

- إيه يا ست ماما، مفيش عشا النهارده ولّا إيه؟

وغرزت الأم الإبرة في القميص وقامت واقفة، وعندما وصلت إلى الباب، استدارت وكأن فكرة طرأت عليها وقالت لمحمود:

- مش تبارك لعصام، جميلة حتتجوز.

- تتجوز؟! تتجوز مين؟
- وخرجت الأم من الحجرة وقال عصام في تردد:
- العريس، العريس إياه.
- وواجه محمود عصام:
- إزاي يا عصام؟ إزاي إنت وافقت على حاجة زي دي؟
- يا أخي هي عايزة وأمها عايزة، حاسل إيه أنا؟
- وجلس محمود في مقعد مجاور صامتًا ثم قال:
- حرام عليكم، الجواز من غير حب مش جواز، دا...
- ولم يكمل محمود، واحمر وجه عصام، أدرك الكلمة التي أراد محمود استعمالها والتي استعمالها كثيرًا من قبل كلما ناقشا موضوع الزواج كموضوع عام دون تحديد أشخاص.
- وقال محمود بارتباك وهو ينوي إنهاء الموضوع:
- أنا طبعًا تكلمت كلام عام.
- وقال عصام في غضب:
- طيب تسمح تنزل الأرض شوية.
- أرض! أرض إيه؟
- يعني نتكلم في الواقع، ما نحلقش في نظريات وأفكار أكبر منّا.. في حالتي أنا تقترح إيه؟
- حالتك؟!!
- يعني تقترح إيه في موضوع جميلة، أعمل إيه أنا كإنسان مسؤول عنها؟ أطلقها في الشوارع عشان تحب؟!!
- ما حدش بيقول كده، ولكن البنت صغيرة وقدامها فرص كثيرة، ومفيش داعي للاستعجال.
- وقال عصام في احتداد:
- كل ده تسويف، هروب من المشكلة، الجواز السليم ضروري يكون أساسه الحب، والراجل عشان يتجوز ضروري يحب وكذلك البنت مش كده؟
- تمام.
- ووقف عصام وقد أفقده الغضب السيطرة على نفسه، وواجه محمود وقال بصوت ثقيل:
- طيب، نفرض مثلاً إنك اكتشفت إن ليلي بتحب، تعمل إيه؟

وبدت الدهشة على وجه محمود وقال:

- ليلي! ليلي أختي؟!!

- أيوه ليلي، ليلي أختك.

وشحب وجه محمود، وقال عصام:

- افرض!

وتنهذ محمود في ارتياح وهز كتفه وقال:

- وأفرض ليه؟ ليلي صغيرة ومش ملتفتة لحاجات زي دي.

وقال عصام في انتصار:

- تمام زي ما أنا قلت، كلام نظري، كلام جميل، كلام مفصول عن الواقع، وإللي على البر عوام.

وضحك في سخرية ثم استأنف كلامه:

- البننت ضروري تحب وتتجوز على حب.. كل بنت، أي بنت، بس مش أختي ولا أختك..
أخوات الناس التانيين! مش كده؟

وسكت محمود.

وقال عصام في قسوة وهو يضيق الحلقة حول محمود:

- أنا سألتك سؤال يا محمود، ما بتجاوبش ليه؟

وأشاح محمود بنظره بعيداً في اتجاه النافذة وقال وهو يهز كتفيه:

- سؤال إيه؟

وأطلت ليلي بوجهها من الباب ولم يرها أحد منهما.

وقال عصام بهدوء:

- لو اكتشفت إن ليلي بتحب، تعمل إيه؟

وضحكت ليلي كأنها وجدت لعبة مسلية وقالت:

- صحيح يا محمود، لو اكتشفت إني باحب، تعمل إيه؟

وجاء كلام ليلي مبالغاً لكليهما فاستدارا على عجل يواجهانها، محمود بوجه مذهول وعصام بوجه متوجس.

ورأى محمود البسمة في عينيها وفي شفتيها واطمأن، أدرك أنها لا تعني ما تقوله.

وعادت ليلى تقول وهي تبتسم:

- تعمل إيه؟ والنبي تعمل إيه يا محمود؟!

وتقدم محمود نحوها وشد شعرها بإعزاز وقال:

- أقتلك، أقتلك قتل.

* * *

على مائدة العشاء جلس محمود إلى جانب عصام وفي مواجهتهما ليلى وأمامهم أطباق من الملوخية باللحمة، والأرز والجبن والحلاوة والزيتون الأسود.

وقال محمود:

- يعني أنا رجل نظري، مش كده يا عصام؟

ومد عصام يده بالسكين وقطع قطعة من الجبن نقلها إلى طبقه، وقال وهو يبتسم:

- ودي عايزة كلام.

وبدأت ليلى تغرف في طبقها جانبًا من الأرز، ولكن محمود لم يبدأ الأكل، كان منفعلًا إلى حد لم يستطع معه البدء في الأكل. وقالت ليلى وهي ترقبه:

- ما تاكل يا محمود.

- حالًا.

ومد محمود يده إلى الملعقة وقرب طبقه إلى طبق الملوخية وغمس الملعقة في الطبق ثم سحب يده من جديد.. كان لا بد أن يعلن لهم الخبر ولكن كيف؟ يجب أن يعلنه بطريقة تتناسب أهميته، طريقة تهزهما هزًا.

وقال عصام:

- وإيه أخبارك يا محمود؟

وأشرق وجه محمود واتسعت حدقتا عينيه وفرك يديه في ارتياح، وترك ثواني تمر دون أن يجيب.. ثواني مشحونة بالانتظار، بالتوقع. وتوقفت يد ليلى بالملعقة فوق طبق الأرز.

وقال محمود:

- أخبار خطيرة.

وتطلع عصام في اهتمام، ومد محمود يدًا مرتجفة إلى جيبه وفي عناية أخرج ورقة بيضاء مطوية بسطها، وفي بضع مد يده بها، ووضعها تحت عيني عصام، ونظر عصام إلى الورقة، وسقطت الملعقة من يد ليلى على طرف الطبق محدثة رنينًا.

وهز عصام رأسه كأنه لا يصدق ما يراه، ثم أمسك بالورقة بكلتا يديه وقربها من عينيه، وبعد برهة قال لمحمود في دهشة:

- إيه ده؟!!

وابتسم محمود في ارتياح.

- تفكر إيه؟

- جدول، جدول، جدول تدريب.

- تمام.

- جدول مين؟

رفع محمود رأسه والتمعت عيناه وأشار بإصبعه إلى صدره وقال:

- جدولي، جدولي أنا.

وقال عصام:

- إنت تطوعت؟

وهز محمود رأسه:

- وابتديت التدريب كمان.

- فين؟

- في معسكر الجامعة في الهرم.

- وحتسافر إمتى؟

- بعد خمستاشر يوم.

وشق صدر ليلي خوف حاد كأنه سكين.. لقد تحدد كل شيء، تحدد موعد السفر، وسيذهب محمود وقد.. قد لا يعود، وسحبت ليلي ذراعها الممدودة على المائدة في حرص وفي بطة شديدين كأنها تخشى أن يراها أحد وهي تفعل ذلك.

وبدأ محمود يأكل وهو يقول:

- إيه رأيك؟

- مش تسرعت شوية؟ مش كان يصح تنتظر شوية لما نشوف إيه تطورات الموقف؟

وتوقف محمود عن الأكل وأمسك بطرف المائدة بكلتا قبضتيه، وقال دون تردد وكأنه قد أعد من قبل الرد على مثل هذا السؤال:

- إحنا إللي حنحدد تطورات الموقف يا عصام، أنا وأنت وكل مصري، مش حد تاني!

وعلت جسم ليلي رجفة كالرجفة التي تصيب الإنسان من مس الكهرباء، وتركزت الرجفة في رأسها حتى خيل إليها أن شعر رأسها قد وقف، ومدت يدها في تخطب عبر المائدة تريد أن تلمس يد محمود، وقالت في صوت مخنوق:

- مبروك يا محمود، مبروك.

وبدا عصام واجماً وهو يفرد جانباً من الجبن على قطعة من العيش، يسويه ويعيد تسويته من جديد.. إن محمود ينتظر منه أن يتكلم. لقد قال إنه سيذهب هو أيضاً إلى القناة، لكنه لم يكن يعرف أن محمود سيندفع هكذا ويبدأ التدريب ويحدد موعد السفر! يجب انتظار تطورات الموقف. إن العملية كما هي عملية انتحارية وقد تجلب على البلد الخراب.

وقال محمود:

- والله حتوحشنا ملوخية الست ماما.

وقالت ليلي وهي تبكي وتضحك في نفس الوقت:

- حنبقى نبعث لك ملوخية يا محمود، ملوخية في ((ترمس)).

ووقفت السكين في يد عصام.. إنهما يتكلمان وكأن ليس في الغرفة غيرهما، وكأنه ليس موجوداً، وكأنه لا يجلس على المائدة معهما، وليلى، ليلي عيناها على محمود لا ترفعهما إليه هو، وكأنها لا تراه، وكأنها أخرجته من دائرة بصرها، ومن حياتها.. ((إحنا إللي حنحدد تطورات الموقف.. أنا وأنت.. أنا.. أنا)).

وقالت ليلي:

- يا ريت أنا، يا ريت أقدر أروح معاك يا محمود.

وضحك محمود:

- لسه شوية، لما الرجالة يخلصوا، ابقوا اطلعوا إنتم يا ستات.

وغلى الدم في عروق عصام.. إنه ليس أقل رجولة ولا حماسة ولا وطنية من محمود، محمود خاف في مظاهرات ١٩٤٦ وهو لم يخف، والمسألة ليست مسألة وطنية أو رجولة، المسألة مسألة تعقل أو تهور.

ومالت ليلي بنصفها الأعلى على المائدة وقالت في همس وهي تتلفت حولها:

- بس المهم إن بابا وماما ما يعرفوش، لو عرفوا...

وقال محمود:

- أنا عارف، عارف إنهم حيتعبوني.

وهزت ليلى رأسها في يأس:

- مش حيفهموا، مش حيقدرُوا يفهموا.

ثم تسربت رنة من السخريّة إلى صوتها وهي تكمل:

- حيقولوا اتعقل، فكر، استنى لما تشوف ححصل إيه.

وتطلع عصام إلى باب الغرفة وود لو استطاع أن يهرب.. لا، لا مكان له هنا، وهما بعيدان عنه، وهو وحيد، وحيد وكأنه يقف في صحراء موحشة.

وقال محمود وهو يبتسم ابتسامة واسعة:

- همّ حيقولوا كده بس؟ بُكرة يقولوا الأمثال والحكم الغالية إياها.

وهزت ليلى رأسها وهي تكتم ضحكتها وقالت:

- الباب إللي بييجي لك منه الريح...

- سده واستريح.

وبدأت هي ومحمود يتناوبان الأمثال وهما يتصنعان الجد وكأنهما يلعبان لعبة مسلية:

- وفي التاني السلامة...

- وفي العجلة الندامة.

- ونومة وتمطيطة...

- أحسن من فرح طيطة.

- وإن كان لك عند الكلب حاجة...

- قل له يا سيدي.

- والطير إللي تقصقص ريشه...

- ما يعرفش يطير.

وانفجرا ضاحكين كطفلين يلهوان. ومدت ليلى منديلها تمسح دمعة سقطت على خدها، والنقت عيناها بعيني عصام ونظرت إليه في دهشة وكأنها نسيت أنه معها على المائدة، ثم أشاحت بوجهها عنه.. لا.. لن تنتظر إليه، لن تستجدي منه شيئاً، إن الحب لا يُستجدي، حب مصر لا يُستجدي، إن لم ينبع من القلب فلا فائدة، لا فائدة.

ومسحت ليلى عينيها وقالت تخاطب محمود:

- طيب وبابا؟

- بابا حيكشر ويشاور ويقول...

وأكملت ليلي كلام محمود وهي تضخم مخارج ألفاظها وتشير بيدها إشارات مسرحية مبالغاً فيها:

- أنا عارف، الحركة دي مش حتجيب إلا الخراب.. الخراب.. الخراب!

ووجد عصام نفسه يغرق في الضحك، وتتابع عليه الضحكات متتالية متلاحقة، وانحنى على المائدة.

وحين استقام اكتشف أن سكينه حلوة قد انسابت إلى نفسه، سكينه ويقين.

وركز عصام عينيه على محمود وقال في صوت هادئ:

- يا ترى ألحق أسافر في الدفعة بتاعتك؟

وفي هذه المرة تعمد عصام أن يتحاشى نظرات ليلي التي انصبت عليه.. لا.. إن قراره هو قراره الخاص، لم يكن لها يد فيه، ويجب أن تدرك ذلك تمامًا.

* * *

وعندما خرج عصام أسرع ليلي وراءه، وقال محمود:

- على فين؟

وردت ليلي في اضطراب:

- عصام نسي قلمه.

وجرت خلف عصام على السلم، وصاحت:

- عصام.

واستدار عصام يواجهها وهو على بُعد درجات منها، وقالت ليلي بصوت مرتفع وهي تشير بيدها إشارات مبهمّة:

- القلم، قلمك، نسيته.

وتحسس عصام قلمه ووجده في مكانه، وقالت ليلي هامسة:

- الورقة.

وقلب عصام يده متسائلاً، وهمست ليلي من جديد وقد فرغ صبرها:

- الورقة إيلي في المذكرة.

وفهم عصام، وهز رأسه وهو يبتسم متعجباً من اندفاعها.. ونزل خطوات السلم في ببطء وهو

ينظر في عينيها.. وأعطاهما المذكرة بأكملها.

وبدأ يطلع درجات السلم وهو يبتعد عنها درجة بعد درجة، وهي تنتظر حيث هي.

واستدار عصام فجأة وجرى إلى ليلي ومد يداً متخبطة تمسح على وجهها ثم تمتد إلى شعرها
فنتثيره.

وصعد درجات السلم قفزاً وهو يجري مقطوع الأنفاس إلى بيته.

وتدفق نبع صاف يجري، واعترضت المستنقعات مجرى النبع في الطريق، تريد أن تمتصه، أن تفنيه فيها، أن تحيله بركودها إلى ركود. والنبع فتّي فوار جيش عميق، والمستنقعات عتيقة ترسبت على مر السنين، تجثم على أرض مصر في اطمئنان وهدوء، وصفحتها تلتمع تحت أشعة الشمس.

ولكن تحت الصفحة اللامعة طين، طين يسد مجرى النبع، والنبع الجيش الفوار يشق مجراه في صعوبة بين الطين، ويخلف وراءه جانبًا من مياهه الصافية - التهمها الطين - ثم يندفع جيشًا فوارًا إلى آخر الطريق.

وفي آخر الطريق سد، سد من صخور.

والمستنقعات تجثم في اطمئنان وفي هدوء.. لا جدوى من الانطلاق.. لا جدوى من الاندفاع.. الركود قرين الحكمة.

وصفحة المستنقعات تلتمع تحت أشعة الشمس.

أعلن محمود وعصام قرارهما للعائلتين ليلة السفر، وكان على كل منهما أن يواجه عائلته قبل أن يواجه العدو. واختلفت الأساليب، وفقًا لاختلاف العائلتين، ولكن الاختلاف كان اختلافًا مظهرًا، وكانت الأساليب في جوهرها واحدة متكررة، دعوة للتعقل والتأني وعدم التهور والاندفاع، ثم محاولة للحد من هذا الاندفاع والانطلاق بالتهديد حينًا وبإثارة الناحية العاطفية حينًا آخر.

وفي بيت محمد أفندي سليمان تكتلت العائلتان لمواجهة الموقف، وعلى الأريكة جلست الأختان سنية هانم وسميرة هانم وقد شحب لونهما، وعلى يمينهما على المقعد المجاور جلس سليمان أفندي، وعلى يسارهما جلست جميلة، وعلى الأريكة المقابلة عصام ومحمود، وخلفهما في الفراغ بين الأريكة والنافذة وقفت ليلي.

كانت الأخبار قد هزت الأختين، وشل كيانهما خوف من فقد وحيدها، وإلى جانب الخوف كانت سميرة هانم تعاني ألمًا ممضًا ينخر في رأسها كالحمى، كيف؟ كيف استطاع عصام أن يخدعها؟ إنه لم يخف عنها أبدًا شيئًا، فكيف أخفى عنها هذه الأخبار طوال هذه الأيام؟! وشعرت سميرة هانم بشعور الزوجة المحبة المحبوبة التي تكتشف فجأة خيانة زوجها لها، وشلتها الصدمة، جردتها من مهارتها ومن أسلحتها المتعددة، فلجأت إلى أختها، وألقت أختها العبء على زوجها سليمان أفندي فهو أعقل وأحكم وأقدر على حل مثل هذا الموقف الذي لم يسبق له مثيل في عائلتها.

ووضع سليمان أفندي رجلًا على رجل، وقال لمحمود وعصام إنه لا يحاول إجبارهما على

العدول عن قرارهما، فالرأي الأول والأخير لهما، وهو رجل يود أن يناقش الموضوع مع رجال مثله في هدوء وتروٍّ وتعقل وحكمة، وهو ليس أقل وطنية منهما ولكنه أكبر سنًا وأكثر حكمة وفهمًا لحقائق الأمور، وهو لا يندفع وراء عاطفته مثلها بل يفكر بعقله، وعقله يقول إن الحكومة غير جادة في موقفها، فالجيش مثلًا لم يشترك في المعركة، وعناصر الخيانة متوفرة في السراي والأحزاب وفي الحكومة نفسها، والجواسيس من المصريين يملأون منطقة القنال، والمواد الغذائية تهرب إلى القوات البريطانية على مرأى من الحكومة وعلى مسمع منها.. وماذا تستطيع الشجاعة والبطولة أن تفعلًا تجاه هذه العوامل؟ وماذا يستطيع حفنة من الفدائيين أن يفعلوا وهم يواجهون الجيش الإنجليزي المزود بأحدث الأسلحة؟

لا.. إن المسألة ميؤوس منها ولن تجلب على البلاد إلا الخراب!

ولو كان هناك جدوى لكان هو أول المشجعين لهما على السفر بل لانضم إليهما شخصيًا، لو قُبل في صفوف الفدائيين، ولكن لا جدوى من الانطلاق، لا جدوى من الاندفاع.

وانخدع محمود وعصام بالصوت الهادئ، بالملاح الهادئة الساكنة.. بمنطق سليمان أفندي الحكيم. واندفعا يتناقشان مناقشة رجل لرجل، وأخذتا يتناوبان الحديث، يفندان حجج سليمان أفندي.. فالموجة الشعبية كفيلة بأن ترغم الحكومة على اتخاذ إجراءات حازمة وإلا تعرضت للسقوط، وكفيلة بأن تخرس الملك وتسحق عناصر الخيانة، والكفاح لن يبقى محصورًا على حفنة من الفدائيين، بل سيمتد تدريجيًا حتى يشمل الجيش والشعب بأكمله، وقد هدد ضباط الجيش فعلاً بالاستقالة والانضمام إلى الفدائيين إن لم يشترك الجيش بأكمله في المعركة.

وبدأ صوت سليمان أفندي يتغير، واختفت النغمة المعسولة من كلامه، وتجمعت معالم الغضب في وجهه.

واكتشف محمود وعصام أنهما قد خُدعا، وأن المناقشة لم تكن بريئة كما ادعى، وإنما هي محاولة مستترة لمنعهما من السفر.

واضطر سليمان أفندي إلى السفر، وخرج بالمناقشة إلى نطاقها الشخصي البحت وصوته يحدد تدريجيًا، وانفرد محمود هذه المرة بالإجابة.

- ليه إنتم؟!

- وليه مش إحنا؟!

- ليه ابني أنا، مش أولاد الناس التانيين؟

- إن كان كل واحد حيمنع أولاده، ما حدش حيسافر!

- والدراسة؟

- تستنى.

- طبعًا إنت يهملك إيه؟ أبوك بيشقى ويعرق ويدوب عشان حضرتك تبقى بني آدم!

- فيه حاجات كثير أهم من التعليم.
- إللي هيّ إيه يا حضرة؟
- إيه فائدة إن الواحد يبقى متعلم وعبد؟!
- أبوك أهو عايش كده، وجدك من قبله، يبقوا عبيد؟
واحتد محمود وفقد سيطرته على نفسه:
- طبعاً عبيد! كل واحد ما يكافحش عشان يتحرر من الاستعمار يبقى عبد!
واحتقن وجه الأب، وقام واقفاً، ونعت محمود بأنه ابن عاق ووقح وقليل التربية، ثم قال في سخرية:

- حضرتك فاهم نفسك بطل! مش كده؟
- أنا مش بطل، أنا راجل، راجل بيدافع عن حريته!
- إنت مش راجل، إنت عيل، عيل ضحكوا عليه!
- ما حدش ضحك عليّ!
- إنت فدية، خروف بتدبحه الحكومة عشان تقنع الناس إنها وطنية!
- أنا ما يهمني إيه غرض الحكومة، إللي يهمني هو غرضي أنا وغرض الشعب!
- الشعب! الشعب حتخدمه لما تقع هناك من أول يوم؟ لما تقع ميت؟!
وكتّم الأب دموعه بصعوبة، وارتفع عويل كل من سنية هانم وسميرة هانم، وأشاح محمود بوجهه بعيداً ليخفي تأثره، وقال وهو ينظر إلى الأفق البعيد:
- أنا عارف، عارف ومستعد للاحتمال ده!
واستدارت ليلي وواجهت النافذة.
وصرخ الأب وقد بلغ به الغضب منتهاه:
- طبعاً ما يهمكش! يهمك إيه؟ حضرتك تموت بطل، وتتحرق أمك، وينحرق أبوك، وتتحرق أختك.

وشحب وجه محمود، وغشت عينيه طبقة من الدموع، وقال في توسل:
- أرجوك تفهم! أرجوك يا بابا حاول إنك تفهم! أنا ضروري أسافر! ما أقدرش ما أسافرش!
وهز الأب رأسه في يأس، ومشى في اتجاه الباب، وعندما وصله استدار وقال وقد جمد وجهه:
- لو سافرت، لا إنت ابني ولا أعرفك، وعتبة البيت ما تعتبهاش! وتوقف الأب عن الكلام ثم

ارتجفت شفتاه وهو يقول:

- إن رجعت!

وخرج يهرول إلى حجرته.

* * *

واتجهت أم محمود إلى حيث يجلس، ووقفت تستند بيديها على مائدة مستديرة تفصل بينها وبينه وتقول:

- اعقل يا ابني، عشان خاطري! عشان خاطر أمك الغلبانة!

وجمد وجه محمود وهو يتجه بنظره بعيدًا عنها.

والتفتت إلى عصام تستجد به:

- إنت طول عمرك عاقل يا عصام، عقّله يا ابني.

ومسح عصام وجهه بيده.

وركزت أمه عينيها عليه، كان وجهها شاحبًا شحوب الموت، وعقلها يدور.. لا يمكن، لا يمكن أن يسافر عصام.. كل إنسان إلا عصام، ابنها، حبيبها، رجلها.. لا يمكن أن تعيش من غيره، ولا يوم ولا ساعة.. ماذا تعمل؟ ماذا تعمل لتوقفه؟!

وعادت أم محمود تلح على عصام:

- ما بتردش ليه يا عصام؟ اتكلم يا ابني!

وقال عصام دون أن ينظر إليها:

- حاتكلم أقول إيه يا خالتي؟!

وارتخت ذراعاها إلى جانبها وقد جمدت فيهما الحياة، وقالت في يأس وكأنها لا تأمل في شيء، وكأنها تقول الجملة لمجرد أنها تكون في عقلها:

- عقّل المجنون ده!

وضحكت سميرة هانم في سخرية مرة:

- هوّ عصام فاضل فيه عقل، ما طيره محمود! البركة في محمود! واحتقن الدم في وجه أم محمود والتفتت إلى أختها:

- أنا عارفة، إنت دايماً تجيبي الذنب على محمود!

- عصام طول عمره عاقل، وابنك إللي طول عمره شعنون!

والتفت محمود إلى ليلي وهي تقف وراءه، وابتسم.
وقام عصام واقفاً، وتقدم بخطوات بطيئة إلى حيث تجلس أمه، ووقف أمامها وقد انفرجت ساقيه
وارتجف صوته بالغضب وهو يقول:

- أنا مش عيل عشان محمود يطير عقلي! فاهمة؟
وتحكم عصام في صوته وهو يستأنف كلامه:
- ويجب تفهمي كمان، إني مسافر بكرة، مهما عملت!
ورفعت إليه أمه وجهها، واحتد من جديد، وكاد يصرخ وهو يقول:
- مسافر.. مسافر.. فاهمة؟

وقفزت أمه واقفة، وألقت بنفسها عليه واحتضنته وهي تتشبث به في جنون، والتوى لسانها،
وكأنها فقدت القدرة على النطق السليم وهي تقول:
- ما أقدرش! عصام ما أقدرش ما...

وأشاح عصام بوجهه بعيداً عنها، وفي رقة حاول أن يتملص من ذراعيها، ولكنهما تشبثتا به
وكأنهما طوقان من حديد. وفي عنف خلص نفسه من ذراعيها، وتراجع بظهره إلى الوراء بعيداً
عنها.

وأحنّت أم عصام رأسها، وأخفت وجهها بيديها.
وجرت إليها جميلة واحتضنتها من الخلف وهي تبكي وتقول:
- حرام عليك يا عصام! حرام عليك!

ومرت لحظة سكون لا يقطعها سوى عويل جميلة.
ورفعت أم عصام رأسها ووجهها ما زال مغطى بيديها، وحين استكمل الرأس ارتفاعه، أزاحت
يديها عن وجهها وقد تغير تغيراً كلياً. كانت ملامح الوجه الناعم قد اكتسبت صرامة، والعينان
القلقتان قد استقرتا في محجريهما، والفم المتدلي من جانبيه قد استقام.
ونظرت لحظة إلى عصام وكأنها تقيسه ثم قالت:

- خلاص يا عصام.. دا قرارك النهائي؟
وهز عصام رأسه دون أن يتكلم.
وخلصت أم عصام نفسها من بين ذراعي جميلة في عنف، واندفعت تجري إلى النافذة...
وشل الرعب الموجودين في الحجرة، وصرخت جميلة صرخة مدوية، ولحقت ليلي بخالتها
وهي تتسلق قاعدة النافذة وتعلقت بكتفيها.

وصاحت أم عصام:

- سيبوني! سيبوني أموت نفسي! مش عايزة أعيش!

ونحى عصام ليلى، وجذب أمه من كتفيها بعنف إلى أسفل، وفي عنف أدارها إليه، ووقف أمامها وجهاً لوجه ويدها ما زالتا على كتفيها، والتقت عيناه بعينيها في نظرة طويلة.

وأغمضت أم عصام عينيها لحظة، والدم يعود إلى التدفق في عروقه، ولان وجهها، وعادت إلى وسط الحجرة، خفيفة الخطوة، رافعة الرأس، وعلى وجهها راحة وسكينة.

وأمسكت جميلة بذراع أمها وقالت لعصام:

- يلّا بينا على بيتنا.

وسار عصام خلف أمه وجميلة.

وفي الساعة الحادية عشرة مساء وبينما كان محمود يحزم حاجياته، أرسل إليه عصام ورقة مطوية مع الخادمة.

وقرأ محمود الورقة وألقاها إلى ليلى وهي تجلس على طرف السرير:

- تفضلي يا ستي.

وفي الورقة قرأت ليلى:

أمي مغمى عليها منذ ثلاث ساعات، أرسلت في طلب الطبيب ولم يحضر بعد. محمود ماذا أستطيع أن أفعل؟ إنني لا أستطيع أن أتخلى عن أمي وهي في هذه الحال، وبعد ما فعلته من أجلي ومن أجل جميلة، لا.. لا يمكن يا محمود! أنت تفهم أليس كذلك؟ وعندما تتحسن سأحاول اللحاق بك، مع السلامة وقلبي معك ومعكم جميعاً.

عصام حمدي

وقال محمود وهو يرمي بفانلة صوف في الحقيبة:

- وحنعمل إيه بقلبه؟! حينفعنا في إيه؟!

ولم تكن ليلى تنصت إليه، كانت تنظر بعيداً وهي تفكر، وفجأة ركزت عينيها على محمود وهو يجلس إلى جانب الحقيبة وقالت:

- تفكر يا محمود، خالتي عيانة صحيح؟

وتطلع إليها محمود في بلاهة لحظة ثم قفز واقفاً وقد اتسعت حدقتا عينيها:

- لأ مش معقول! مش معقول!
وكنمت ليلي ابتسامتها وهزت رأسها وقد ضاقت عيناها في خبث.. واقترب منها محمود:
- عايزة تقولي إنها بتمثل؟!
وهزت ليلي كتفيها وقالت وهي تضحك في مرارة:
- ما تمثّلش ليه؟ هوّ دور الانتحار كان وحش؟!
وتوقف محمود مصعوقاً وضحكت ليلي ضحكة خالصة:
- عارف يا محمود.. ساعة ما رمت نفسها على الشباك وجيت أشدها عملت إيه؟
- إيه؟ إيه يا ليلي؟
ورفعت ليلي رأسها وغامت عيناها وهي تتمثل ما حدث، وقالت في صوت خافت وكأنها تحدث نفسها:
- غمزت لي بعينها وقرصتني في إيدي.
وبدت على وجه محمود علامات عدم الفهم، وضحكت ليلي.
- يعني كأنها بتقول لي: ((ما تخافيش دا كده وكده)).
وخبط محمود كفّاً على كف، وارتسمت في ذهن ليلي صورة أمها وهي تجلس في الصلاة وتقول: ((أختي سميرة شاطرة، عرفت تطوي ولادها تحت جناحها)).

* * *

وفي الفجر جلست الأم في الصلاة على المقعد المواجه للباب صامتة شاحبة متصلبة كالجثة الهامدة، وأمامها جلست ليلي.
وانحنى محمود على الحقيبة يحاول إقفالها.
وطُرق الباب طرقة خفيفة، وقام محمود وفتح الباب، ودخل عصام بردائه المنزلي، وبدأت على وجه محمود علامات الارتياح. إن وجود عصام، وجود أي غريب، يجعل عملية الوداع أسهل وأبسط.

وزاغت نظرات الأم وقالت في صوت ميت:

- هوّ عصام مش مسافر؟

وقال عصام وكأنه يعتذر:

- أعمل إيه يا خالتي؟ ماما عيانة خالص!

وانخرطت الأم تبكي وهي تكتم نشيجها حتى لا يصل صدها إلى الأب الذي اعتكف في غرفته.
وقامت ليلى واقفة واتجهت إلى أمها وربتت على كتفها وقالت:

- بس يا ماما، هوّ عصام كان يحرسه؟

وقالت الأم بصوت واهن:

- وإشمعنى هوّ، إشمعنى هوّ إللي يروح لوحده!

وتتهد محمود في ضيق، وقالت ليلى دون أن تنظر إلى عصام:

- عصام كمان حيسافر لما خالتي تتحسن.

وأشاحت الأم بيدها مبدية عدم تصديقها لكلام ليلى، وغرقت في صمتها من جديد وهي تهز رأسها ما بين الحين والحين.

ونظر إليها عصام في دهشة، وخطر بباله أنها لم تسأل عن أمه - أختها - بالرغم من أنه قال إنها مريضة للغاية.

ونجح محمود في قفل الحقيبة بمساعدة عصام، وقام واقفاً وقد أمسك بالحقيبة.

وخيل لليلى أن الشحوب يلائم وجه محمود، وأنه يبدو أكثر وسامة في بذلته العسكرية.

وبدا الارتباك على وجه محمود، وأسقط حقيبته على الأرض، وتقدم إلى أمه بخطوات مضطربة وقبّلها في جبينها، واستدار ليذهب ثم عاد إليها وأمسك بيديها وقربهما من فمه وقبلهما بلهفة. وسالت دموع الأم. واستقام محمود واتجه إلى ليلى ولف يده حول كتفها وقبّلها، وهروا بحقيبته إلى الباب.

وجرت ليلى خلفه على السلم، واستدار يواجهها وهز رأسه وقال:

- لا يا ليلى، أنا مش عايزك إنت بالذات تعيطي!

وقالت ليلى وهي تمسح الدموع بكفها:

- أنا ما باعيطش يا محمود، ما باعيطش!

- إنت فاهمة يا ليلى؟ مش كده؟ فاهمة أنا رايح ليه؟

وهزت ليلى رأسها بالموافقة وقد أشرق وجهها والتمعت عيناها، وقال محمود:

- وإدراكي إن فيه حد فاهم، حد عزيز عليّ، حيخليني مستريح. وابتسمت ليلى وقالت:

- أنا فاهمة يا محمود، وكلهم بكرة يفهموا، مع السلامة وحاسب على نفسك.

ووضع محمود الحقيبة واحتضن ليلى وقبّلها ونزل السلم من جديد. وصاحت ليلى:

- إحنا منتظرينك، منتظرينك يا محمود.

وسمعت صوت عصام من خلفها يقول:

- مع السلامة، مع السلامة يا محمود.

ورفع محمود يده ملوحًا لكليهما دون أن ينظر إلى الخلف.

وأفسح عصام الطريق لليلي لتمر، ومضى خلفها في اتجاه الشقة، ودخلت ليلي ثم استدارت وواجهت عصام وهوما يزال في الخارج، ووضعت يدها على الباب تهم بإغلاقه وكأنها تمنعه من الدخول.

وقال عصام:

- حادخل أشوف خالتي.

وهزت ليلي رأسها علامة عدم الموافقة دون أن تتكلم، ورأت وجه عصام ينقلب، وقالت:

- مش دلوقت يا عصام، مش دلوقت، اطلع فوق، اطلع لخالتي.

وأفقلت الباب وعصام ما زال متمسراً في مكانه.

ووقفت ليلي برهة تستند بوجهها إلى الباب وهي تستمع إلى خطوات عصام تتباعد متباطئة على السلم.. لقد خذلها، خذلها؟ كيف؟ لقد خذلها والسلام.

وعويل أمها يرتفع تدريجيًا حتى يصبح كمعاول تدق في رأسها وتهد كيائها وتحول بينها وبين التفكير.

وبدأت ليلى ترقب صندوق البريد وهي ذاهبة إلى المدرسة وهي عائدة من المدرسة وفي أوقات توزيع البريد وفي غير أوقات توزيع البريد، وكأن حياتها تركزت في ذلك الصندوق الخشبي الصغير. وتناثرت خطابات محمود ترسل الرجفة إلى جسمها، رجفة فخر وحنان.

وكان يكتب لها مرتين في الأسبوع، وأحياناً ثلاث مرّات. وكانت تشعر وهي تقرأ خطابه أنه يجلس تجاهها في حجرته، يحكي لها وقد اتسعت عيناه، وكأنهما قد تفتحتا على عالم جديد.. وكل شيء في هذا العالم جميل ومثير: الناس والأحداث والتجارب الجديدة والأفكار الجديدة والأصدقاء الجدد.

ولكن صديقاً واحداً من بين هؤلاء الأصدقاء يسحر محمود فيكتب عنه في كل خطاب، وكأن حسين عامر هو الزمار الذي يقود محمود بمزمارة إلى العالم المسحور. ومحمود يمضي في ذلك العالم يفعل بكل تجربة جديدة وبكل فكرة جديدة.

كتب إليها يقول:

فجرت اليوم لأول مرّة، أول قنبلة حارقة في معسكر بريطاني، ووقفت بعيداً أرقب نتيجة عملي، وعندما اندلعت النار في المعسكر خيل إليّ أن قبساً من النور قد ملأ قلبي وكياني.

وفي خطاب آخر:

لقد كبرت يا ليلى.. كبرت وأشعر كأنني لم أبلغ إلا بعد أن أتيت إلى القناة.

وكتب يقول:

أنا أحيا يا ليلى.. أحيا.. أتفهمين يا عزيزتي؟ أحيا منفعلًا كل ساعة وكل دقيقة من عمري. كنت أحسب وأنا في القاهرة أنني أحيا، ولكنني أدركت بعد تجربتي الأخيرة أنني كنت مخطئًا. إن الركود موت لا حياة. أنت تسأليني: ألا أخاف؟ طبعًا خفت أول الأمر، والخوف هو الذي يجعل للكفاح لذة، فالإنسان يتقدم وهو خائف ولكن قوة أكبر منه، أكبر من خوفه، تدفع به إلى الأمام وتجعله يعمل ما ينبغي أن يعمل به بكل ثبات وبكل دقة. وعندما ينتهي كل شيء ينتشي الإنسان، إذ يدرك أنه تغلب على نفسه، على ضعفه وعلى فرديته، ومرّة بعد مرّة يتحرر الإنسان من الأنانية التي تسيطر على كل شيء في حياته،

ويشعر أنه فرد في مجموع، وأن حياته مهمة طالما هو في خدمة هذا المجموع، وأنه لو فقد حياته لن تكف الأرض عن الدوران، بل سيواصل الآخرون العمل الذي بدأه، العمل الذي فقد حياته من أجله، وإذ ذاك يتحرر الإنسان من الخوف، يتحرر من ((الأناء)).

* * *

- أنا حاتجن يا ليلي، ومش لاقى فرصة أتفاهم معاك! فيه إيه؟ مش تفهميني!
- قالها عصام ليلي وهما يقفان في محل ((شيكوريل)) بين الباب والمصعد ينتظران عودة جميلة وأمها من ((الكيس)). وكان اليوم أول أيام ((الأوكازيون)) والباب الزجاجي لا يكف عن الحركة.
- ولم تجب ليلي، وقال عصام في صوت هامس:
- إيه يا ليلي إنت مش بتحبييني؟
- ومرقت سيدة عجوز مصبوغة الوجه إلى المحل، وركزت ليلي نظرها على الباب الزجاجي وهو يتأرجح خلفها وأشعة نور النيون تنكسر عليه، وقالت:
- أظن إنت عارف يا عصام!
- أنا مش عارف حاجة، وبصراحة حاتجن! إنت زعلانة عشان ما سافرتش مع محمود؟
- ونظرت ليلي إلى عصام وهو محمل بالمشتريات وقالت:
- وحازعل منك ليه؟ هو السفر بالقوة؟!
- آمال متغيرة من ناحيتي ليه؟
- وانفتح باب المصعد على مصراعيه وخرج منه حشد من الناس تقدم في اتجاه باب الخروج.
- وقالت ليلي وهي تنتظر إلى الخارجين من المصعد:
- أنا مش متغيرة ولا حاجة.
- لأ، مش عوايدك.
- وأدارت ليلي رأسها إلى عصام وقالت في قسوة:
- عايزني أعمل إيه؟ أغني؟ أرقص وأخويا ببحارب؟
- وهمس عصام في يأس:
- إنت ما بتحبنيش، ما بتحبنيش خالص!
- وفتحت ليلي فمها لتتكلم، ولكن الناس فصلوا بينها وبين عصام، واضطر عصام إلى التراجع

أمام الضغط وهو يحاول أن يحفظ توازنه بالمشتريات التي تثقله.
وقال رجل يلبس بدلة رمادية لزوجته التي تضع قبعة بريشة على رأسها:
- ضحكوا علينا.. دا مش القماش الأصلي، دا تقليد.
وأزاحته من الطريق امرأتان تحتضنان مشترياتهما، وعلى وجهيهما علامات الانتصار.
وقال الرجل ذو البدلة الرمادية من جديد:
- دا تقليد.
ولكن صوته غرق في زحمة الأصوات الأخرى.
- أما شروة! أهى دي الفرص ولا بلاش!
قالت سيدة في ثياب سوداء. وردت عليها أخرى:
- ولّا الست أم بمبي إल्ली كانت عايزة تخطفها منك.
وضحكت السيدة ذات الملابس السوداء:
- والله كنت قتلتها قتل.
وعاد الرجل ذو البدلة الرمادية يقول:
- دا مش الأصلي، دا تقليد.
وقالت زوجته وهي تسوي ريشة قبعتها:
- هس! بلاش دوشة، أنا شايفة الماركة بعيني، قماش إنجليزي أصلي.
وتأففت فتاة طويلة الرقبة بحاجبين مقوسين وقالت لزميلتها:
- أف! أنا كنت حاتخنق! دا مش ((أوكازيون)) ده يا حبيبتي، دا حرب، والله إحنا فدائيين صحيح.
وضحكت زميلتها.
وارتجفت ليلي حين باغتتها خالتها من الخلف، ووضعت يدها على كتفها وقالت:
- بشرفك يا ليلي، مش كسبنا الشروة دي؟

ولم يرخ عصام نظره عن ليلي، وأمه وجميلة تكملان بقية مشترياتهما، ركز عينييه عليها وكأنهما مشدودتان إليها.

ورأت ليلي النظرة العاتبة في عينيه، نظرة حيوان جريح يتألم.. ماذا جرى لعصام؟ هل جُن؟ أين ذهب تفعله واحتراسه؟ ألا يدرك أن أمه معنا وأن جميلة معنا؟

وفي الطريق إلى البيت أشارت سميرة هانم إلى تاكسي وركبت في المقعد الخلفي مع جميلة وبينهما أكوام من المشتريات، وفي المقعد الأمامي جلست ليلي وعصام.

وقرب عصام جسده من ليلي حتى أصبح فخذة لصق فخذها، ولفحت أنفاسه خدّها ثقيلة متلاحقة، ومد يده يمسك بيدها في رقة، وحاولت هي أن تخلص يدها من يده وعنفت قبضته، وجذبت يدها وازدادت القبضة عنفاً. وكتمت ليلي صرخة ألم، ولمعت الدموع في عيني عصام وارتخت قبضته، وأخرج من جيبه قلماً وورقة وكتب في الورقة كلمات ثم أسقطها في جيب معطف ليلي.

ووقف عصام يدفع حساب التاكسي، وحيث ليلي خالتها واندفعت مرتبكة إلى شقتها، وفي الصالة قرأت ما كتبه عصام:

أرجوك.. أرجوك يا حبيبتي لا تهجريني.. لا تهجريني.

وارتجفت يد ليلي وهي تعيد الورقة إلى جيبها، وكانت يدها ما تزال ترتجف وهي تضرب جرس شقة عصام.

فتحت جميلة الباب وقالت:

- أيوه، أهى ليلي جت، تعالى يا ستي لما نشوف المشكلة دي. واتجهت ليلي مع جميلة إلى حجرة أمها.

وعلى السرير جلست سميرة هانم وأمامها قطع القماش مفردة منثورة بألوانها الصارخة المتنافرة، لا يكاد نظر الإنسان يستقر على لون منها حتى ينتقل إلى الآخر ثم يكمل الدورة ليعاود النظر من جديد. وغشي نظر ليلي وقالت خالتها:

- كويس إللي جيتي يا حبيبتي.

وتقدمت ليلي من خالتها، وأشارت سميرة هانم إلى ((موديلات)) لأثواب مرصوفة بمحاذاة حافة السرير، وقالت:

- آدي القماش وآدي ((الموديلات)).. نقي بقّه.

وقالت جميلة:

- أنا باقول الدانتل الأحمر للفرستان ((الدرابيه)) ده.. إيه رأيك يا ليلي؟

ولم تترك سميرة هانم فرصة ليلي لتتكلم:

- لأ يا جميلة.. الدانتل الأحمر ضروري يتفصل ((سامبل)) خالص. ((درابيه)) في دانتل!
((الدرابيه)) عايز ((شيفون)). آه. إيه رأيك نعمل ((الموديل الدرابيه)) ده في ((الشيفون))؟
- أنهى ((شيفون))؟

- الشيفون إللي لون قلب الفسدة.

وجرت إليها جميلة تُقبلها.

- إنت هائلة يا ماما! يبقى جنان، جنان خالص!

وتطلعت ليلي إلى الباب في قلق، وانقبض وجه جميلة وقالت وهي تقف في مواجهة أمها وتشير بإصبعها:

- بس على شرط يا ماما، مش عشان الخطوبة.

- دا يبقى جميل أوي يا روعي.. ((شيفون)) طبيعي جنان! وهزت جميلة كتفيها وطفرت الدموع إلى عينيها.

- لأ يا ستي وأنا مالي، أنا قلت لك أنا عايزة دانتل ((جيبير)) عشان الخطوبة.

- ((الجيبير)) أنا حاجيبهولك يا حبيبتي.. بس عشان كتب الكتاب مش الخطوبة.

وسالت دموع جميلة على خديها وقالت بصوت يخنقه النشيج:

- طيب خلاص.. خلاص يا ماما.. مش عايزة أتجوز، مش عايزة أتجوز خالص.

وسارت في اتجاه الباب.

وقامت أمها خلفها تجري، واحتضنتها وقالت:

- يا حبيبتي! وتزعلي نفسك كده؟! طيب خلاص أنا حاجيب كل إللي إنت عايزاه، عايزة الدانتل لونه إيه؟

وقالت جميلة وهي ما زالت تبكي:

- ((سومون)).

- والجزمة؟

ومسحت جميلة دموعها بكفها:

- ((ستان)) لون الفستان.

- بس كده، بكرة الصبح حانزل أجيب الدانتل وأوصي على الجزمة.. بس تعالى دلوقت اديني رأيك في الموضوع ده خلىنا نخلص.. الوقت بيجري وما عادش على الخطوبة إلا أسبوع.

وسحبت سميرة هانم جميلة من يدها وقالت وهي تنتظر بعيدًا وكأنها تحلم:

- وبعد الخطوبة تحتاجي لكل الفساتين دي، يوم في ((الأوبرج)) ويوم في ((ميناء هاوس)) ويوم في ((الحلمية بالاس)). وضحكت جميلة:
- بس يا ماما مش عايزة الرمادي ده! ده ميت خالص!
- وقالت ليلي وهي تجلس على الفوتيل وعيناها مشدودتان إلى الباب:
- بالعكس يا جميلة دا حلو أوي، دا حتى لون هادي وجميل.
- وجلست خالتها على حافة السرير وقالت:
- دا مش هادي بس يا ليلي، دا اللون الرمادي ده يبرز جسم الست، الراجل مش حبيص للون.. اللون مش حيلفت نظره،إللي حيلفت نظره الجسم، العود.
- وكتمت ليلي ابتسامتها، وضحكت جميلة.
- إنت واعية يا ماما، واعية تمام!
- وضحكت سميرة هانم وضربت ابنتها على فخذها، وهي تجلس قبالتها وقالت:
- أمال فين عصام؟ عصام ذوقه حلو أوي في الفساتين.. روي ناديه يا جميلة، ولا أقول لك، طبقي معايا القماش أحسن يتمرط ويلي تناديه.
- وقامت ليلي واقفة، وقالت خالتها:
- تلاقيه في المكتب يا ليلي.



فتحت ليلي باب الغرفة وقفلته خلفها ولفتها موجة من حنان وألم. كان عصام يجلس وقد دفن رأسه بين ذراعيه على المكتب، ووقفت ليلي ترقبه لحظة ثم تقدمت منه على أطراف أصابعها، وعندما حاذته مست كتفه بيدها ولكنه لم يتحرك وكأنه مستغرق في النوم، ومالت عليه بنصفها الأعلى وقالت في همس:

- عصام.

وباغت الصوت عصام وأزاح ذراعيه ورفع رأسه إليها.

واستقامت ليلي في خوف، ولكنه أمسك ذراعيها بقبضتيه قبل أن تتراجع إلى الخلف.

كان وجهه متغيراً، وكأن ملامحه قد فقدت حدودها: الأنف مفرطح، والوجنتان قد تهدلتا، والذقن قد تدلى، والفم ارتخى من الجانبين، وفي العينين نظرة زائغة وكأنه غائب عن الوعي.

ورفع عصام جسده إليها في بطء وقبضته تثبتانها في الأرض، وملامح وجهه تتحدد وتكتسب قوة وعنفاً، والنظرة الزائغة تستقر وتتركز تدريجياً، والوجه ينقلب ويربد، وفي العينين نظرة تهديد

وإصرار وكأنه سيضربها.. وقبضته تعنفان على ذراعيها، وجسمه يطاول جسمها، ووجهه يلامس وجهها، وشفته تسقطان على شفتيها.

وألقت ليلي برأسها إلى الخلف وصاحت بصوت مخنوق:

- عصام.

ولم يبد عليه أنه سمعها. لم يلن الوجه، ولم تتغير النظرة.

وتراجعت ليلي إلى الخلف خطوة وراء خطوة، وتابعتها عصام خطوة بعد خطوة. وتطلعت إلى الخلف، وحاولت أن تغير اتجاه تراجعها، ولكن عصام شد على ذراعيها، واتجه بها إلى الفراغ بين المقعد والحائط. والتصقت ليلي بالحائط.

- سييني! سييني يا عصام!

ولم يبد عليه أنه سمعها، أنزل يديه ببطء وهما تحيطان بذراعيها، وأمسك بيديها، وقرب جسده من جسدها. ورفعت ليلي رأسها وألقت به إلى الخلف، إلى الحائط، وسرت البرودة في أطرافها، وقالت وفمها يرتجف:

- حاصر.. حاصر يا عصام!

وسحق عصام جسدها بجسده، ونزل فمه مفتوحًا على عينيها، ومسح خدها في بطنه، ثم انسحب فجأة إلى فمها.

وتتلجف ليلي وجمد، ثم بللت دموع عصام خديها.

وانهار على المقعد المجاور، ووضع مرفقيه على فخذه، وأسند وجهه إلى يديه، وانفجر باكياً.

وارتفع نسيجه تدريجياً، ووقفت ليلي متسمة في مكانها، وفي جسمها خواء وفي عقلها خواء، وكأنها قد استيقظت من حلم لتوها.

وسمعت عصام يبكي، واستولى عليها مزيج من الرهبة والخجل وكأنها ارتكبت شيئاً مشيناً، وكأنها دخلت مكاناً مقدساً لا حق لها في دخوله، ورأت شيئاً مقدساً لا حق لها في رؤيته، وودت لو استطاعت أن تهرب بعيداً.. وعويل عصام يملأ أذنيها.

ومدت ليلي يداً مرتجفة ترددت وهي معلقة في الهواء ثم استقرت في رفق على كتف عصام.

وقال عصام في صوت يقطعه النسيج:

-إنت بتحتقريني.. مش كده؟

وقالت ليلي في همس:

- بس يا عصام، بس أرجوك !

وأزاح عصام يدها عن كتفه، ونظر إليها في كراهية، وقال وقد استقام صوته:

-ابعدني.. ابعدي عني، مش عايز أشوفك، مش عايز أشوفك خالص!
وضمت ليلي شفتيها وخرجت من الغرفة تجري.

* * *

كانت ليلي تجلس في حجرتها تنسج ((جاكيت)) من ((التريكو))، وكان أبوها في الخارج وأمها في زيارة أختها عندما دخلت عليها الخادمة وقالت:

- سي عصام برّه يا ستي.

وجمد وجه ليلي، وقامت واقفة، وسارت في اتجاه النافذة مولية ظهرها للخادمة وهي تقول:

- قولي لعصام إن ماما برّه.

- قلت له يا ستي، بيقول عايز يشوف حضرتك.

- قولي له نايمة يا فاطمة.

- إوعي إنت يا فاطمة.

قال عصام، وأزاح الخادمة الصغيرة برفق من مدخل الباب، ودخل الغرفة، ولم تتحرك ليلي. استقام وأسها وبقيت مكانها معطية ظهرها لعصام، وساد الصمت لحظة، ثم قالت ليلي في صوت جامد دون أن تستدير:

- عايز إيه يا عصام؟

- أنا...

واقترب منها:

- أنا آسف يا ليلي على كل إللي حصل!

واستدارت ليلي ببطء وواجهته.. كان بياض وجهه قد اختلط بالاصفرار، وتحت عينيه هالة سوداء عميقة، وكأنه مريض من زمن.

وقالت ليلي في صوت ميت بلا تعبير:

- خلاص يا عصام، اعتبر المسألة منتهية.

وارتجفت فتحة أنف عصام وقال:

- مسألة إيه؟

ولم تجب ليلي. جلست على طرف السرير ومدت يداً مرتجفة إلى قطعة ((التريكو)) وبدأت تعمل، تدخل الإبرة في غرزة وتلف حولها الخيط ثم تجذبه بإحكام وتمرر الغرزة الجديدة من

الغرزة القديمة ثم تقلت الأخيرة من الإبرة وتبدأ من جديد.

واقترب منها عصام وقال بصوت أرق: -

قصدك إيه يا ليلي؟

وجذبت ليلي الخيط بشدة فانقطع، وألقت بقطعة ((التريكو)) في ضيق على السرير إلى جانبها وقالت:

-العلاقة إللي بينا، اعتبرها منتهية!

وركز عصام نظره على قطعة ((التريكو))، وانحنى وأمسكها بكلتا يديه ثم أرخى قبضتيه عنها وتركها تسقط من بينهما على السرير، واستدار معطيًا ظهره لليلي، وسار إلى مائدة تواجهها في خطى بطيئة وقد تهدلت كتفاه، وارتكز بيديه على المائدة، وقال بصوت خافت كأنه يحدث نفسه:

-أنا كنت عارف إنك مش حتغفري لي إني ما سافرتش مع محمود!

وسحبت ليلي قطعة ((التريكو)) وأفلتتها بعصبية من الإبرة، ولكي تصل الخيط المقطوع بدأت تحل جزءًا من الذي نسجته، ويدها اليمنى تتحرك من الشمال إلى اليمين في حركة عنيفة متكررة ثم.. ثم اكتشفت أنها قد حلت جزءًا أكبر من الجزء الذي أرادت أن تحله، واستقرت يداها في حجرها وقد أطبقتهما على قطعة ((التريكو)) وقالت في مرارة:

-مش دا إللي إنت عايزه؟

ولم يجب عصام. استمر في وقفته وقد أولاها ظهره.

- يعني ما بتتكلمش!

واستدار عصام يواجهها ووجهه أشد شحوبًا:

- لو تتصورى.. لو تتصورى أنا باحبك قد إيه!

وانخفض صوته حتى كاد يتلاشى في المقطع الأخير من الجملة.

ولمعت الدموع في عيني ليلي وجمد وجهها وأشاحت بنظرها بعيدًا، وقالت بصوت مخنوق:

-إنت ما بتحبنيش، لو كنت بتحبنى ما كنتش عملت إللي عملته فوق!

وقامت ليلي واقفة وسقطت قطعة ((التريكو)) من حجرها على الأرض، وقالت في احتداد وهي تواجه عصام:

-ليه؟ ليه عملت كده؟

- عشان باحبك!

وضحكت ليلي ضحكة أشبه بالعويل، وسارت في اتجاه النافذة، وأسندت جبينها إلى الزجاج وقالت:

- عارف يا عصام أنا كنت طول الوقت حاسة بايه؟ كنت حاسة إنك عايز تضربني!
واستدارت وهي ما زالت قريبة من النافذة وواجهته:
- لأ يا عصام، دا مش حب، سميه أي حاجة تانية، بس مش حب!
وجلس عصام على الكرسي الأسويطي المواجه للسريير وقال:
- إنت صغيرة ومش فاهمة حاجة.
واقتربت منه ليلي وقالت:
- أنا مش صغيرة، وفاهمة كل حاجة، وبرضه باقول إن ده مش حب!
ورفع عصام رأسه إليها وهو جالس، وقال في مرارة:
- فاهمة إيه؟! فاهمة إن الحب هو إللي بتقري عنه في الروايات؟ فاهمة إني مش قادر أنام،
مش قادر أذاكر، مش قادر أعيش؟ فاهمة العذاب إللي أنا عايش فيه لما تبقي جنبني ومش
قادر أبص لك، مش قادر ألمسك؟
- وانخفض صوت عصام تدريجيًا، وانحنى ظهره وهو يركز نظراته على الأرض:
- ولما أبعد عنك، أقول ليلي كانت ويايا وما شفتهاش كفاية، وأبقى حاتجنن زي المحبوس في
زنزانة، وأرجع تاني وإللي حصل الأول يحصل تاني!
- ورفع عصام إلى ليلي عينيّن مغرورقتين بالدموع:
- عارفة يا ليلي زي إيه؟ زي واحد في الصحرا بيحفر الأرض عشان يوصل لنقطة ميه،
ويفضل يحفر ويقول دلوقت حاوصل، كمان شوية حاوصل، المرّة الجاية، وفي كل مرّة
بينزل لتحت.. في كل مرّة بيتحبس أكثر في الحفرة إللي بيحفرها، ولا بيوصلش، والميه ما
بتظهرش، ما بتظهرش.
- وضرب عصام مسند المقعد بقبضته وهو ينطق الكلمتين الأخيرتين، وهب واقفًا وواجه ليلي
وهو يقول في غضب وسخرية:
- تقدر تفهمي الشعور ده؟!
- وركزت ليلي عينيها على الأرض، ولمحت قطعة ((التريكو)) مرمية، واتجهت إليها وانحنى
والنقطتها واعتدلت في بطاء ووضعها على السريير، وقالت في هدوء:
- عصام.. إنت بوسنتي مرّة قبل كده.. مش كده؟ تقدر تقول لي ليه يومها أنا ما خفتش؟
وقال عصام:
- عشان يومها كنت بتحبيني والنهارده ما بتحبنيش!
- وأشارت ليلي بيدها تستبعد كلامه:

-كلام فارغ.. شعوري من ناحيتك ما اتغيرش! تحب تعرف ليه ما خفتش يومها يا عصام؟
وأطبق عصام شفتيه وجلس على المقعد من جديد، وقالت ليلي وهي تذرع الحجرة:
-كان يومها فيه حاجة.. حاجة في إيدك.. حاجة في وشك وفي عينيك وفي حركاتك.. حاجة
تخلي أي شيء تعمله معقول، ومش معقول بس.. معقول وجميل.
وتوقفت ليلي أمام عصام وقالت:
-كان يومها فيه حب، أما النهارده، النهارده كنت بتبص لي زي ما أكون عدوتك، زي ما تكون
عايز تنتصر عليّ! ليه؟ ليه يا عصام؟
وغطى عصام وجهه بيديه ولم يُجب. وقالت ليلي بصوت مرتجف:
-ليه تعاملني بالشكل ده؟
وقام عصام وسار في اتجاه النافذة.
وأنهك الصباح ليلي، وانهارت على طرف السرير وهي تكرر بصوت خافت:
-عشان إيه؟ عشان إيه؟
واستدار عصام وسار إليها وانحنى عليها ومس كتفها بيده مسة رقيقة وقال بصوت هامس:
-أنا خايف يا ليلي، خايف، من يوم ما سافر محمود وأنا خايف، من ساعة ما قفلت الباب في
وشي وأنا خايف لتضيعني مني، خايف لأفقدك، والخوف ده بيجنني وبيخليني مش عارف أنا
بأعمل إيه!
وأشاحت ليلي بوجهها بعيدًا وقال عصام:
-تأكدي إني لو كنت في وعيي ما كانش ممكن أقرب منك.. إنت ما تقدريش تتصوري أنا متألم
قد إيه من إلهي حصل.
وتوقف عصام قليلًا ثم أكمل كلامه:
-يمكن لو عرفت، إننا من يوم ما ابتدينا نحب بعض، وأنا ضميري بيعذبني، وطول الوقت
شاعر إني بأعمل حاجة غلط، إني باخون الثقة إلهي الناس وضعوها فيّ، يمكن لو عرفت كده
تقدري تتصوري قد إيه أنا متألم النهارده.
وفجأة فهمت ليلي تصرفاته السابقة التي احتارت من قبل في فهمها.
فهمت لماذا يحمر وجهه عندما يدخل أبوها أو محمود أو أمها، إنه يعتبرها ملكًا لهم، إنه يشعر
بالخجل وبالعار وبالجرم لأنه يحبها، والعاطفة التي تملؤها هي بالفخر وبالاعتداد وبالرغبة في
الحياة وبالإيمان بها تملؤه هو بالشعور بالإثم.
وأظلم وجه ليلي وقالت في قسوة:

-إذا كنت حاسس إنك غلطان عشان ما سافرتش القنال، ليه ما بتسافرش يا عصام؟

وفوجئ عصام بسؤالها، ورفع يديه عن كتفها واستقام وقد تجمع الغضب في وجهه:

-أنا مش غلطان! وإنت عارفة الظروف إللي منعنتي!

وقاطعته ليلى في برود:

-محمود كمان كان عنده ظروف وسافر!

-دا إللي إنت عايزة تقوليه من الصبح.. مش كده؟

وقالت ليلى:

-أنا؟

وقاطعها عصام:

-قولي، اتكلمي، قولي إنك بطلت تحبيني عشان مش بطل زي أخوك!

وقالت ليلى:

-أنا ما قلتش كلام فارغ زي ده!

ولكن عصام كان قد وصل إلى حد من الغضب لم يعد يسمع معه سوى صوته:

-إنت مين إنت عشان تهينيني؟ مين إنت عشان تحتقريني؟ أنا مش عبد لك ولا لأخوك! أنا حر، فاهمة؟ وإذا كان عشان باحبك.. عشان كنت باحبك اعتبري المسألة منتهية، منتهية خالص!

وتوقف عصام وهو يستجمع أنفاسه ثم قال:

-أنا زهقت خلاص! أنا عايز أحب بنت طبيعية بتفكر زي البنات ما بيفكروا، وبتحس زي البنات ما بيحسوا، أنا زهقت منك، ومن فلسفتك ومن أطوارك!

وانحنت ليلى وأخفت وجهها بين يديها وقالت:

-خلاص يا عصام.. انتهي.. تقدر تخرج!

-طبعا حارج.. فاهمة إيه؟ إني ما أقدرش أعيش من غيرك؟

وأزاحت ليلى يديها عن وجهها وقامت واقفة وقد شحب لونها:

-اخرج!

ونظر إليها عصام وتردد لحظة ثم سار إلى الباب وخرج وطرقه خلفه.

جمد وجه ليلي، وجلست على طرف السرير وأمسكت بقطعة ((التريكو)) وحاولت أن تدخل الإبرة في الغرز المحلولة، وكانت يدها ترتجف بالإبرة والغرز ثقلت منها، ولكنها تعيد المحاولة في إصرار وفي استماتة وكأن كيانه كله قد تركز في هذه المحاولة.

وفتح عصام الباب ودخل الغرفة من جديد، ووقف يحك ذقنه بيده لحظة، ثم قال في صوت خافت:

-فيه حاجة واحدة عايز أعرفها وأظن من حقي إني أعرفها، من حقي إني أعرف أنا واقف فين بالضبط!

ولم تجب ليلي وبقي نظرها مصوبًا على قطعة ((التريكو)) وهي تُدخل الغرز في الإبرة وكأنها لا تراه، وكأنها لا تسمعه.

وتقدم عصام إلى داخل الغرفة وقال:

-فيه سؤال واحد عايزك تجاوبيني عليه، وأؤكد لك إن لو كانت الإجابة لأ، مش حتشوفي وشي بعد كده خالص!

ولم تجب ليلي واستمر عصام يتقدم حتى واجهها:

-ليلي، إنت بتحبيني ولّا لأ؟

وغص حلقه بالكلمات، وأشاح بوجهه بعيدًا عنها.

وأطبقت ليلي فمها، وغصت عيناها بالدموع ولم تعد تر شيئًا، وأنزلت قطعة ((التريكو)) ووضعتها على حجرها.

وانحنى عصام عليها ووضع يده على كتفها وقال:

-أنا آسف يا ليلي! آسف على كل حاجة! وأنا فعلًا ما أقدرش أستغنى عنك، ما أقدرش أعيش من غيرك بس أرجوك أرجوك تريحيني!

وأغمضت ليلي عينيها وطفرت الدموع منهما.

وقال عصام:

- كلمة واحدة يا ليلي، مش عايز إلا كلمة واحدة، إنت عاطفتك اتغيرت من ناحيتي عشان ما سافرتش؟

وضمت ليلي شفتيها، وهزت رأسها علامة النفي وهي ما تزال تغمض عينيها.

وقال عصام في توجس:

- زي زمان؟ زي زمان تمام يا ليلي؟

وهزت ليلي رأسها بالموافقة دون أن تتكلم، وتهلل وجه عصام ومال عليها حتى قارب وجهه

وجهها وقال في صوت هامس:

- أوي أد ما أنا باحبك يا حبيبتي؟

وابتسمت ليلي وفتحت عينيها، ونظر عصام إليها لحظة والحنان يشرق في عينيها، ثم مس شعرها بشفتيه.



ولمدة خمسة عشر يومًا عاشت ليلي في توتر عصبي شديد، كما لو كانت تعيش في دوامة، كما لو كانت تعيش في حلم ثقيل، ولكن انتهى كل شيء، انتهى والحمد لله.

وطيلة هذه الأيام بعث عصام في قلبها الخوف والبرودة، قبل حفلة خطوبة جميلة كانت تصرفاته تصرفات مجنون، وفي ليلة الخطوبة بلغ جنونه أقصاه، ثم انقطع عنها خمسة أيام كاملة.

وفي البداية ظنت أنها تستطيع أن تفهمه.. إنه يخاف أن يفقدها سيزول خوفه إذا ما أكدت له حبها، وفعلت ذلك في كل فرصة، ولكنها أدركت بعد مدة أن الكلمات لا تجدي. كان يجلس صامتًا لا يتكلم ولا يتحرك وفي عينيه هذا الإصرار والتهديد وكأنه سيضربها، وأنها تلاحظ، وخالتها بدأت تلاحظ، وجميلة بدأت تلاحظ، وهو لا يشعر بهن، وكأنه غائب عن الوعي، والنظرة الغريبة في عينيه لا تبارحهما، وإذا ما انفرد بها لحظة قال في يأس وكأنه غريق:

- ضروري نجد حل.

وبدا عصام أكثر تماسكًا عندما ظن أنه وجد الحل، اقترح أن يتزوجا في الحال، قال إنه فكر في الموضوع طويلًا ووجد أنه ممكن، فهو يستطيع أن يقوم بعمل إضافي إلى جانب دراسته والأجر الذي يتقاضاه بالإضافة إلى دخله الحالي يمكن أن يكفيهما، ومن الناحية العملية لن يتغير شيء وكل ما سيحدث أنها ستنتقل لتعيش معهم، والشقة تتسع لهم جميعًا وخاصة وجميلة ستنتقل إلى بيت زوجها والمسألة طبيعية وبسيطة ومفهومة.

ووافقت ليلي على أن المسألة طبيعية وبسيطة ومفهومة، ولكنها تساءلت هل هي كذلك بالنسبة لأمها وأمه. إن أمها تريد لها أن تتزوج بأسرع ما يمكن، ولكن بمهر مثل مهر جميلة، ومن رجل لا يقل غنى عن زوج جميلة. وأمه؟ أمه لا تريد له أن يتزوج الآن، أمه تريد له أن يتخرج وأن يفتح عيادة وأن يغتنى وأن يتزوج بابنة باشا أو بيه على الأقل. إن مستقبله مرسوم بمنتهى الوضوح والدقة وكذلك مستقبلها. لا، إن أمها لن توافق وكذلك أمه، وستعملان على تفريقهما بكل السبل المعقولة وغير المعقولة. فلماذا يواجهان هذا الاحتمال دون ضرورة؟ لماذا يُعرّضان نفسيهما لهذه الخطورة؟ نعم هي تعرف أن أمه تحبها، وتحبها جدًّا، ولكن على شرط، على شرط ألا تفقد لها خططها، وألا تتعلق بعصام وهو يطلع السلم، وتقف به عند شقة محمد أفندي سليمان قبل أن يصل إلى بيت الباشا أو البيه.

لا، لم يكن من السهل إقناع عصام. لم يستطع أن يفهم أن كل عائلة تضع لابنها أو لابنتها خطة مرسومة من يوم أن يولد أو تولد، وعلى الإنسان أن ينفذ هذه الخطة، فإذا فعل فاز بحب عائلته وبرضاها عنه، وإن لم يفعل - إن خرج على الخطة المرسومة وعلى الأصول - ضربوه كما ضربها أبوها حين خرجت في المظاهرة، وحرموه من حبهم كما حرم أبوها محمود من حبه حين

سافر إلى جبهة القتال، أو حتى قتلوه كما قتلوا صفاء.

واحتج عصام، واتهمها أنها تردد كلام محمود، وقال إنه سيثبت لها أن هذا الكلام كلام فارغ، فهو متأكد من حب أمه له، ومتأكد من أنها لا تريد له سوى ما يريده لنفسه.

وهل أمه تحب جميلة أيضًا أم أن هذا الحب مقصور عليه؟ طبعًا تحبها. فلماذا إذن أرادت لجميلة غير ما أرادت جميلة لنفسها؟ لقد أرادت جميلة أن تتزوج شخصًا معينًا وزوجتها أمها بشخص آخر.. وصعق عصام.. ومن هو هذا الشخص المعين؟ جارهم ممدوح، وكان يحب جميلة، وجميلة تميل إليه وطلب يدها من أمها.. لا لم يكن يعرف، لم تكن لديه أدنى فكرة. ولماذا رفضت أمه؟ إن ممدوح شاب ممتاز، ومحاسب في شركة محترمة، والمستقبل أمامه مفتوح.

نعم ممدوح شاب ممتاز، والمستقبل أمامه مفتوح، ولكنه لن يمتلك أبدًا فيلا في الهرم، ولا سيارة ((فورد))، ولن يستطيع أبدًا أن يشتري لزوجته خاتم ((سوليتير))، ولا أن يدفع مهرًا مثل الذي دفعه عريس جميلة الذي لا يستطيع فك الخط!

ولكن كيف؟ كيف لم يعرف؟ ولم أخفت أمه هذه الحقائق؟ كان من الطبيعي ألا يعرف، ومن الطبيعي أن تخفي عنه أمه كل شيء فربما تدخل وأفسد الخطة المرسومة لجميلة.

لا، لم يكن من السهل إقناع عصام بضرورة الانتظار حتى يتخرج حتى يستطيع أن يستقل عن أمه لو اقتضى الأمر هذا الاستقلال. لم يكن يرغب في الاقتناع. كان الاقتناع يتضمن استبعاد الحل الوحيد الذي وجده للخروج من الأزمة التي كان يجتازها.

ولكن الدلائل التي تشير إلى استحالة هذا الحل كانت كثيرة وواضحة، وكان لا بد له من أن يقتنع واقتنع.

وعادت نظرة التهديد والإصرار تطل من عينيه، وفي عينيه رأته ليلي، وفي نظرات أمها المرتبكة الخجول، وفي المرأة.. في المرأة في حجرتها وهي تجرب ثوبها الأبيض وخالتها تجري فيه التعديلات الأخيرة، وفي المرأة عند الحلاق وهي تصفف شعرها انعكست نظرة الإصرار والتهديد.

وفي المرأة في حجرة أم عصام رأت ليلي النظرة من جديد، رأتها تلك الليلة، ليلة خطوبة جميلة.

تلك الليلة كانت سعيدة في ثوبها الأبيض بياض القمر الذي يطل من جوانب السرادق الذي أقيم فوق السطح بمناسبة إعلان الخطوبة. كانت تعبت في طيات ثوبها الرقيقة المتركمة والخدم يرفعون الطعام عن الموائد، وفرقة موسيقية تجلس على منصة عالية تعزف الموسيقى حين قالت سناء:

- فستانك جميل يا ليلي، عارفة عاملة فيه زي إيه؟ زي الملاك.

ومسحت عذيلة فمها بالفوطة، وقالت وهي ترسم بيدها أنصاف دوائر في الهواء، تشير إلى

البروز في جسم ليلي:

- كل ده ملاك! دا ملاك مبطرخ أوي.

وضحكت ليلي واحتجت سناء:

-لكن وشها، بشرفك، وشها مش زي وش الببي؟

ولمحت ليلي أباهما وهو يغادر المكان بعد أن انتهى العشاء.

لقد قال لخالتها إنه سيحضر إكرامًا لخاطرها، ولكنه لا يستطيع بأي حال أن ينتظر إلى نهاية الحفلة، لا يستطيع أن يرى المنكر الذي حرمه الله.

وتنقلت جميلة بين الموائد تحيي الضيوف، وخلفها خطيبها في بدلة سوداء، وساعته الذهبية الكبيرة معلقة على كرشه بسلسلة ذهبية ضخمة كالسلاسل التي تقيد المساجين. ولكن جميلة كانت رائعة بثوبها الدانتل الكثيف من وحدات من ورق الشجر، وقد شغلت أطرافها بلؤلؤ أبيض رفيع يلتصق تحت الأنوار التي تتألق في السرادق، وبعنقها الأبيض الطويل، وشعرها الأسود السخي الذي يستدير حول صدغيها ثم يرتفع ليبرز أذنيها الصغيرتين، وبعينيها الرائقتين كنبح صاف، كعيني عصام.

-الجدع ده ضروري بيحبك يا ليلي.

قالت عديلة وهي تميل بنصفها الأعلى على المائدة.

واستدارت إليها ليلي، كانت تتأمل أمها وقد جلست منكشمة إلى جانب دولت هانم، نصف ميتة كما هو شأنها منذ أن سافر محمود.

- مين؟

- عصام أخو جميلة، ما بيرخيخ عينه عنك خالص.

وقالت ليلي وهي تكتم ابتسامتها:

- إنت مصيبة.

ومالت عليها عديلة برقبته الطويلة وبعينيها السوداوين الكبيرتين:

- أمال فكرك إيه! أنا أفهمها وهي طائرة.

وقالت سناء وهي تتصيد كعادتها قصة حب:

- والنبي صحيح بيحبك يا ليلي؟

ولم ترد ليلي، رفعت يدها تحيي صدقي ابن سامية هانم.

وقالت عديلة:

- حتعلمي حِدقة علينا يا بت إنت، دا مش بيحبك بس، دا حياكلك أكل!

وقامت ليلي واقفة وهي تضحك:

- دقيقة بس، حاكم ماما أحسن بتشاور من الصبح.

وسارت في الممر بين الموائد متجهة إلى مائدة أمها. وابتسم لها بعض المدعوين وابتسمت لهم، ورأت نظرات الإعجاب تطوقها، وجذبته سيدة لا تعرفها من يدها واحتضنتها وقالت لها:

- يا روعي عليك يا أختي بنت مين إنت يا حبيبتي؟

واستأنفت سيرها في خطى خفيفة وكأنها تطير، وطيات الفستان الأبيض الشفاف كجناحي طائر أبيض كبير، تنفرج ثم تنطبق، لتعود فتفرج من جديد.

وقالت دولت هانم:

- تعالي يا حبوبة، تعالي وريني، إللي لابس فستان جميل كده مش يوريه للناس؟!

وضحكت ليلي ضحكات متتابعة متلاحقة. كانت تريد أن تضحك بلا انقطاع.. بلا سبب.. بلا سبب.

وقالت أمها:

- حتقدي لازقة مطرحك طول الليل! اتحركي! سلمي على الناس أهم كلهم قرايبك!

وأدركت ليلي على الفور أن دولت هانم وأمها تريدان عرضها على الناس فربما كان بينهم عريس لائق. ولكنها لم تغضب. ضحكت من جديد ضحكاتها القصيرة الفوارة المتتابعة، وابتدأت بمائدة سامية هانم وانتوت أن تتبعها ببقية الموائد، ولكنها شعرت فجأة برغبة شبيهة برغبة القطعة الصغيرة التي تبحث عن الدفء. أرادت أن يدللها أحد، وأن يربت على كتفها، وأن يمسح شعرها، وأن يقول لها من جديد إنها جميلة. وانحرفت إلى حيث يقف عصام.

كان يقف على باب السرداق المؤدي إلى سلم السطح يكلم أحد الخدم، ومدت ليلي يدها ووضعتها على كتفه واستدار يواجهها.. كانت عيناها تلمعان في خفة وفي رعونة، وشفاتها منفرجتين في ابتسامة مكتومة، وبريق يشع منهما.. من أين؟ من وجهها ومن جسمها، بريق يلف وجهها ويلف جسمها، وسرى البريق إلى عصام، سرى في نظرات بينهما لم تكتمل، وفي بسمات لم تكتمل، وفي كلمات لم تكتمل. ولف البريق ليلي وعصام وضمهما في وحدة منفصلة عن بقية الموجودين.

وتمتم عصام بصوت ثقيل:

- تعالي نخرج برّه شوية.

واستدار إلى الخارج، وهمت أن تتبعه وانكسرت الوحدة.

اصطدم عصام بأمه وهي تدخل السرداق بعد أن فرغت من غرف الطعام للخدم وسائقي

العربات.

- عصام.. البنت الرقاصة مصممة على ستاشر جنيه، مع إن علي بك متفق معاها على عشرة.
انزل شوف إيه حكايتها.

وقال عصام في غيظ مكتوم:

- ما ينزل هوّ يا ستي.

- معلّش يا حبيبي عسان خاطري، قول لها على اتناشر. أحسن أنا قلت ولا مليم زيادة، وما أحبش أرجع في كلمتي.

وسارت أم عصام إلى داخل السرداق بعد أن ربتت على كتف ليلي. وتطلع عصام إلى وجه ليلي وقال:

- تعالي ويايا.

ولكنه كان يعرف أنها لن تفعل هذه المرّة، كان البريق قد اختفى من وجهها ومن جسمها. وهزت ليلي كتفها في دلال دون أن تتكلم وبقيّة من رعونة في عينيها. ووقف عصام وكتفه إلى جانب كتفها، وقال في صوت هامس دون أن ينظر إليها:

- عارفة إن ما جتّيش حاعمل إيه؟

وقالت وهي تنتظر بعيدًا:

- إيه؟

- حابوسك قدام كل الناس دول.

ونظرت إليه من طرف عينيها:

- إذا كنت شاطر.

واستدار عصام يواجهها وقد تركزت نظراته على الخط العميق الذي يفصل بين نهديها، والذي تكشف عنه فتحة ثوبها.

وقالت ليلي وقد احمر وجهها:

-لأ يا عصام ما تبصش كده، كل الناس شايفانا!

وهز عصام رأسه وقال بصوت ثقيل خافت متقطع:

- إنت حلوة النهارده، حلوة أوي يا حبيبتي.

واستدار خارجًا من السرداق وهو يكاد يهرول.

- وسارت ليلى في اتجاه عديلة وسناء، واستوقفها صدقي في الطريق:
- إيه مفيش بونسوار ولا حاجة؟ خلاص ما نعرفش بعض ولّا إيه؟ وصافحته ليلى وهي تبتسم في خجل، ولمعت في عيني صدقي نظرة إعجاب عابثة وقال:
- تسمح لي أقول لك حاجة؟
- اتفضل.
- إنت النهارده ساحقة!
- وضحكت ليلى وتورد وجهها، وقالت وهي تميل برأسها جانبًا:
- ساحقة! يعني إيه ساحقة؟
- يعني قاتلة، ودا حرام كمان!
- ونظرت إليه ليلى من طرف عينها، وهي تكتم ابتسامتها، واستأنفت سيرها.
- وقالت عديلة:
- ودا يطلع مين كمان؟
- دا صدقي، صدقي المغربي ابن سامية هانم.
- وقالت سناء:
- أما جذاب بشكل، دا شبه ((جريجوري بك)) تمام، ما تتجوزيه يا ليلى.
- وقالت عديلة في لهجة حاسمة:
- ما يتجوزهاش.
- واحتجت ليلى:
- يعني أنا إللي عايزة أتجوزه؟ وقالت سناء:
- وهي ليلى وحشة، دا حتى باين عليه واقع فيها.
- وضحكت ليلى وقالت:
- أهو إنت كده يا سناء، تحبلي البغلة.
- وقالت عديلة:
- حتى لو كان واقع فيها، يمشي معاها معلش، لكن يتجوزها لأ. فيه نظام طبقات يا حضرة.
- ونظرت إليها ليلى في إعجاب:
- كلك حكم يا عديلة.. دا مرّة بيقول...

وقالت سناء:

- هس!

وشعرت ليلي بيدي رجل تستقران على كتفيها العاريتين، وتوقفت عن الكلام وقد تصلب جسمها، وأدارت رأسها إلى الخلف ورأت صدقي وعيناه تطلان في عينيها في جرأة وفي ثقة:

- مش تعرفيني بزميلاتك، ولّا الطرابيزة دي عايزة تحتكر الحلاوة إللي في الحفلة كلها؟

وقدمته ليلي إلى سناء وعديلة، ومدت سناء يدها بحركة آلية تصلح من شعرها، وتصلبت يد عديلة على المائدة وهي تحني رأسها.

وشعرت ليلي بالخرج ويذا صدقي ما زالتا مستقرتين على كتفيها، وأحست أن كل العيون مركزة عليها، ورأت عصام يقف عند مدخل السرادق وفي عينيها نظرة خطيرة، نظرة قاتلة.

وقالت في اضطراب:

- ما تقعد يا صدقي بك.

وكان صدقي يسحب مقعدًا خاليًا عندما وقف عصام تجاه ليلي وقال في صوت غاضب دون أن ينظر إلى صديقاتها:

- خالتي عايزاك.

وغمرت عديلة سناء، وتقدمت ليلي عصام، وقال صدقي شيئًا وضحكت عديلة وسناء.

وسارت ليلي في اتجاه مائدة أمها، وارتفعت أنغام الموسيقى مزغردة صاخبة، واندفعت الراقصة من باب السرادق تجري وغطاء من ((الشفون)) الأحمر يهفهف على جسدها.

ووقف الجالسون حول الموائد عند دخول الراقصة، وانتهاز عصام الفرصة وسحب ليلي من يدها سحبًا إلى خارج السرادق.

وقالت ليلي وهي تستند على سور السطح وقد تقطعت أنفاسها:

- جرى إيه يا عصام؟

- فيه إيه بينك وبين الولد ده؟

- ولد مين؟

وهز عصام رأسه في قسوة:

- الولد إللي بيقصرص في كتافك! أنا ما كنتش أفكر إنك رخيصة بالشكل ده!

وأفقلت ليلي عينيها، وتقلص وجهها، وكأنها قد تلقت صفعه.

وقال عصام في وحشية:

- ما تتكلمي، ما تتطقي، ساكتة ليه؟

وفتحت ليلي عينيها وقالت:

- إنت وقح وقليل الأدب كمان.

واستدارت متجهة إلى مدخل السرداق، وجذبها عصام من يدها:

- أنا إللي قليل الأدب ولأ إنت؟ ضروري شجعتيه، لا بد، لا بد إنك شجعتيه.

واستدارت ليلي إليه ويدها ما زالت في قبضته وقالت في هدوء:

- أيوه شجعتيه، وباحبه كمان، عايز إيه؟

ووجم عصام، وارتخت قبضة يده على يدها. وانتهزت هي الفرصة وانتزعت يدها في عنف وجرت إلى داخل السرداق.

كانت الراقصة ترقص أمام علي بك خطيب جميلة وقد ألقت بصفها الأسفل على حجره وهو يحاول عبثاً أن يبتعد بجسمه إلى الخلف حتى لا يلمس جسدها جسده، وجميلة تبستم وتشد على يد أمها التي تقف إلى جانبها، والضحكات تعلو من جوانب السرداق.

وأشارت عديلة ولكن ليلي تجاهلت إشارتها، وسارت إلى حيث تجلس أمها منكمشة وحيدة، وجلست تجاهها تدق المائدة بيدها في حركة متكررة ميكانيكية.

وقالت الأم:

- مالك؟

- مفيش.

- مفيش إزاي؟ دا إنت لونك مخطوف خالص!

واستمرت ليلي تفرع المائدة دون أن تشعر بحركة يدها وقالت:

- دماغي بتوجعني!

ودخل عصام السرداق، وسحبت ليلي يدها إلى جانبها وقامت واقفة وسارت في طريق أفقي إلى حيث يجلس صدقي وعديلة وسناء، وأسرع عصام في خطاه حتى التقى بها في منتصف الطريق وهمس في أذنها بصوت خافت:

- أرجعي أحسن لك.
- وأظلم وجه ليلي، وألقت برأسها إلى الخلف وتابعت سيرها. وقالت عديلة:
- جرى إيه يا ست ليلي؟ عمالين نشاور لك من الصبح، عايزين نروّح.
وقال صدقي في خبث:
- سيبوا ليلي في حالها، ليلي يظهر مشغولة خالص.
- وودت ليلي لو استطاعت أن تصفحه على وجهه، وجلست بين عديلة وسناء وهي تقول:
- ما بدري.
- وقالت عديلة:
- لأ يا ستي مش بدري، يا دوب كده، بس نسلم على طنط سميرة وجميلة ونروّح على طول.
- وقالت سناء:
- فعلاً إحنا اتأخرنا خالص.
- وقال صدقي:
- تسمحوا أوصلكم، والله دا يبقى شرف كبير خالص.
- وابتسمت سناء، وقالت عديلة:
- كتر خيرك يا صدقي بيه، مفيش لزوم، إحنا ساكنين قريب خالص. وقامت واقفة وتبعتها سناء وصافحتا صدقي وسبقتهما ليلي إلى حيث تقف خالتها بجانب جميلة.
- وقبلت كل من سناء وعديلة جميلة ثم صافحتا خطيبها.
- وقالت سميرة هانم:
- إيه رأيكم بقه في العروسة؟
- وقالت سناء:
- جنان يا طنط جنان! الفستان.
- وأكملت عديلة:
- وإللي جوا الفستان، والحفلة كلها حاجة حلوة خالص، عقبال الفرح إن شاء الله.
- عقبال عندكم يا حبيبتي.
- وتطلعت سناء إلى خطيب جميلة لحظة، وقد ارتفع أنفها الصغير الأرستقراطي إلى أعلى، ثم قالت له في جفاف، وكأنها تلومه على شيء:

- جميلة عروسة تستاهل إن الواحد يحطها في عينيه.
وضحكت جميلة ضحكة عالية، واحتضنت سميرة هانم سناء، وقال علي بك:
- يا ست هانم إحنا قلنا حاجة؟! على العين والراس يا ست هانم على العين والراس.
وقالت عديلة لليلى في همس:
- البلاطي.

وقالت سميرة هانم وهي تعطي ليلي سلسلة مفاتيح الشقة:
- وبالمرة يا حبيبتي هاتي لخالتك الجاكيث ((الفورير)) من الدولاب أحسن بردت خالص،
يظهر خالتهك عجزت، ما عادتش بتستحمل البرد.
وبرم علي بك شاربه وقال وهو يبتسم ابتسامة واسعة:
- العفو يا ست هانم.. يا ست هانم العفو.

* * *

وقالت عديلة وهي تلبس معطفها:
- أما حنة نطع.
وقالت سناء:
- نطع ميري صحيح.
وقالت ليلي وهي تبرم شاربًا وهميًا وتترقص:
- عقبال عندكم يا ست هانم.. يا ست هانم عقبال عندكم.
ولوحت لسناء وعديلة وضحكاتهما ترتفع من المصعد، وعادت إلى الشقة لتأتي بجاكيث خالتها.
دخلت ليلي الجاكيث من على الشماعة ووضعتة على كتفيها وأقفلت باب الدولاب، ووقفت
تنتطلع إلى نفسها في المرأة، وتراجعت إلى الخلف وهي تضم الفورير إلى صدرها بيديها، وجمدت
يها على صدرها.. في المرأة رأت عصام يقف على الباب وفي عينيه نظرة سوداء قاتلة، وأدرك
عصام أن ليلي قد رآته، ودخل الغرفة وأقفل الباب خلفه، وربع يديه على صدره.
واستدارت ليلي له ببطء وقالت وهي تصطنع الهدوء:
- خالتي بردانة وعازية الجاكيث.
ولم يجب عصام، لم يتحرك من مكانه، وفي وجهه هدوء مريب.. هدوء قاتل.
وتسلل الخوف إلى صوت ليلي:

- عايز ايه يا عصام

- حاققتك!

- إنت مجنون!

وقال عصام دون أن يفقد صوته الهدوء:

- أنا عارف إني مجنون، لكن قلت لك ما تروحيش عنده!

وتقدم منها ببطء ورأسه ممدود إلى الأمام، كالقط حين يتربص بفريسته خطوة فخطوة.

وتراجعت هي حتى التصقت بالسريير وهي تقول في صوت باك:

- كنت باغيظك، كنت باغيظك يا عصام!

واقترب منها حتى كاد يلمسها، وفلنت من بين يديه ووقفت تواجهه والسريير يفصل بينهما.

وقال عصام بنفس الهدوء المخيف:

- ما تتعبيش نفسك يا ليلي.. مش حتقلتي مني.

- أرجوك يا عصام! أرجوك تسييني!

ومسح عصام وجهه بيده في عنف، وقال في حدة:

- وإنت ما سيبنتيش في حالي ليه ما دام بتحبي واحد ثاني؟

- كنت باضحك عليك يا عصام! كنت باضحك عليك!

وحاولت أن تشق لنفسها طريقًا إلى الباب ولكنه لحق بها وأمسك بكتفيها وأدارها إليه بعنف وأسندها إلى الباب.

- أنا عارف إنك كنت بتضحكي عليّ ولكن مش حتضحكي عليّ ثاني!

ومسحت يدها على كتفيها العاريتين، واستقرتا مفرودتين على كتفيها بالقرب من عظمي رقبتها.

- أبدًا!

وألقت ليلي برأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها وقال عصام في وحشية:

- ومن إمتي وإنت بتضحكي عليّ؟ من إمتي وإنت ماشية مع الجش ده؟

واستقام رأس ليلي وقالت في صوت هادئ:

- اقتل يا عصام! اقتل وريحني!

وتحرك إصبع يده اليمنى الكبير يمسح على صدرها ويدها ما زالتا مستقرتين في مكانهما، وقالت ليلي:

- ما دام إنت بتعتقد فيّ كده، يبقى أحسن تموتي!

- ليه؟ أنا غلطان؟

ولم تجب ليلي.. سالت الدموع من عينيها المغمضتين.

وتحرك إصبع يده اليمنى الكبير على عنقها من جديد ومال وجهه عليها وهو يكرر:

- أنا غلطان؟

وقالت دون أن تفتح عينيها:

- إنت عارف، عارف إنك غلطان!

وسقطت شفتاه على شفتيها واستقرتا عليهما منهكتين تعبنتين.

ثم جمدت شفتاه على شفتيها، وتقلصت يداها على رقبتها، وابتعد بوجهه عن وجهها، وقال بصوت مختنق:

- أنا قلت لك ما ترجعيش ورجعت.. رجعت!

وارتجف جسم عصام وارتجف صوته وزاغت عيناه وهو يصرخ كالمجنون ويقول:

- إنت بتاعتي.. بتاعتي أنا.. ملكي أنا.. فاهمة؟

وضاقت قبضتاه على عنقها، وصرخت ليلي بصوت متحشرج:

- سييني!

ومدت يديها وبقوة لا عهد لها بها انتزعت يدي عصام عن رقبتها، وجرت في اتجاه الأريكة ووقفت كالقطة المتمردة:

- أحسن لك تبعد عني خالص.. فاهم؟

وأطرق عصام برأسه وازدادت ليلي عنفاً:

- أنا مش ملكك ولا ملك أي إنسان! أنا حرة! فاهم؟

وانقض عليها عصام وقد اربد وجهه، وبدأت بينهما معركة عنيفة صامتة، ثم تمكن عصام منها وألقاها ممددة فوق الأريكة.. وجسم عصام كالصخرة فوق جسمها، ويداه تطوقان ذراعيها كطوقين من الحديد، وفمه اللزج فوق عينيها، فوق فمها، فوق رقبتها، فوق صدرها.. ودقات أقدام تدب في السطح، وزغاريد، وموسيقى، وحرارة تلهب وجهها وجسمها، وأنفاس عصام المنقطعة وقدماه.. قدماه تسحقان قدميها، والزغاريد تعلو والموسيقى.. ووقع أقدام في الممر، وطرقة على الباب، وصوت ممطوط ينادي:

- سي عصام.. سي عصام.

والقرع يشند والنداء يتكرر وعصام لا يسمع.. وصريير أسنانها في خد عصام وصرخته، وعصام يصحو على القرع والنداء وقبضته ترتخيان على ذراعيها وتنهالان على كتفيها ضربة بعد ضربة، وعويله المكتوم وخطواته وهو يبتعد، وصريير الباب وهو يفتح ويقفل، وصياحه المجنون في الممر:

- خلاص، غوري من وشي، غوري، أحسن أفتلك!

وصوت الخادمة الممطوط وهي تقول:

- يوه يا سيدي!

وخطوات الخادمة تبتعد، وخطوات عصام تتردد في الممر تروح وتجيء ثم تبتعد في بطن، وطرفة الباب الخارجي تهز البيت، وصوت تنفسها العريض وهي تدرك أنها نجت بالكاد من خطر محقق، وبرودة الظلام تلتصق قدميها وهي تتسلل من الثقة وتنزل السلم في الظلام عارية القدمين كما لو كانت تحلم.

نعم كان حلمًا ثقيلًا وانتهى والحمد لله، لم ينته تلك الليلة ولكنه انتهى بعدها بخمسة أيام، خمسة أيام جاء بعدها عصام، عصام الذي تعرفه وتحبه، لا ذلك الغريب الذي بعث الخوف والبرودة إلى قلبها وجسمها.. جاءها مشرقًا هادئًا متماسكًا عطوفًا حانيًا وكأنه قد بُعث من جديد:

- خلاص يا ليلي خلاص.

قال عصام:

- خلاص يا ليلي لقيت حل.. مش حالمسك أبدًا، ولا أضايقك أبدًا، حابص لوشك الحلو بس، و أسمعك تتكلمي، و أحبك وبس وأنتظر لغاية ما نتجوز.

ولانت ملامح عصام ولانت عيناه وأشرق فيهما نور ثاقب اخترق جسد ليلي واستقر في حناياها.

ولم يخطر لليلي في غمرة سعادتها أن تسأل عصام عن الحل الذي وجده للخروج من الأزمة التي كان يعانيها.

((الحل؟)).

كتب محمود لليلي:

ليس هناك سوى حل واحد، أن يحدث شيء هائل، شيء يهز هؤلاء الناس المحترمين المستقرين المطمئنين، معجزة تجبرهم على تمزيق

أكفانهم، وإلا فلن يتغير الأمر.. لن تتمزق الأكفان، لأنهم يتمسكون بها ويستترون خلفها.. يحسبون أنها تحميهم وتقويهم بينما هي في الواقع تشل خيالهم وعقولهم وقدراتهم. وخلف هذه الأكفان يعيشون. كل واحد منهم يقول: ((لا لن أغامر، لن أخاطر، لن أخرج على الدائرة المرسومة لي. قد أضر نفسي، قد أضر مصالحتي، قد أضر مستقبلتي، قد أضر أولادي. لا لن أفكر إلا في الأفكار التي يتقبلها مجتمعي، ولن أرغب إلا في الأشياء التي يرغب فيها من حولي، ولن أفعل إلا الأشياء التي يفعلونها، ولن أشعر إلا بالمشاعر التي يستشعرونها، ولن أنفعل، إن الانفعال قرين الألم وسأجنب نفسي الألم، ولن أفعل سوى ما فيه صالحي أنا)). وتحت أكفانهم يعيشون، لا يحبون حبًا كبيرًا، ولا يضحون تضحية كبيرة، ولا يخلقون في عالم الفكر والخيال والحس، ويتزوجون ويلدون قوالب، قوالب متشابهة، تفكر بنفس الطريقة، وتتأثر وتتأثر بنفس الطريقة، قوالب متكررة، أوساط من الناس بلا عبقرية، بلا نبوغ، بلا تفنن، بلا ابتكار، بلا قدرة على الحب الحقيقي.

وفي مدة الثلاثة شهور التي قضاها محمود في القناة لم ينقطع عن الكتابة، ولكن خطاباته التي كانت في بادئ الأمر طويلة وملينة بإحساساته وبانفعالاته، أصبحت أقصر وأكثر رسمية أسبوعًا بعد أسبوع حتى اقتصررت على سطور يسأل فيها عن صحة العائلة. وأدركت ليلي أنه يخفي عنها شيئًا، وأرسلت تسأله عن السبب أكثر من مرة. وفي كل مرة كان يتحاشى الرد على سؤالها. وعندما ألحت بعث يقول إنه مشغول، وإن قلة عدد الفدائيين تعني مزيدًا من العمل، تعني أن يركز الإنسان تفكيره وكيانه كله في هذا العمل، وإنه يكتب لمجرد أن تطمئن عليه العائلة.

وأدركت ليلي من هذه الإشارة أنه وزملاءه يشعرون بالوحدة وبالانعزال، وأرسلت إليه تسأله هل هذه هي الحقيقة التي يخفيها عنها. وفي آخر خطاب أرسله لها قبل أن يعود من القناة كتب يقول:

نعم، نحن معزولون، وليس هذا شعوري أنا فقط بل شعور جمع زملائي هنا، وإن كان هذا لا يؤثر فينا ولن يمنعنا من تأدية المهمة التي جئنا من أجلها. لا، إن الخيانة لا تهم، والجاسوسية لا تهم. إن الخونة والجواسيس قلائل شواذ يمكن استئصالهم. إن الذين عزلونا ليسوا الخونة ولا الجواسيس، إنهم الملايين من الناس الطيبين الذين يحبون مصر، يحبونها طالما لم يتعارض هذا الحب مع مصالحهم النفعية. إن الخيانة الحقيقية هي خيانة هؤلاء الناس الذين يحبون مصر بقلوبهم وأفواههم، لا بسواعدهم ودمائهم.

كان الخطاب يحوي أخبارًا مؤلمة عن الحالة في القناة، فإلى جانب الشعور بالعزلة، كان

هناك نقص في الأسلحة وفي التنظيم وفي الملابس وفي الغذاء. والجانب الأكبر من الفدائيين من العمال والكادحين الذين تركوا خلفهم أعمالهم وأطفالًا وأسراً بأكملها كانوا يعولونها. والحكومة تماطل في مد الفدائيين بالأسلحة وبالنفقات الضرورية.

وفي ذلك الخطاب أخبر محمود ليلي أنه قادم إلى القاهرة مع زميله حسين في مهمة سرية، وأن إقامتهما في القاهرة لن تتجاوز ٢٤ ساعة يعودان بعدها إلى منطقة القنال.

وكانت لهجة الخطاب غاضبة وكأنه... وكأنه يشركها في اللوم على هذا الوضع! وما ذنبها هي؟ ولكن أليست هذه هي الحقيقة؟ أليست هي واحدة من الناس الطيبين الذين يحبون مصر ولكن لا يحبونها بما فيه الكفاية ليمزقوا أكفانهم ويهبوا لنجدتها؟

وشعرت ليلي بالحرج وكأنها ارتكبت ذنبًا، ولم يفارقها هذا الحرج وهي تمد يدها لتصافح محمود.

وكان محمود متغيرًا للغاية، ولحظ أبوه هذا التغير وهم جلوس على مائدة الغداء، ونظر إليه في رهبة لحظة ولم يقل شيئًا، واستمرت أمه تملأ طبقه بالطعام رغم احتجاجه وكأنه كان صائمًا طيلة الفترة التي قضاها في القناة.

وحاول هو أن يتكلم وسأل الأسئلة المعتادة عن الصحة وعن خالته وعصام وجميلة وموعد زواجها، وعرف أن جميلة ستتزوج في خلال أسبوع. ولكن فترات الصمت كانت تطول بين الجملة والأخرى، صمت وخرج وكأنه غريب.. ولم يحاول أحد أن يفتح موضوعًا للحديث، أرادت أمه أن تسأله هل يأكل هناك جيدًا، وهل الغطاء كافٍ، وهل يتعرض للخطر، ولكنها كانت تعرف أن زوجها لا يريد أن يسمع كلمة واحدة عن هذا الموضوع، واكتفت بأن تطيل النظر إلى ابنها وعيناها تدمعان بين الحين والحين.

وأراد أبوه أن يقول شيئًا واحدًا، شيئًا معيّنًا يلح عليه ولا يحس بسواه، ولا يرغب في أن يقول سواه، وكلما هم بالكلام نظر إلى ملامح محمود التي اكتسبت صرامة وقوة، وإلى الخطوط الخفيفة التي انتشرت في جبهته، وإلى عينيه اللتين فقدتا لمعانهما، وكأن شيئًا قد مات فيهما، وسكت، لا فائدة، لن ينصت له هذا الشخص، لن يسمع كلامه، لن يرجع أبدًا عما بدأ، لقد تغير، خرج عن طاعته نهائيًا، ويشيح الأب بعينيه بعيدًا قبل أن تلتقيا بعيني ابنه.

وسارقت ليلي محمود النظر وارتجف في أعماقها خوف مبهم، كان يجلس وقد انتصب جسمه، وانقبضت يده اليسرى على طرف المائدة، وجمد وجهه، وكيانه كله مشدود، مشدود أكثر من اللازم في تحفز وفي توتر، وكأن من الضروري له أن يبقى هكذا مشدودًا لا يرتخي أبدًا.

وبدأت ليلي تأكل باحتراس، ووقع الملاعق على الأطباق يقع على أعصابها وكأنها تخشى أن يحدث شيئًا ما، شيئًا يزعج محمود، كلمة أو ضجة تجعله يرتخي، تجعله يضع رأسه على المائدة وينفجر باكيا.

وأزعج ذلك خاطر ليلي، وحاولت جاهدة إبعاده من خيالها. أليس خوفها هذا مضحكًا؟ ألأنها ضعيفة تحسب الناس كلهم ضعفاء مثلها؟ محمود لا يمكن أن يحدث له مثل هذا الشيء، محمود قوي، محمود حارب الإنجليز ثلاثة أشهر، وهو عائد في الغد إلى القناة ليحاربهم من جديد، محمود لن ينهار، لن ينهار أبدًا، من المستحيل أن يحدث له ذلك، ومن الطبيعي أن يكون المحارب متحفزًا، إنه يحارب ولا يلهو مثلها ومثل الذين بقوا بعيدًا عن القناة واكتفوا بترقب نتيجة المعركة.

وانتظرت ليلي في صبر انتهاء وجبة الغداء، نعم لقد تغير محمود، ولكن كل شيء سيعود بينهما كما كان عليه حين ينتهي الغداء، حين تنفرد به في حجرتها أو حجرته، حين يحكي لها وتحكي له كما كانا يفعلان من قبل، وانتظرت ليلي انتهاء وجبة الغداء في فروغ صبر.

وانفردت ليلى بمحمود في غرفته، وحكى لها وحكت له، ولكن شيئاً ما وقف بينهما.

وحاولت ليلى جاهدة أن تصل إلى محمود، وأن تقتحم ذلك السد الذي أقامه بينه وبينها، وفشلت في محاولتها، ماذا حدث؟ هل يخفي شيئاً؟ لا، إنه لا يخفي شيئاً عنها، لقد أخبرها بكل شيء، كل شيء يمكن أن ينقله إنسان إلى إنسان آخر في كلمات، ومع ذلك ما زال ذلك السد المنيع يقف بينها وبينه وكأن.. كأن شيئاً قد حدث له، أشياء انفرد بها عنها، وكبر بها عنها، وأصبح بها إنساناً غير محمود الذي عرفته، إنساناً لا تستطيع أن تحسه وأن تسبر أغواره.

ولكن هل يمكن أن يحدث كل ذلك في ثلاثة أشهر، مستحيل!

لا بد أن شيئاً ما يؤلمه وهي لا تستطيع أن تسري عنه، ربما يستطيع عصام أن يفعل شيئاً؟ نعم عصام صديقه وحبيبه وأسراره دائماً معه، ثم إنه رجل والرجال أقدر في هذه المواقف، نعم، في الحال، ستدعوه في الحال.

أوقفت ليلى المصعد، وفتحت بابه، واندفعت إلى داخله، ثم وقفت تبتسم في ارتباك، اصطدمت بشاب أسمر طويل وهو يخرج، وتراجع الشاب إلى داخل المصعد وقال:

- أنا آسف!

وابتسم في وجهها، ولحظت ليلى التغير الذي طرأ على وجهه إثر هذه الابتسامة. ذابت ملامحه الكبيرة القوية المحددة في ابتسامته فصار وجهه الأسمر كوجه طفل رضيع. ولم تستطع ليلى أن تقاوم ابتسامته فابتسمت وهي تقول:

- طالع ولّا نازل؟

ومد الشاب يده يتحسس شعره الأسود الناعم، وقال:

- لا طالع ولا نازل، خارج هنا في الدور ده.

وتراجعت ليلى لتفحص مكاناً يمر منه، ثم دخلت المصعد بعد أن مر وأقفلت بابه الحديدي.

- فيه حاجة؟

- دقيقة واحدة من فضلك.

ولم يكن صوته يأمر كنظرته، كان على العكس من نظرته هادئاً، وكأن صاحبه يتحكم تحكماً تاماً في كل نبرة من نبراته.

- فين شقة الأستاذ محمود سليمان من فضلك؟

- محمود؟ هنا!

وأشارت ليلى إلى شقتها، ثم أدركت أن ذلك الشاب الذي يقف أمامها هو حسين عامر، زميل

أخيها في القناة، وملأها ذلك الإدراك براحة نفسية عميقة وكان متاعبها ومتاعب أخيها قد ذابت في هذه الابتسامة الواسعة المكتملة التي تواجهها. وشعرت ليلي كأن الله قد استجاب لدعائها، كان الله قد أرسل حسين خصيصًا في هذه اللحظة بالذات ليسري عن محمود، وليقف إلى جانبه كما وقف إلى جانبه دائمًا في القناة وتألق وجهها بفرحة غامرة وقالت :

- أهلاً وسهلاً.

وفتحت الباب الحديدي على مصراعيه، وانطلقت تقود حسين إلى شقتها، وقبل أن تمد يدها إلى الجرس قال حسين:

- ليلي.

لم يكن يسأل، كان يناديها، واستدارت وواجهته وقالت:

- حسين

- عرفت إزاي؟

- وإنت عرفت إزاي؟

والتقت عيونهما وضحكا معًا.

واستدارت ليلي، وقرعت الجرس، وقال حسين:

محمود كلمني كثير عنك.

وقالت ليلي دون أن تستدير:

- وكتب لي كثير عنك.

- على كده إحنا نعرف بعض كويس.. يعني أصدقاء.

واستدارت ليلي وواجهته وفي عينيها نظرة حادة:

- إنت صاحب محمود.. مش كده؟

وهز حسين رأسه يؤكد هذه الحقيقة وهو يبتسم، واستطردت ليلي في كلامها:

- والصديق يساعد صديقه إذا كان محتاج لمساعدة.. مش كده؟

وقال حسين وهو يتأمل وجهها بعينه السوداوين الواسعتين العميقتين:

- كده.

وأدركت ليلي أنها تستطيع أن تعتمد عليه، وأن محمود يستطيع أن يعتمد عليه، وانفرج وجهها في ابتسامة واسعة وقالت:

- يبقى خلاص. عن إذنك بقه.

وتركته خلفها ودخلت المصعد وتحرك بها، وأشارت له بيدها ملوحة ثم اختفت. وعندما اختفت تذكر حسين فجأة الأنباء السيئة التي جاء يحملها إلى محمود، وشعر أنه هو بدوره في حاجة إلى مساعدة، وأنهم جميعًا في حاجة إلى مساعدة، والبناء يتخلخل أمام أعينهم، البناء الذي بنوه طوبة فوق طوبة بعرقهم وأعصابهم ودمائهم.

* * *

وفتحت جميلة الباب، كان وجهها متوردًا وعيناها تلتمعان، وما إن رأت ليلي حتى ارتمت في أحضانها ثم سحبتها من يدها وهي تقول وأنفاسها مبهورة:

- فستان الفرحة.. أما فستان يا ليلي! أما فستان

وقالت ليلي وهي تخلص يدها من يد جميلة:

- دقيقة واحدة يا جميلة، أصل محمود جه وعايزة أقول لعصام ينزل له.

وقالت جميلة وقد زايلها حماسها:

- إخص عليك! مش حتشوفي الفستان الأول؟

ثم ابتسمت وقالت:

- وإزي محمود؟

- كويس.. هو عصام فين؟

- في أودة المكتب.. أحسن كده برضه، حالبس أنا الفستان على ما تيجي عشان تشوفيه عليّ.

وكان عصام يجلس إلى المكتب وأمامه كتاب مفتوح، وكانت سيدة الخادمة تركع على الأرض تمسح بخرقه مبتلة آثار قهوة على السجادة وقدح القهوة ما زال مقلوبًا على جانبه على طرف المكتب.

ونهض عصام واقفًا وعلى فمه ابتسامة مرتبكة:

- أهلاً ليلي.

وقالت ليلي وهي ما زالت تقف بالقرب من الباب:

- محمود جه.

وقال عصام بلا حماس:

- صحيح؟

وتقدمت ليلي إلى داخل الغرفة:

- مش حتنزل له يا عصام؟

- دلوقت؟

ووقفت ليلي تجاهه:

- أيوه دلوقت.. إلا إذا كنت مشغول!

- وهز عصام كتفه وهو يبتسم:

- لا.. ولا مشغول ولا حاجة.

واستدار لياخذ الجاكيت من على مسند الفوتيل المجاور للمقعد، ومر في طريقه بسيدة. ورفعت إليه سيدة عينيها الكبيرتين كعيون البقر وهي تضرب السجادة بطرف القطعة المبتلة.

وقالت ليلي:

- عايزة أقول لك حاجة قبل ما تنزل يا عصام.

ولبس عصام الجاكيت وهو يقول:

- فيه إيه يا ليلي؟

وأطبقت ليلي شفتيها وأشارت بوجهها في اتجاه سيدة إشارة يفهم منها أنها لا تستطيع أن تتكلم أمامها، ووفقا ينتظران انتهاء سيدة من عملها، وزالت آثار القهوة من السجادة تمامًا وسيدة ما زالت تركع مكانها تضرب الأرض بطرف الخرقة المبتلة.

وقالت ليلي في رقة:

- مش خلاص يا سيدة.

ورفعت سيدة وجهها المنتفخ إلى ليلي وضمت شفتيها المكتنزتين ولم تقل شيئًا، واستمرت تضرب السجادة بطرف القطعة المبتلة.

وضايقته الحركة المتكررة عصام وصاح في حدة:

- يلاً، خلصينا!

ورفعت إليه سيدة عينيها السوداوين الكبيرتين الجريئتين وهي ما زالت في جلستها، وقامت في تكاسل وهي تقول:

- يوه يا سي عصام، يعني أسيب السجادة وسخة ولأ إيه؟

وتنفست ليلي في ارتياح وسيدة تكاد تخرج من الباب، ولكنها عادت بقامتها المديدة المليئة إلى داخل الحجرة وأخذت القدح في بطء من على المكتب وخرجت من الحجرة تهز ردفها في تناقل، وعلى فمها نصف ابتسامة عائمة لا توجهها إلى أحد وكأنها تبتسم من شيء خطر ببالها.. شيء سري وخاص وهام، شيء يعطيها الشعور بالأهمية.

وقالت ليلي:

- عصام.

واقترب منها عصام في خطوات سريعة وأمسك بيدها وانحنى يُقبلها في رقة متناهية قبلات قصيرة سريعة لا تكاد تمسها وكأنه يرضيها وكأنه يصلحها بعد أن أساء إليها.

وقالت ليلي:

- عصام، عشان خاطري خليك لطيف مع محمود، لطيف خالص.

وأشاحت بنظرها بعيدًا وهي تقول:

- محمود متغير.. متغير خالص يا عصام!

وقال عصام:

- أنا عارف هو حسّاس، حسّاس زيادة عن اللزوم.

ووضعت ليلي يدها على كتفه:

- تمام يا عصام

- فاكدة قد إيه كان متألم أيام مظاهرة ٤٦؟ لكن إنت كنت صغيرة خالص يا حبيبتي.

وقالت ليلي في صوت هامس وهي تستعيد في ذاكرتها تلك الأيام:

- برضه فاكدة يا عصام.. فاكدة كل حاجة زي ما تكون حصلت النهارده.

وأمسكت بيده ومشيا معًا في اتجاه الباب الخارجي وقالت:

- بلاش أنزل وياك أحسن.. حادخل أنا لجميلة، أنا مش عايزة محمود يفهم إني أنا إللي خليتك تنزل له.

وشدت ليلي على يد عصام وهي تبتسم وانحرفت إلى غرفة جميلة، وفتحت الباب.

كانت جميلة تولي ظهرها للباب وهي في ثوب أبيض.

ووقفت ليلي لحظة مبهوتة، خيل إليها أن الثوب هو ثوبها الأبيض الجميل، نفس القماش من ((الشفيفون)) الأبيض، ونفس الطيات المتركمة كجناحي طائر أبيض.. ثم استقامت جميلة واستدارت وواجهتها.

وهزت ليلي رأسها متعجبة من سخف الفكرة التي خطرت لها.. كان ثوب جميلة يختلف تمام الاختلاف عن ثوبها، فـ((الشفيفون)) الأبيض من الخلف ليس بظهر الثوب كما ظنت، إنه مجرد

وشاح فضفاض يحيط بالثوب الأصلي من الخلف والثوب الأصلي من الستان الأبيض المطرز باللؤلؤ الصناعي وبالترتر وبالخرز.

وقالت جميلة في انتصار:

- إيه رأيك؟

- جنان! حاجة حلوة خالص! ولا الأميرات!

ولكن كان في نفسها بعض الضيق وكأن جميلة قد أخذت منها شيئاً يخصها هي.. ثوبها الأبيض الجميل.

وقالت جميلة وهي تتقدم نحو المرأة:

- ولسه كمان.. لسه كاسمه مش باين خالص، السوستة مفتوحة.

وجلست ليلي على المقعد المواجه للمرأة وقالت:

- البت سيدة بتاعتك دي رذلة أوي، أنا عايزة أكلّم عصام على محمود، وهي واقفة ملطوعة، نقول لها اخرجي ما تخرجش!

وقالت جميلة وهي تمد يدها تقفل السوستة:

- أصلها واخدة على عصام، صاحبتة يا ستي!

وانقفلت السوستة في صوت عنيف قاطع.

وقالت ليلي:

- صاحبتة؟! صاحبتة إزاي؟!

ونظرت جميلة إلى ليلي نظرة جانبية، ومدت يدها تسوي فتحة الصدر ثم شدت قامتها في استعلاء وقالت:

- هو إنت كده يا ليلي ما تفهميش حاجة أبدًا؟ كل شاب في السن دي، ومش متجوز ضروري يعمل كده، وإلا ما يبقاش راجل!

ومدت جميلة يديها وجمعت شعرها من أسفل وكومته إلى أعلى.. ومالت بوجهها إلى جانب تدرس أثر ذلك في صورتها العامة، ثم استدارت ليلي وهي تقول:

- إيه رأيك في التسريحة دي يا ليلي؟

وعندما رأت وجه ليلي الذاهل وفمها المفتوح في بلاهة انفجرت ضاحكة:

- عارفة يا ليلي؟ عارفة إنت بتفكريني بابه؟ بتفكريني بنفس ليلة ما شفتهم في المطبخ.. ليلة الخطوبة.. قمت بالليل بمغص فظيع، رحّحت المطبخ أعمل قربة سخنة ونورت النور وطفيته على طول.. وبلمت زيك كده. وفضلت مبلمة يومين، لغاية ماما ما فهمتني كل حاجة.

وجلست جميلة إلى جانب ليلي وغزا عينيها تعبير حزين ثم مسحت وجهها بيدها وقامت واقفة.
وقالت جميلة:

- على فين؟

وبلا تعبير قالت ليلي:

- نازلة.

وقامت جميلة واقفة وقالت في استنكار:

- إخص عليك يا ليلي! يظهر الفستان مش عاجبك! ليه يا ليلي؟

دا جميل خالص، دا الجونلة لوحدها أخذت سبع أمتار.. شوفي.

وسارت جميلة إلى وسط الحجرة ورمت برأسها إلى الخلف في كبرياء، وثبتت كعب الحذاء في الأرض، ودارت حول نفسها دورات متواصلة متعددة والثوب يتطاير حولها في دائرة تتسع أكثر وأكثر.

ودارت الحجرة أمام عيني ليلي وخيل إليها أن السقف قد حل محل الأرض وأن الحوائط تتمايل بعضها على بعض.

وتوقفت جميلة وقالت وأنفاسها متقطعة:

- إيه رأيك؟ بشرفك عمرك شفتي فستان زي ده؟! ولا حتى في السينما؟

وتمتت ليلي دون أن تنظر إلى الثوب:

- عريان! عريان!

- الصدر يعني؟

- كله.. كله عريان!

ومدت جميلة يدها إلى ((بوليرو)) مكمل للفستان ولبسته، واستدارت وهي تبتسم ابتسامة خفيفة:

- كده يعجبك يا ستي الشريحة؟

وهزت ليلي رأسها في يأس وقالت وهي تكاد تهمس:

- مفيش فايده، عريان من جوّه، عريان يا جميلة، عريان!

ونظرت جميلة إلى ليلي في دهشة لحظة ثم صرخت.. كان وجه ليلي شاحبًا، وكانت شفتاها مرتجفتين وعيناها تائهتين بعيدًا وكأنها غائبة عن الوعي، ويدها لا تكفان عن الحركة، تضمان دون جدوى فتحة الصدر في ثوبها، ثم تنزلان إلى طرف الثوب تشدانه، وكأنها تريد أن تصل به إلى أطراف أصابعها، ثم ترتفع اليدان إلى فتحة الصدر من جديد.

- مالك يا ليلي؟

وهزت ليلي رأسها وكأنها تقيق من حلم، وانهارت جالسة في المقعد المجاور.

- مالك يا ليلي؟ فيه إيه؟ طمني!

- مفيش

- أنا حانادي ماما.

وقالت ليلي بصوت هامس:

- لأ ما تتاديش حد، أصل.. أصل عندي مغص!

- أعملك شاي؟

وهزت ليلي رأسها علامة على الموافقة.

وخرجت جميلة، وسمعتها ليلي تأمر سيدة الخادمة بإعداد الشاي ثم تتجه إلى حجرة أمها.

وهبت ليلي واقفة، وبدت النظرة التائهة في عينيها من جديد، ومشيت في احتراس شديد على أطراف أصابعها حتى باب الغرفة، وأرهفت السمع ثم تقدمت وعبرت الصالة وفتحت الباب الخارجي، وخرجت ووضع يدها على سور السلم وهمت بالنزول ولكنها وقفت متسمة.. كان أزيز المصعد يطن في أذنيها وفي رأسها وكأن جسمها بأكمله يردده، ومر بها المصعد وهو ينزل من أعلى إلى أسفل، ثم رأت حباله تتجذب إلى أسفل تدريجيًا.. ومالت برأسها على السور، وتعلقت عيناها بالحبال وهي تتجذب إلى أسفل، وتدلّت بنصفها الأعلى في الفراغ الذي تركه المصعد والحبال تجذبها إلى أسفل، وركزت يديها ورفعت جزءًا آخر من جسمها في الفراغ حتى أصبح جسمها أفقيًا على السور والحبال تجذبها إلى أسفل.. وإلى أسفل.. وارتخت قبضتها والحبال تجذبها إلى أسفل.

وصرخت جميلة:

- ليلي!

وامتدت يد تمسك بظهرها وتشدها إلى أسفل، والتفتت ليلي ووجدت نفسها على السلم وجهًا لوجه أمام جميلة.

- ليلي! بتعملي إيه؟ إنت مجنونة؟

ووقفت ليلي مكانها والنظرة التائهة في عينيها، ثم اجتاحت جسمها خوف بارد كالثلج وأدركت فجأة أنها نجت بالكاد من الموت، وقالت في صوت مختنق:

- جميلة.. انزلي معايا.

وبدأت ليلي تنزل السلم ولحقت بها جميلة، واستمرت ليلي تنزل إلى أسفل، وتجاوزت باب شقتهم دون أن تدري، ونبهتها جميلة فاستدارت وصعدت بخطوات متثاقلة.. حجرتها؟ ولا حجرتها.. إنها تريد أن تنزل إلى أسفل.. إلى أسفل حيث لا تشعر ولا تفكر.

* * *

ودخلت ليلي البيت، ولمحت حجرة الجلوس مفتوحة، وسرت رجفة إلى جسمها.. عصام.. عصام مع محمود، وجرت إلى غرفتها وكأن إنساناً يطاردها، وعند باب الحجرة وقفت مسمرة، كان محمود يناديها بالحاح وجميلة تشدها.. وسحبته جميلة إلى حجرة الاستقبال وكأنها مسلوكة الإرادة.

كان محمود يجلس في أول مقعد على اليمين بالقرب من الباب، وتوقفت ليلي تجاهه وكأنها لا ترى في الغرفة سواه، ونهض عصام من مكانه وسار في اتجاه جميلة، وقال وهو يشير إلى ثوبها مستنكراً:

- إيه ده إللي انت لابساه؟

وقال محمود لليلي:

- البلد بتتحرق.

وقالت ليلي دون أن يبدو على وجهها أي تغيير وكأنها تقرر حقيقة ثابتة:

- أيوه بتتحرق.. بتتحرق.

ولكن كان هناك وجه ينظر في وجهها ويبتسم ابتسامة واسعة.. ابتسامة كاملة.. ابتسامة بلا حدود، وجه غريب، وجه لغريب.

وصرخت ليلي وكأنها أدركت إذ ذاك فقط ما يعنيه محمود، وكأنها عادت لوعيتها إذ ذاك فقط:

- بتتحرق؟! بتتحرق إزاي؟

ورأى محمود ابتسامة حسين وهو يقف منتظراً وقال:

- أختي ليلي و...

ونظر إلى جميلة في دهشة وهي في ثوبها الأبيض ثم أكمل كلامه:

- وبنت خالتي جميلة.

وبقيت يد حسين معلقة في الهواء لحظة، ثم تلقفتها يد جميلة. وهمست جميلة في أذن عصام بشيء عاد على أثره واجماً إلى الأريكة التي تواجه محمود وتبعته جميلة.

ولم ترخ ليلي عينيها عن محمود، وتمتمت وشفثاها ترتجفان:

- إزاي يا محمود؟ إزاي...

وبدا وجه محمود جامدًا وهو ينظر بعيدًا، وينتزع صوته انتزاعًا وكأنه يجد صعوبة في الكلام:

- الناس، الناس حرقوا السينمات وشارع فؤاد، والبلد كلها نار ودخان!

وقالت ليلي بصوت بالك:

- الناس يحرقوا البلد؟! ليه؟ ليه نحرق بلدنا؟

ولم يجب محمود، كز على شفته السفلى وأغلق عينيه وتركها غريبة وحيدة، وتلفتت ليلي تنتظر حولها، كانت جميلة تجلس على طرف الأريكة في احتراس حتى لا يتكسر ثوبها، وكان عصام منكمشًا في الطرف الثاني من الأريكة، وتوقفت عيناها عند حسين، وابتنس حسين في وجهها ابتسامته الواسعة:

- الواقع إن الناس مظلومين، الناس خرجت عشان تحتج على المذبحة بتاعة الإسماعيلية، والسراي والعناصر الرجعية انتهزوا الفرصة عشان يطعنوا الحركة الوطنية.

وأخرج محمود سيجارة بيد مرتعشة وقال:

- الخيانة ما ابتدئش النهارده بس.. الخيانة ابتدئت من أول يوم، وآدي النهاية، الحريق دا هو النهاية، نهاية معركة القنال.

وانهارت ليلي على مقعد مقابل للمرأة الكبيرة التي تزين حجرة الجلوس، وغامت عيناها بالدموع. وعلى صفحة المرأة تكسرت أشعة الشمس الغاربة تاركة شعلة من الاحمرار، وركزت ليلي عينيها على المرأة ونار.. السنة من النار تندلع في المرأة أمام عينيها الغائمتين وتربط بينها وبين المرأة وكأنها مشدودة إليها بقوة سحرية.. وأصوات تطن في أذنيها، تطن كمواقد الغاز.

وقال حسين:

- البلد إللي فيها أبطال زي العساكر بتوع الإسماعيلية مش ممكن تكون دي نهايتها.. كانوا معزولين، وكانوا عارفين إن البلد تخلت عنهم، وكانوا يقدرُوا يسلمُوا.. يرفعُوا منديل أبيض أو قميص.. ومع كده ما سلموش، ماتوا على رجليهم.

ومسح محمود وجهه بيده وقال:

- وإيه الفائدة؟ إيه الفائدة؟ دم وراح هدر!

ومدت ليلي يدها تشد ياقة ثوبها بعيدًا عن عنقها وعيناها مشدودتان إلى المرأة.. دم ونار وهي تتطوح بين الدم والنار، تتخط وتسعى إلى الخلاص، والدم يحيطها من كل جانب والنار.. وجميلة هادئة كالتمثال بثوبها الأبيض.. وكلمة الخيانة تطن في أذنيها، ونار تطوق البلد وتخفقها.. تخفقها.

وانتفضت ليلي واقفة، واندفعت تجري من الحجرة.. ومن البيت إلى السلم.. إلى أعلى.. إلى النار.. يجب أن ترى النار.. النار التي تطوق البلد، التي تخفق البلد، يجب أن ترى النار.

وقامت جميلة واقفة بدورها وهي تصرخ صرخات هستيرية وتقول:

- السلم.. السلم.. السلم.

وتطلب الأمر بعض الوقت حتى تتمالك جميلة نفسها وتخبرهم بالخطورة التي تتهدد ليلي،
واندفع محمود يجري على السلم وتبعه عصام وخلفهما جميلة.

ووقف حسين على العتبة ثم لمح المصعد صاعداً فأوقفه ودخل وأوصد خلفه الباب.

وظلت ليلي تقفز السلم وقد دبّت فيها قوة عجيبة، قوة تدفع بها وتشدها إلى النار، ولم ترَ حسين وهي تدخل السطح، اندفعت تجري حتى انهارت إلى جانب السور.. كانت النار قد بدأت تخبو ولم تعد تظهر إلا في جهات متفرقة ضعيفة مائلة إلى البهتان والزوال، ولكن الدخان كان يجثم في كتل ضخمة، كتل بشعة كريهة على السماء، وعلى الأرض، وعلى الصدر تكاد تسحقه.

ولمس حسين ذراع ليلي في رقة، وانتفضت تنتظر إليه في خوف.

كان يقف إلى جانبها يعطي ظهره إلى السور ويستند بيديه عليه.

وابتسم في وجهها ابتسامته الكاملة الواسعة، ولانت ملامحها وعادت تنتظر إلى كتل الدخان.

وقال حسين في صوت رقيق:

- مالك؟

ورفعت إليه ليلي عينين ميتين، وعادت تنتظر من جديد إلى الدخان الأسود الكثيف.

وقال حسين بصوت أرق:

- مالك يا ليلي؟

وتنهدت ليلي وقالت وهي تنتظر إلى كتل الدخان البشعة الكريهة:

- ليه كل حاجة كويسة تنتهي نهاية وحشة؟!

وجلس حسين على السور، وقال وقد أحنى رأسه تجاهها:

- دي مش النهاية.. النهاية إحنا إللي نعملها، أنا وإنك ومحمود وكل الناس إللي بيحبوا مصر.

وضحكت ليلي ضحكة قصيرة حادة أشبه بالصرخة، وأشارت إلى صدرها وقالت:

- أنا؟

وانقلب وجهها واصطبغ بالكراهية والاحتقار، وكأنها تتحدث عن عدو لدود، وقامت واقفة وسارت في تناقل في اتجاه باب السطح، ولحق بها حسين ومد يده يلمس كتفها، وقال وصوته

يرتجف بالانفعال:

- دي مش النهاية، ما تصدقيش محمود، صدقيني أنا.

وأدارها نحوه، ورفع إليها وجهه مليئاً بالرجاء وبالحنان وهو يقول:

- صدقيني أنا.

وكان كيانه بأكمله يتوقف على تصديقها له.

والثقت عيونهما لحظة، وفي عينيه رأت نظرة واثقة، نظرة مباشرة صريحة طيبة نفاذة، نظرة تعدها بغد أجمل، ولانت ملامحها، ثم مالت برأسها تتسمع إلى خطى وأصوات تقترب من السطح، وتبينت صوت عصام يناديها، ونظرت إلى حسين لحظة ثم قالت بصوت ميت:

- أنا ما باصدقش حد!

واستدارت من جديد تسير في اتجاه باب السطح، وتوقفت متسمة في مكانها عندما اندفع من الباب عصام يتبعه محمود وجميلة.

وجرى عصام إليها وامتدت يدها تتحسسانها، وتنتقلان في سرعة وفي يأس وفي جنون من وجهها إلى كتفيها وهو لا يكف عن الهمس باسمها. وشعرت ليلى أن شيئاً ما قد مات فيها، ومدت يديها في هدوء وأزاحت يدي عصام عنها، وتركت خلفها، وسارت في اتجاه محمود الذي وقف متسماً متعجباً من سلوك عصام، وتوقفت أمامه وقالت في صوت ميت:

- يلّا بينا.

وتقدمت إلى الباب في خطوات متناقلة، ومرت بجميلة وهي تقف مولية ظهرها إلى السماء، مسمرة كالتمثال في ثوبها الأبيض، وكتل الدخان الكثيفة الكريهة تحيط بها كالإطار.

وفي مساء ذلك اليوم اعتقل محمود فيمن اعتقل من الفدائيين، وبقي في المعتقل ستة شهور.

وطيلة الستة الشهور كان أبو ليلى يردد نفس الكلمات، كلمات لا تتغير: ((أنا كنت عارف، كنت عارف إن دي النهاية)).

وتركز كيان ليلى في هذه الفترة في محاولة لإخفاء ما يعتمل في نفسها عن الآخرين، واستمرت تتكلم وتضحك وتتصرف كما اعتادت أن تتصرف، وتعود إلى حجرتها آخر النهار مرهقة، وكأنها ممثلة أطالت الوقوف على خشبة المسرح، وعندما تتمدد على السرير تشعر بألم في جسمها بأكمله، ألم لا تستطيع أن تحدد موضعه وكأنها قد ضربت علة.. لا ليس هذا تماماً، إن أمها تصف مثل هذا التعب الذي لا يمكن تحديد موضعه وصفاً أدق حين تقول: ((جسمي مهزوم)) نعم هو هذا،

جسمها مهزوم، وليس جسمها فقط، كل شيء فيها مهزوم، كما لو كانت قد رفعت حملًا ثقيلًا أكبر مما تتحمله طاقتها فانكسر عمودها الفقري.

ألم يكن هذا ما فعلته؟ لقد تحدثت أباهما، وتحدثت أمها، وتحدثت تقاليدهم وأصولهم وأحببت، أرادت أن تخرج على دنياهم الضيقة إلى دنيا حية عريضة مليئة، أرادت أن تبني وعصام دنيا من نور، كل ما فيها شفاف.. كل ما فيها أصيل، دنيا غير الدنيا.. دنيا الحب.. دنيا الحب، دنيا الجمال.. وماذا كانت النتيجة؟ قهوة مسكوبة على البساط، ومطبخ مظلم، وجسم مهزوم وطين، طين الدنيا التي هربت منها.

ومحمود؟ محمود هو الآخر تحداهم وخرج، انطلق محلقًا ضاحكًا مزهوًا إلى دنيا.. دنيا الحب والحق والجمال، وعاد منكسًا مطويًا مكسور الجناح والقذى ملء عينيه والطين، الطين الذي هرب منه، ونار تطوق البلد، ودخان أسود كريحه، وسجن مظلم، ودنيا أضيق من الدنيا التي انطلق منها محلقًا ضاحكًا مزهوًا.. لا.. إن الزهو ليس من نصيب أخيها ولا من نصيبها.. الزهو موقف على جميلة.

في زهو نظرت جميلة حولها وقالت:

- صحيح أودة السفرة عاجباك يا ليلي؟

ولم تنتظر جميلة الإجابة، كانت تعرف أن ليلي لم تر مثل هذه الحجرة في حياتها، وإن خالتها تنتظر حولها في تعجب كالريفية التي تزور القاهرة لأول مرة، وأن زوج خالتها يخفي بالصمت شعوره بالحر والارتباك.

ومن النافذة الزجاجية الواسعة تدفقت أشعة الشمس تشعل احمرار السجاد، وتتألق على البوفيه الماهوجني المرسوم بالماركتري، والخضرة تتبثق من الحديقة من وراء الزجاج تكسر من حدة احمرار السجاد.

وأشارت جميلة وهي تجلس على رأس المائدة إلى السفري بيدها إشارة خفيفة في بساطة وبشكل طبيعي، وكأنها تعودت أن تفعل ذلك طيلة حياتها، وتقدم السفري يدور حول المائدة وجميلة تتحدث مسترخية مبتسمة منطلقة ويدها تعبت بحلية ماسية في عنقها، وانحنى السفري إلى جانب ليلي بطبق من الكاساتا على شكل هرم مغطى بالفواكه المحفوظة، ونظر إليها عصام بعينه الرائقتين وابتسم في وجهها وقال:

- خدي حنة كمان يا ليلي، إنت طول عمرك بتحبي الجيلاتني. وجلس يأكل الكاساتا في تلذذ وقد استرخى في المقعد.. لم يعد

يشعر بالحر تجاهها، في أول الأمر عندما قطعت علاقتها به، وقبل أن يفهم السبب كان يشعر بالحر، وعندما عرف أنها عرفت زال الحر، وما الداعي إلى الحر؟ إن ضميره نقي، نظيف، شفاف.. كأكواب الكريستال التي تتألق على المائدة. لقد فعل ما اعتقد أنه الواجب عليه تجاهها، لقد

أنقذها من شيء أهون منه الموت، ولم يكن هناك طريق آخر، ولو لم يفعل ما فعل لتسبب في ضررها، وأهون عليه أن يموت من أن يضرها وهو يحبها وسيظل دائماً يحبها.

والمؤلم أنه كان يتصرف كما لو كان ما يزال يحبها حقاً! ولم تستطع هي أبداً أن تفهم كيف يتأتى له أن يحبها؟ كيف يستطيع أن يحب امرأة بروحه، وأخرى بجسده؟! والأخرى؟ ألم يخطر في باله أبداً أنها إنسانة بدورها، وأنه قد أضرها في جسدها وفي عواطفها وفي إنسانيتها؟ أبداً.. إنه مطمئن مرتاح وعلى وجهه تبدو نظرة جديدة حزينة، نظرة الشهيد، شهيد الواجب.

نعم عصام مطمئن مرتاح، وجميلة أكثر من مطمئنة، إنها مزهوة منتصرة، لقد تقبلت الحياة كما هي ببساطة، بلا تعقيد وبلا فلسفة، وسمعت كلام أمها ومشيت على الأصول، وأنعمت عليها الحياة بالرضا وبالاطمئنان.

وهي كانت في يوم من الأيام تنتظر إلى جميلة في تعالٍ، كانت تحسب نفسها أقوى من جميلة ومن خالتها ومن أبيها ومن أصولهم وتقاليدهم، وكانت تضحك من أمها حين تقول: ((إللي يعرف الأصول ما يتعبش)).

نعم، عاشت فترة من الزمن في ظل هذا الوهم السخيف، وهي في الحقيقة تافهة ومغرورة وحقيرة، ممسحة كالممسحة التي يمسح فيها الناس أقدامهم.

وفي صباح ٢٣ يوليو قامت ثورة الجيش المصري وهزت الأعماق فرحة معتدة مزهوة، ارتجفت على الشفاه والتمعت في الدموع وغصت بها الحلو، وخرج الناس من بيوتهم يضعون أيديهم في أيدي الضباط وعلى أيديهم قلوبهم.

وجلس محمد أفندي سليمان في بيته إلى جانب الراديو يستمع المرة بعد المرة إلى البيان الذي أصدرته قيادة الثورة، وقد شله الخوف من أن يحدث شيء يفسد الثورة ويحول دون خروج محمود من المعتقل، لم يصدق أذنيه في بادئ الأمر، لم يصدق أن رجالاً مثله، مصريين مثله، استطاعوا أن يتحدوا كل السلطات وأن يقلبوا الحكومة، وحينما أدرك أن الأمر حقيقة حرفته موجة من الاعتزاز بنفسه وبمصريته.

ثم ارتجف في جسده خوف ممض، تزايد حين سمع عن اتجاه الثورة إلى خلع الملك.. الأرض تدور، لم تتوقف يوماً عن الدوران، والملك يحكم، والمصريون يخضعون، فكيف يتأتى لهؤلاء الرجال أن يغيروا الأوضاع؟

واستمع محمد أفندي سليمان إلى خبر طرد الملك من مصر وهو يجلس إلى جانب الراديو، وتحجرت الدموع في عينيه في رهبة واعتزاز وهو يرى الصنم الأول يتحطم أمام عينيه.

وفي نفس اللحظة لم تكن ليلي في البيت، كانت تمشي في شارع القصر العيني ولمحت عاملاً يرتدي بذلته الزرقاء، يركب دراجة ويتقدم في اتجاهها من بعيد وهو يلوح بيديه، ويلتفت يمناً ويسرة يقول للناس شيئاً والناس تتجمع في كتل صغيرة تتحدث، والعامل يتقدم ويترك خلفه كتلاً تتجمع، وعندما أصبح العامل على مبعده أمتار من ليلي توقف ونظر إليها ووجهه الأسمر يضحك وقال وهو يلوح بيده:

- الملك خرج!

ثم استدار يبلغ الخبر لصبي حافٍ يجري في اتجاهه، وسرت الرجفة في جسم ليلي، واندفعت تجري في اتجاه العامل، وخرج الناس من حوانيتهم.. وتجمعوا حوله يستوضحونه، والعامل يكرر ووجهه يضحك:

- الملك خرج!

ومدت ليلي يدها إليه، وشد العامل على يدها في بساطة وقوة وقال:

- مبروك.

- مبروك.. مبروك.. مبروك.

وأخذ الناس يرددون كلمة ((مبروك)) وكأنهم لا يستطيعون النطق بغيرها، ثم زالت الفواصل التي تفصل بينهم، وأخذوا يربتون على أكتاف بعضهم البعض وهم يضحكون ويتندرون، ووقفت ليلي لحظة بينهم وهي تشعر أنها منهم وأنهم منها، وأنهم جميعًا ساهموا بطريقة ما في طرد الملك، وغزاها شعور بالارتياح وبالانتماء وبالاعتداد، وودت لو طالت وقفتها بين الناس ولكن وقفتها لم تطل، اعتدل العامل في جلسته على الدراجة إيمانًا بالتقدم، وأراد الناس أن يستوقفوه ولكنه لم يتوقف، تقدم وهو يلوح بيديه ويضحك، يتصل بمزيد من الناس ويخبر مزيدًا من الناس أن الملك قد طُرد، ويتقدم، يتصل ويتصل، وكأن هذا الاتصال يشبع في نفسه رغبة جامحة.. رغبة في أن يتصل بأكبر عدد من الناس في هذه اللحظة بالذات.

* * *

اهتزت أبواب سجن الأجانب حيث اعتُقل جانب من الفدائيين تحت الطرقات القوية، وكأنها طريقة رجل واحد، والطرق يختلط بالهتاف:

تحيا مصر

تحيا الثورة

يسقط الاستعمار

وكان من الممكن أن يكسر الشبان الأبواب في هذه اللحظة، ولكن لم يكن هناك ما يدعو لذلك، كانوا يدركون أن أبواب السجن في حكم المفتوحة، وأنهم في حكم الأحرار، وأن المسألة مسألة أيام.

ولكن لم يطق الشبان أن تفصلهم الأبواب في هذه اللحظة، في هذه اللحظة بالذات التي انتظروها عمرهم، وعاشوا لها عمرهم، أرادوا أن يتصلوا ببعضهم البعض، وأن يتحسسوا بعضهم البعض، واهتز السجن بالطرق والهتاف.

ولم يكن الوقت وقت طابور، ولكن مأمور السجن أصدر أمره بفتح الأبواب، وتعانق المساجين والسجانون، واختلطت الضحكات بالدموع، وتمنطق معتقل بحزام سجان ورقص، والنقت حوله مجموعة تصفق على الوحدة، وتفرق المعتقلون في مجموعات تتحدث وتضحك، ثم ارتفع صوت يغني:

بلادي بلادي

فداك دمي

وهبت حياتي

فدا فاسلمي

وساد الصمت لحظة، ثم انضمت إلى الصوت أصوات، وإلى الأصوات أصوات، واعتدل الشبان في وقفاتهم، واتسعت الحلقة حتى استوعبت الجميع، واتصلت الأصوات كأنها صوت رجل واحد.. صوت قوي مزغرد يصل بين الناس في طول مصر وعرضها.

وقال حسين لمحمود وهما يتمشيان في الحديقة الخلفية لسجن الأجانب:

- أنا مش قلت لك؟ عشان تبقى تصدقني.

وابتسم محمود وهو يهز رأسه في تعجب:

- لكن مين كان يتصور؟! مين كان يتصور إن الأمور حنتطور بالشكل ده؟ وبالسريعة دي؟

واقترب الصديقان من أريكة خشبية، وانهار محمود جالسًا وهو يتمطى، وشعر إذ ذاك براحة عميقة تدب إلى جسمه، وكأن مسؤولية ضخمة قد انزاحت فجأة من على كتفيه، وكأنه قد أسلمها لغيره ونفض يده منها وأن له أن يتمطى في ارتياح.

وقال حسين:

- بتفكر في إيه يا محمود؟

ومد محمود يداً متراخية تحك ذقنه الطويلة وقال:

- في حلقة كويسة وحمّام سُخن وفرش نضيف.

وضحك حسين ضحكة قصيرة

- يا بختك يا عم، حتلاقي بيت متوضب مستتيك، وأمك وأختك..

على فكرة أختك لطيفة جدًّا.

ونظر إليه محمود وقال:

- إنت ما بنتجوزش ليه يا حسين، بدل ما أنت عايش وحدك كده؟

واستغرق حسين في الضحك، ثم رفع رأسه وقال:

- أنا مفلس يا أستاذ.

- سنتين مهندس في شركة محترمة ومفلس! مش معقول.. كنت بتاخذ كام؟

- ٥٣ جنيه.

- وما حوشتش حاجة؟ ض

- حوشت.

- وبعدين؟

وابتسم حسين وهو يهز كتفه:

- جوزت أختي وخلصت منها.

ومال محمود على حسين ووضع يده على فخذه وقال:

- لكن إنت مين زيك يا عم! مش يمكن تاخذ البعثة إللي أختك قدمت لك فيها؟

وقال حسين:

- أنا مش عايز أسافر دلوقت.

واعتلل محمود في جلسته وقال:

- وبعدين معاك يا حسين، البعثة الأولانية اعتذرت عنها وكان اعتذارك مفهوم، كان فيه ظروف، وما كانش الواحد يقدر يسبب البلد في الظروف دي، ودلوقت الحالة مفيش أحسن من كده، يبقى إيه؟

- شهر ولأ شهرين بس لما الحالة تستقر، مش يمكن يحتاجوا لنا؟

- همّ مين؟

- الثورة.

وقال محمود في سخرية:

- ليه؟ حيعينوك وزير أشغال ولأ إيه؟

وبدأ حسين يضحك، ثم توقف قبل أن يكمل ضحكته، ومال في اتجاه محمود وقال في صوت جاد:

- إحنا ضروري نكون صاحيين يا محمود، الإنجليز مش حيسكتوا! مش ممكن حيشوفوا البلد بتقلت من أيدهم بالشكل ده ويسكتوا!

وقال محمود في استرخاء وهو يحك ذقنه الطويلة بيده:

- على العموم يا عم إحنا مسؤوليتنا انتهت لغاية هنا، الجيش النهارده هوّ إللي مسؤول.

وسكت حسين قليلاً وهو ينظر إلى الأفق، ثم قال في صوت خافت وكأنه يفكر:

- كلنا مسؤولين، طول الواحد ما هو عايش، مسؤوليته تجاه بلده ما بتنتهيش.

وقام محمود واقفاً وهو يقول في غضب:

- طيب خليك راقد بقه، إللي زيك ما يستحقش السفر.

واحمر وجه حسين للإهانة المفاجئة، وأوشك أن يقول كلاماً لاذعاً لمحمود، ولكنه كز على شفته ولم يتكلم، كان يحب محمود، وكان يدرك مدى التغير الذي طرأ عليه في فترة الاعتقال، لقد رسم محمود صورة وردية للحياة وحين واجهته بوجهها العاري انهار، واجه الموت بشجاعة ولم يستطع أن يواجه الخيانة، رأى الخيانة في القناة وفي حريق القاهرة وفي حركة الاعتقالات، وانكمش، أخافته الدنيا.

واستدار محمود وقال:

- أنا أسف يا حسين!

وتطلع حسين في وجه محمود الذي شابه النحول، وفي عينيه اللتين احتلتهما نظرة حيرى، نظرة طفل خدع خديعة كبيرة، وابتسم ونهض واقفاً وأحاطه بذراعه وهما يسيران في اتجاه البهو الداخلي.

وأراد حسين أن يقول شيئاً يسري به عن محمود، لقد أدرك أنه قد طعنه في الموضع الحساس في وقت غير مناسب، لقد ذكره بالمسؤولية في وقت ظن فيه أنه تخلص نهائياً من المسؤولية.

فقد جاءت الثورة كنجدة من السماء لمحمود، نجدة رفعت عن كاهله مسؤولية مواجهة الحياة بقسوتها وواقعيتها، نجدة جعلته يؤمن أنه يستطيع أخيراً أن يقف على الشاطئ يتفرج، بلا أدنى شعور بالتقصير.

وقال حسين وهو يميل على محمود ويبتسم:

- أنا وش نكد، مش كده؟

وخلص محمود نفسه من ذراع حسين وانفجر ضاحكاً، وقبل أن يكمل ضحكته أمسك حسين بذراعه وقال:

- محمود، فيه حاجة عايز أكلّمك فيها، حاجة خاصة بي.

وتوقف محمود عن الضحك ورفع عينيه إلى حسين وقد لمع فيهما الاهتمام:

- فيه إيه يا حسين؟

وتردد حسين لحظة، ثم اختفت الابتسامة من وجهه وسقطت يده عن ذراع محمود وتقدم إلى الأمام.

وقال محمود:

- فيه إيه يا حسين؟ ما تتكلم يا أخي!

وقال حسين دون أن ينظر إليه:

- بعدين يا محمود.. بعدين.

وانخفض صوته وهو يقول:

- دي مشكلتي أنا، وأنا إللي ضروري أحلها.

تقلب حسين على الحشية المصنوعة من القش ثم استلقى على ظهره وهو يفكر، لماذا استعمل كلمة ((مشكلة))؟ لماذا لم يستعمل مثلاً كلمة ((موضوع))، أو ((مسألة)) بدلاً من ((مشكلة))؟ ولكن أليس الحب من طرف واحد مشكلة؟ وأنت لا تعرف حتى إذا كانت البنت التي تحبها مرتبطة بشخص آخر أو غير مرتبطة؟ لا، ليست مرتبطة، كانت مرتبطة فعلاً، ولكن انتهى كل شيء. كان هذا واضحاً جداً من الطريقة التي أبعدت بها يدي عصام عن جسدها وكأنهما تحتويان على قدر من القذارة لا تحتمله بحال من الأحوال، لا.. لا يمكن أن يكون هذا خصاماً عادياً.. إنها نهاية علاقتهما، النهاية التي يستحقها ذلك الوغد.

وابتسم حسين ابتسامة خفيفة في الظلام.. بأي حق يشتم إنساناً لا يعرف إلا شكله، ولا يعرف عنه إلا القليل؟ أليس هذا جنوناً؟ ولكن أليس الموضوع كله جنوناً في جنون؟ ماذا يعرف عن البنت التي ملأت كل دقيقة من حياته في هذا السجن؟ البنت التي نام على صورتها وأصبح على صورتها، والتي ملأت قلبه بالإشراق وبحب الحياة؟ لا شيء.. لا شيء على الإطلاق، ومع ذلك يخيل إليه دائماً أنه عرفها طوال حياته، وأنه لن يعرفها أبداً أكثر مما يعرفها اليوم، وأنه يستطيع أن يتم الجملة التي تبدأها، وأن يسبقها في الاتجاه الذي ترغب في الالتفات إليه، وهو لم يرها أكثر من نصف ساعة! أهو السجن؟ أهو الوحدة التي خلقت من هذه المقابلة العابرة أسطورة استوعبت كل كيانه، أسطورة تتلاشى عندما يقع عليها ضوء النهار، عندما يخرج من السجن؟ لا أبداً لن يحدث هذا، لقد أدرك مدى ارتباطه بها حتى قبل أن يدخل السجن، في نفس اللحظة التي رآها فيها. إن ما حدث لا يمكن أن يصدقه أحد، لا يمكن أن يخضع لمنطق ولا تفسير علمي. ولكنه حدث، وحدث له هو الذي لا يقتنع إلا بكل ما هو علمي وكل ما هو منطقي.. عندما اندفعت تجاهه في المصعد كاد يصرخ، ووقفت تعتذر وفي عقله تكونت جملة.. جملة واحدة: ((إنت كنت فين من زمان؟ أنا طول عمري باستناك)). ولسانه يقول كلاماً فارغاً لا صلة له بما كان يعتمل في نفسه في تلك اللحظة.. وتركها وخرج، وعندما أقفلت الباب الحديدي بينها وبينه أدرك أنه لا يستطيع أن يتركها تذهب، إنها نصيبه وهو لا يستطيع أن يتخلى عن نصيبه، وعندما اكتشف أنها أخت محمود عرف أنه سيرها كثيراً، ومع ذلك عندما ارتفع المصعد شعر أن جزءاً منه يرتفع معها، وعندما التقت عيناه بعينيها وضحكا معاً خيل إليه أنها الأخرى قد أدركت أنه نصيبها ولكنه كان مخطئاً، كانت هي في وادٍ وهو في وادٍ آخر.

ومد حسين ظهر يده يمسح حبات من العرق تجمعت على جبينه..

ماذا حدث لها في هذه المدة القصيرة؟ ما الذي جعلها تكره الحياة وتهم بالانتحار ثم تستسلم وتستدير لتواجه الناس بجسم جامد وبوجه جامد نصبت منه الحياة؟! وحتى في هذه المدة القصيرة لم يكن عصام معها، لم يكذب يجلس هو مع محمود حتى ظهر عصام، بعد عشر دقائق، بعد ربع ساعة على أكثر تقدير، وجلس هادئاً مطمئناً.. لا.. لا يمكن أن يكون قد حدث بينهما شيء. حقاً إن عصام من النوع المتحجر من الناس، النوع الذي يتكلم بحساب ويحس بحساب وينفعل بحساب ويتألم بحساب. نسخة مكررة من آلاف النسخ التي يراها الإنسان، لقد أدرك هو ذلك بمجرد أن رآه، ومع ذلك فهو إنسان، ولا يمكن أن يكون قد حدث بينه وبين ليلي شيء حطمها هذا التحطيم، وتركه هو هادئاً هذا الهدوء، لا، لا بد أن الأمر كما تصوره، لا بد أن ليلي سمعت شيئاً عن عصام، ربما من جميلة، شيئاً جعل الدنيا تتهاجر أمام عينيها.

وتقلب حسين في سريره، ثم ثنى الوسادة حتى غطت وجهه، كيف عرف؟ كيف استطاع أن يحدد الموقف بهذه الدقة وبهذه السرعة؟ لقد فهم بمجرد أن رأى وجهها المذهول حين دخلت الحجرة، فهم حتى قبل أن يراها على السطح تبعد يدي عصام عن جسمها في تقزز، فهم الموقف تماماً وكأنها أسرت إليه بالتفاصيل، وكأنها أخبرته بأنها كانت تحب عصام، وأن عصام فعل شيئاً مريعاً أسقطه من حبها ومن احترامها، فهم كل ذلك بسرعة وبدقة، وهي لم تنتظر إليه، بل لم تشعر حتى بوجوده، وتركت يده الممتدة إليها معلقة في الهواء.

يا رب كيف استطاع أن يفهم الموقف وهم في الحجرة وليلي لم تلتفت حتى لعصام؟! استنتج؟! لو كانت هناك مقدمات لكان من المعقول أن يستنتج ولكن لم تكن هناك مقدمات، ومع ذلك فهم وكأن الحجاب قد زال بينه وبين هذه الفتاة، وكأنه استطاع أن يقرأ أفكارها، وهي حتى لم تلتفت إليه، لم تشعر بوجوده! لا.. لا يمكن.. لا بد أنها قد شعرت به.. لا يمكن أن يشعر هو بها هذا الشعور الذي يحطم كل منطق وحد، ويتغلغل من الجسد إلى الروح دون أن تبادل له ولو جزءاً منه، ولو واحداً على ألف.

وسوى حسين الوسادة وتوسد كفيه.. عندما لوحته له من المصعد وابتسمت، خيل إليه أن التيار قد سرى منه إليها، وعندما همس في أذنها في السطح: ((صدقيني)) وأدارت إليه وجهها والنقت عيناها بعينيها.. قال لها كل ما أراد أن يقول في نظرة واحدة، وفهمت هي كل ما قال، ثم انقطع التيار، سمعت ليلي صوت عصام وهو يناديها، وعاد وجهها جامداً متحجراً وكأن الحياة قد نصبت منه.

وأغمض حسين عينيها وهو يحاول استبعاد صورة ليلي وهي تقف على السطح، إنه لا يريد أن يتذكرها كما كانت إذ ذاك، إنه يريد أن يراها كما رآها لأول مرة، وهما يقفان على عتبة السلم، وفرحة الحياة تتراقص في عينيها وفي وجهها، لقد مضى على الحادث ستة شهور، ولا بد أنها تغلبت على الصدمة، وعندما يراها...

وقفز حسين جالساً في سريره.. نعم سيرها بعد أيام على الأكثر، وستدخل عليه الحجرة والفرحة تتراقص في عينيها وفي وجهها وفي جسدها، وستلفه هذه الإشراقة العجيبة التي كادت تجعله يصرخ في المصعد.

جلس حسين في حجرة الصالون في بيت محمد أفندي سليمان ينصت إلى أم محمود، وشعور من المرارة يتجمع في صدره. كانت هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها بيت محمود بعد الإفراج عنهما وقد مضى عليه في البيت حوالي الساعة ولم تظهر ليلي، ومحمود يرتدي ملابسه استعدادًا لخروجهما معًا، ولم يعد هناك أمل في أن يراها اليوم بل ربما لن يراها أبدًا.

وتخايلت على فم أم محمود ابتسامة خجول أشرق لها وجهها الطيب، والتفت حسين فجأة إلى باب الغرفة كأنه ينتظر شيئًا ثم أشاح بوجهه بعيدًا وغامت عيناه.

ورأى صورة امرأة سمحة بيضاء ممثلة تخبز أمام فرن ووجهها يتألق في ضوء اللهب وطفلة صغيرة سمراء تتعلق بذيلها.. أمه في البيت.. في السبلاوين. وأخته سميحة في ذيلها.. ولأول مرة منذ سنين طويلة يرى حسين في وضوح صورة أمه التي فقدتها وهو في التاسعة من عمره، كانت الصورة تبدو دائمًا مهزوزة ولكنه يراها الآن في وضوح. والبيت الصغير، والباب ذو المزلاج الخشبي الكبير، وشجرة النخيل الوحيدة التي تهتز في مهب الريح، والمشلتت الساخن بلهبه من الفرن، والقشدة، والعسل الأسود، وابتسامة خجول على وجه أمه، ويد طرية تمسح على جبهته، وتسوي شعره، وقبلات خفيفة في عينيه.. قبلات سريعة خجول.

وقالت أم محمود والابتسامة الخجول تتخايل على وجهها:

- وإنت عايش لوحدك كده يا ابني؟

وتمتم حسين بشيء غير مسموع.. ونساء يلبسن السواد يزحمن البيت، وعينا أخته الطفلة واسعتان حائرتان تنتقلان من وجه إلى وجه تبحثان بلا جدوى عن وجه أمها، وهو وقد دفن نفسه في تل من الدريس على مبعدة من البيت، وصراخ النساء يصل إليه كنباح كلاب القرية في ليلة عاصفة، وأبوه بعد انصراف النساء يسحبه في قسوة غير عادية ثم ينهار باكياً عندما يصلان إلى عتبة البيت الخاوي، وامرأة غريبة أمام الفرن تقدم له المشلتت والقشدة والعسل، وإخوة جدد غرباء، وأب غريب، ورحلة طويلة بين غرباء، غرباء في المنصورة في الدراسة الثانوية، وغرباء في القاهرة في كلية الهندسة، حتى أخته سميحة أصبحت هي الأخرى غريبة، وحياتهما معًا في القاهرة بعد موت أبيهما، وكفاحهما معًا لكي يكمل دراسته، ولكي يوفر لها مصاريف الجهاز بعد أن تخرج، أصبح مجرد ذكرى. والكلمات أصبحت تتوقف على لسانيهما وهما يبحثان عن موضوع يطرقانه، موضوع يهمهما معًا، كل انفصل وسار في طريق، وأصبح غريبًا عن الآخر، ولمعة الحب في عينيهما التي كانت من نصيبه أصبحت من نصيب رجل آخر.. رجل غريب.

وهز حسين رأسه وهو ينتزع نفسه من أفكاره، ضايقه هذا الاتجاه في تفكيره، واعتقد أنه إشفاق رخيص على نفسه، لقد حرم حقًا حب الأم ولكنه وجد الحب في كل مكان ذهب إليه، وجده في

صداقات عميقة أغنت حياته، وفي لفات عابرة بينه وبين غرباء أصبحوا إثرها غير غرباء.. ربة خجلى لصبي أجعد الشعر في مدرسة المنصورة، وجملة على لسانه لم يستطع أن يكملها، ونظرة بينه وبين رجل عجوز أبيض الشعر في ترام ١٢، وبسمة في منطقة القناة بينه وبين عامل صارم الوجه وهو يمدده بالطلقات بعد أن فرغ مدفعه الرشاش من طلقاته، وبسمة خجلى على وجه هذه السيدة التي جلست أمامه، بسمة أصبحت بعدها غير غريبة عليه.. إن الغرباء لم يكونوا قط غرباء عليه، لقد عاش إلى سن الرابعة والعشرين دون أن يشعر بهذا الإشفاق الرخيص على نفسه، وهو يعرف تمامًا لماذا شابت تفكيره هذه المرارة.. أمس أمضى طول الليل يحلم باللحظة التي ستدخل فيها ليلى عليه وترفع إليه وجهها المشرق وتمد يدها وعيناها تضحكان وتقول بصوتها القوي العميق الذي يشبه صوت الناي: ((أهلاً وسهلاً)).

- يلاً بينا.

قال محمود وهو يقف على باب الغرفة في بدلة كحلية أنيقة.

وحاول حسين أن يخفي ضيقه بابتسامة وقال وهو يقف:

- دده، دا إنت رسمي أوي، ولا عريس في الزفة.

وتطلع محمود إليه بعينين قلقتين وهو يبعد ياقة القميص الأبيض عن رقبته:

- ما كانش حقي ألبسها في الحر ده، مش كده؟

كانت البدلة جديدة، فصلها محمود قبل بدء المعركة ولم يلبسها، وسافر إلى القناة وبعد القناة المعتقل، وفي المعتقل كان يتصور نفسه وهو يرتديها، حتى أصبحت مرتبطة في ذهنه بالحرية، وبحركة لا إرادية لبسها اليوم دون أن يفكر في أنها لا تناسب جو أغسطس الحار.

وربت حسين على كتفه وقال:

- ولا يهملك، على العموم الدنيا بتبرد بالليل.

ووقفت أم محمود تودع حسين، وابتسم حسين في وجهها ابتسامته الواسعة المكتملة، ومدت الأم يداً مرتبكة، وربتت على كتفه ربة خفيفة وقالت:

- مع السلامة يا ابني.

وعبر حسين الصالة وخلفه محمود، وارتفع صوت ينادي محمود من خلف باب حجرة جانبية، ثم انفتح الباب وظهرت ليلى.

واستدار حسين بسرعة ليواجه ليلى، واحمر وجهها لحظة، ثم تماكنت نفسها، وأحنت رأسها في اتجاهه انحناء قصيرة وقالت:

- محمود، فيه واحد اسمه حمدي سأل عليك الضهر وإنت نايم وبيقول حيستتاك في قهوة ((ركس)) الساعة ثمانية.

ونظر محمود إلى حسين وهو يهز رأسه في تعجب:

- شايف يا سيدي سي حمدي ومواعيده إللي من طرف واحد دي؟! ولم يجب حسين، كان ينظر إلى ليلي بوجه مذهول وكأنه

لا يعرفها، وقال محمود:

- إنت طبعا تعرف ليلي أختي يا حسين؟

ولم يجب حسين، تقدم في اتجاه ليلي بخطوات مترددة، ومد يده إليها وعيناه تنظران إلى عينيها وكأنه يبحث عن شيء، وقال وكأنه يسأل، وكأنه غير متأكد من الإجابة:

- إحنا اتقابلنا قبل كده؟

واهترت حدقتا ليلي لحظة واحدة، ثم مدت إلى حسين يدها ورفعت إليه وجهها باردًا جامدًا خاليًا من التعبير وعلى فمها ابتسامة متحفظة مصنوعة:

- أيوه اتقابلنا.

ولاحظ حسين أن نبرة الصوت قد تغيرت بدورها، لم يعد صوتها يصدر من الأعماق عميقًا منطلقًا كصوت الناي بل أصبح يصدر من طرف اللسان مكتومًا محبوسًا.

واحتفظ حسين بيدها في يده وهو لا يزال ينظر إليها، يبحث في رجاء يائس عن ذلك الشيء الذي ضاع منها، الذي مات فيها.. ذلك الشيء الجميل الذي كان يشع من كل جزء من وجهها وجسمها.

وأسقط يدها في غضب وكأنها سلبته شيئًا يملكه، وغامت عيناه.

ورأى أخته سميحة وهي طفلة في الخامسة تبكي وتقول:

- خليها تطير يا حسين، خليها تطير.

وهو في جلبابه الأبيض ينقل بصره في حيرة بين أخته وبين الفراشة الجميلة المحنطة في الكراسي، وسميحة تبكي في حرقعة:

- خليها تطير يا حسين، بتبقى حلوة لما تطير.

وهو يضم سميحة إلى صدره ويُقبلها في شعرها ويقول:

- ما تقدرش يا سميحة، ما تقدرش تطير.

ونظر حسين إلى ليلي نظرة أخيرة، ودون أن يلفظ بكلمة استدار نحو الباب الخارجي وهو يكاد يهرول.

* * *

ولكنه عاد من جديد، وافتقد من جديد في ليلى الشيء الذي جذبته إليها بادئ الأمر، وخرج وحلقه يغص بالمرارة ليعود، ولم يكن يدري لم يعود، ربما لأنه كان يذكرها دائماً وهو بعيد عنها كما رآها أول مرّة، وربما لأنه كان يؤمن أنه يستطيع بقوة حبه لها أن يعيدها كما كانت، أو لعله كان مدفوعاً إليها بذلك الشعور العجيب الذي لا يسنده منطق ولا قبس من دليل، الشعور بأنها له وأنه لها وإن طال الانتظار.

وكان عليه أن يكون حريصاً، وأن يغير أسلوبه الذي تعود عليه. كان دائماً يعرف ما يريد ويصل إليه بأقصر الطرق المباشرة. كان يكره التسلل ويحب الاقتحام. ولو كان الموقف طبيعياً لأعلن لها حبه في أول فرصة ولطلب إليها أن تتزوجه، ثم انتظر بعد ذلك أن تبادله حباً بحب. لو كان الموقف طبيعياً لما اهتم كثيراً لحقيقة أنه عاطل وأنه مفلس، ولما انتظر منها إذا أحبته أن تهتم بهذه الاعتبار، فهو مهندس وسيجد قطعاً عملاً وسيبدأ معها جنباً إلى جنب من أول السلم.

ولكن الموقف لم يكن طبيعياً، وعليه أن يخطو بمنتهى الاحتراس، أن يتسلل من خلال ذلك السياج الذي فرضته على نفسها، أن يصل إلى أعماقها.

وحاول حسين جاهداً أن يجرها إلى الحديث، أن ينتزع ضحكاتها ويثير تحمسها وغضبها. وكانت تتكلم في تحفظ، وتضحك في تحفظ، ولا تعضب ولا تتحمس وكأنها فقدت القدرة على الغضب والتحمس، وعندما تقابل نظرتها نظرتة الفاحصة اليائسة تبتسم في اعتذار، وكأنها تعتذر عن وجودها، وإذ ذاك يتسرب الشك إلى حسين، ويتساءل: هل وراء السياج أعماق؟ أم أن عصام قد نزل بليلى إلى الأرض وربطها بها، وجعلها مثله، نسخة من آلاف الناس الذين يتكلمون بحساب، ويشعرون بحساب وينفعلون بحساب؟ هل هذا السياج قناع تخفي خلفه قدرتها على الحب والانطلاق والانفعال خوفاً من أن تجرح مرّة أخرى، أم أنه المظهر الطبيعي للإنسانية متحجرة؟

وهل هذه الكراهية لنفسها التي تتبدى في تصرفاتها وأقوالها كراهية طارئة عابرة، أم كراهية وطيدة ((اليفت)) قلبها وقتلت فيه كل منابع الحب لنفسها وبالتالي للآخرين؟ وهل تمسكها بالأصول والتقاليد البالية العتيقة، إيماناً منها بهذه الأصول أو التقاليد، أم أنها تحتتمي بها وتستند إليها بعد الهزة العنيفة التي مرت بها؟ وهل هي تؤمن بالآراء التي ترددها؟ هل هي تؤمن حقاً أن الحب كلام فارغ، وأن كل الرجال سواء، وأن المهم أن يتمتع الإنسان بمركز اجتماعي محترم؟ وهل هي تعجب بجميلة وبزيجتها وتعتبرها مثلاً أعلى للزيجات؟

أخوها يقول إنها تغيرت وكذلك سناء، عندما رأت نظرتة الفاحصة اليائسة مركزة في وجه ليلى فهمت.

* * *

لمست سناء ذراع حسين حين انفردت به في الحجرة وقالت:

- ليلى ما كانتش كده، ليلى اتغيرت!

ورفع حسين إليها عينيه وقال في تساؤل:

- عصام؟

واحمر وجه سناء كما لو كان الموضوع يمسه هي شخصيًا وقالت:

- إنت عارف؟!!

وهز حسين رأسه ثم قال:

- بس مش عايز ليلي تعرف إني عارف.

وقالت سناء:

- إنت بتحبها؟

وأطرق حسين، وابتسم ابتسامة واهنة وفهمت سناء.

وأطرق حسين، وابتسم ابتسامة واهنة وفهمت سناء.

ثم رفع حسين رأسه وقال فجأة:

- إيه إللي حصل؟

وحسب أن سناء ستتردد، ولكنها لم تتردد، أخبرته في اختصار وفي كلمات كالسوط وكأنها لا تجلد بها عصام وحده بل كل الرجال، وعادت إلى مقعدها واعتدلت في جلستها وقالت في غضب:

- إنت الوحيد إللي تقدر تساعدها.

- إسمعني؟

وقالت سناء في اختصار:

- ليلي مبسوبة منك.

وأشرق وجه حسين بابتسامته الواسعة:

- مش باين!

وأطرق برهة ثم رفع رأسه وقال:

- هي قالت لك؟

وهزت سناء كتفها وضحكت في سخرية:

- طبعًا لأ.

ورفع حسين إليها عينين متسائلتين دون أن يتكلم، وقالت:

- ليلي مش ممكن تعترف - حتى بينها وبين نفسها - إنها بتميل لأي إنسان.
وقامت سناء واقفة وهي تكمل كلامها:
- ليلي اتعذبت كفاية، ومش عايزة تتعذب تاني، مش عايزة تحب. وقال حسين وصوته يختنق بعاطفته:
- ولكن الوضع مختلف، أنا باحبها.
وقالت سناء في سخرية وهي تقف تجاهه:
- وعصام كان بيحبها، ولسه لغاية دلوقت بيقول إنه بيحبها.
وسارت في اتجاه باب الغرفة، ووقف حسين وهو يقول:
- أرجوك، الموضوع مختلف.. عصام...
- عارف؟ ساعات بيتهيا لي إنكم ما بتقدروش تحبوا، إن القدرة على الحب والتضحية مش موجودة عند الرجالة.
- بلاش التعميم ده وحياة أبوك.. إنت أولًا، بتتقي فيّ أنا ولّا لأ؟!
ونظرت سناء إلى ذلك الرجل الطويل العريض الذي يقف أمامها وقد توقف إصبعه على صدره وهو ينتظر إجابتها، وكأنه طفل ينتظر من أمه أن تؤكد له أنه ولد طيب.
- وانفرج وجهها في ابتسامة واسعة:
- المهم إن ليلي هيّ اللي تثق فيك، مش أنا.
-إزاي؟ إزاي أخلي ليلي تثق فيّ؟
- لو كنت بتحبها كفاية، كنت عرفت إزاي.
- وتجهم وجه حسين وأراد أن يقول لسناء إنها غبية، وإنها لو عاشت مائة سنة لن تحب إنسانًا بمقدار ما يحب هو ليلي، ولكن سناء ابتسمت في وجهه ابتسامة رقيقة وقالت في حنان:
- ما ترهقش.. وما تيأسش.. اصبر.
- وعمل حسين بنصيحة سناء، وانتظر في صبر، وخيل إليه أن محاولاته كادت أن تنجح وأنه كاد أن يصل، كانت ليلي تضحك من نكتة قالها والنقت عيناها بعينيها وفجأة توهج اللمعان القديم في عينيها لحظة واحدة ثم أشاحت بوجهها عنه وانطفأ.
- ولكنه أدرك إذ ذاك أنه سينتظر - العمر كله لو تطلب الأمر - ليرى ذلك اللمعان يتوهج في عينيها من جديد.

ولكن الأمور خرجت من يد حسين فجأة وبسرعة مذهلة.

كان يمر على إدارة البعثات ليسأل عما حدث بشأن البعثة التي تقدم إليها، وطالعه الموظف المختص من خلف أكوام من الأوراق ومنظاره يتدلى على أنفه وسأله عما يريد بصوت هامس. واستغرق الرجل العجوز مدة طويلة وهو يبحث في بطء عن ((دوسيه)) البعثة، ووجد الدوسيه وفتحه بنفس البطء، وبدأ يقلب صفحاته صفحة وراء صفحة حتى وصل إلى قرار لجنة البعثات العليا، وتطلع إلى حسين صامتًا لحظة وهو يفحصه بإمعان، وتأكد لحسين أن الحظ قد خانته هذه المرة وأنه لم ينل البعثة، ودهش عندما وجد نفسه ينتهد في ارتياح وكأنه قد فر من مأزق كان يواجهه. ولكن الموظف المختص سوى منظاره على عينيه بعد فترة صمت وأخبر حسين أنه قد اختير كعضو أصلي للبعثة التي تقدم إليها، ونبه عليه بأهمية السرعة في استكمال أوراقه لكي يلحق بالفصل الدراسي الأول. وسكت الموظف وكأن الكلام قد أرهقه، وعاد يصوب نظرتة إلى حسين من خلف منظاره المتدلي على أنفه، وحاول حسين جاهدًا أن يتحاشى تلك النظرة، غزاه شعور عجيب بأن ذلك الرجل العجوز الذي يجلس منكمشًا كالقط، يطوقه، ويحكم المصيدة عليه.

وعندما وصل حسين إلى الشارع تذكر ليلى فجأة، وشعر بقلبه يهبط من صدره في عنف ويترك خلفه خواء، واندفع في اتجاه بيتها.

يجب أن يراها، يجب أن يثبت لنفسه أنها ليست سرابًا في حياته بل حقيقة ملموسة، حقيقة قائمة يستطيع أن يمد يده إليها وأن يحتويها ولا يفلتها أبدًا.

وبعد ذلك فقط يستطيع أن ينظم ذلك البحر من الأفكار التي تتوالى على رأسه، ويستطيع أن يقرر الخطوات العملية التي سيتخذها لمواجهة هذا الموقف الجديد.

أسرع حسين الخطى وهو يكاد يجري، وعندما وصل إلى باب العمارة الخارجي اندفع باب المصعد ووجد ليلى تقف تجاهه في ملابس الخروج، ووقفت هي أمام المصعد لا تتحرك، وتقدم حسين إليها ومد يده وأخذ يدها واحتفظ بها دون أن يتكلم، واحمر وجه ليلى ورفعت عينيها إليه لحظة وتشبثت نظرتة بها في يأس، وأسدلّت هي جفניה على عينيها وأدركت أن شيئًا ما قد حدث، شيئًا خطيرًا. كان حسين يبدو أمامها لأول مرة مجهدًا متعبًا منهارًا.

وقال حسين في جمل لا تكتمل:

- جات لي بعثة ثلاث سنين لألمانيا.

ورفعت ليلى وجهها إليه، ورأى حسين في عينيها حزنًا عميقًا، كما لو كانت قد أدركت إذ ذاك فقط مدى تعاستها ووحدتها وشعورها بالوحشة والانزال.

وأدرك أنها في حاجة إليه، ربما بقدر ما هو في حاجة إليها، رغم كل الحواجز العالية الي ترفعها في وجهه. وضغط في حنان على يدها التي ما زال يحتفظ بها في يده.

وأدركت ليلى أنها كشفت عن نفسها وسحبت يدها في عنف وقالت:
- محمود فوق.

وتقدمت في اتجاه الباب الخارجي للمبنى.

وقال حسين:

- رايحة فين؟ استتي هنا!

ودهشت ليلى من التغير المفاجئ في صوته، كانت نبرة اليأس قد زایلته وحلت محلها - لا نبرته العادية - بل نبرة أمرة، كأنه يأمرها أن تنتظر. وحين استدارت وواجهته كانت ملامحه قد لانت في ابتسامة أسرة، ابتسامة لا تقاوم، ومع ذلك لم تبتسم في وجهه، نبع في قلبها خوف من تلك الثقة، من تلك الابتسامة التي تملأ وجهه.

- تعالي هنا! أنا عايز أكلمك في موضوع!

وتحدد الخوف الغامض الذي ملأ قلب ليلى، خشيت أن يقول حسين شيئاً يقلب نظام حياتها، شيئاً يسلبها الراحة التي وصلت بعد مجهود إليها، الراحة التي تتبع من إدراكها أنها مكتفية بذاتها، وأن إنساناً ما، لا يستطيع أن يؤذيها أو يؤلمها.

وكان عقل ليلى يعمل في بطء وصعوبة.. يجب أن تهرب.. في الشارع؟ سيتبعها حسين.. في حجرتها؟ ستوصد الباب وتحكم إغلاقه وإذ ذاك لن يستطيع أحد أن يصل إليها.. لن يستطيع أحد أن يؤذيها. ولكي تكسب الوقت، لكي تحول بين حسين وبين أن يتكلم قالت وعيناها مصوبتان على السلم:

- فين؟

وقال حسين في بساطة ووجهه ما زال يبتسم:

- فوق، أو نخرج في أي حطة.

وقالت ليلى في اضطراب:

- مش ممكن! مش ممكن يا حسين!

وجرت تقفز درجات السلم، وتبعها حسين وأوقفها في مواجهته وقد أحاط كتفيها بيديه:

- كلمتين بس يا ليلى! كلمتين بس!

ورأى إذ ذاك وجهها وقد ارتسم عليه الخوف، وحز خوفها في قلبه وقال:

- ما تخافيش يا ليلى، أنا عايزك تتقي فيّ، أرجوك!

وقالت ليلى في صوت رفيع يكاد يصل إلى مرتبة البكاء:

- سييني يا حسين أرجوك! سييني! سييني في حالي!

وقال حسين بصوت هادئ وبلا انفعال:

- وإن ما كنتش أقدر أسيبك؟ إذا كنت باحبك؟

وأفلتت ليلى، وفي قفزات وصلت إلى باب شقتها، ومدت يدها إلى الجرس، ولكن يد حسين أمسكت بيدها قبل أن تصل إلى الجرس.

وقال في صوت عميق هامس وهو يضغط على يدها:

- أنا باحبك يا ليلى.

وأطرقت ليلى برأسها وكأنها تلقت الصفحة التي كانت تخشاها، ثم تماكنت نفسها. أدركت أن حسين قد وضعها أمام الأمر الواقع، وأن عليها أن تستجمع قواها لتواجه الموقف. ورفعت إليه وجهًا باردًا متحجرًا خاليًا من التعبير.

وأسقط حسين يدها من يده وقال في مرارة:

- لسه مرتبطة بعصام؟

والتفت عيناه بعينيها ثم أشاح بوجهه بعدًا، وشعر كأن طعنة سكين قد اخترقت قلبه، رآها تقف أمامه عارية كحيوان جريح ينزف وعلى عينيها تتابعت الدهشة فالخوف فالشعور بالضة والضياح.

وود حسين لو استطاع أن يسترجع السؤال الذي سألته.

واستندت ليلى على مقبض الباب وكأنها تخشى السقوط، واقترب منها حسين ووضع يده على كتفها وكيانه يختلج برغبة جامحة في أن يحتويها بين ذراعيه، وأن يُقبل عينيها. وشعرت ليلى بلمسته، واستقامت في الحال وقد تصلب جسمها، ومدت يدها في عنف وأزاحت يده عن كتفها، واستدارت تواجهه وفي عينيها نظرة كراهية عميقة جعلته يتراجع إلى الخلف حتى التصق بالحائط.

وقالت ليلى في هدوء:

- أنا مش مرتبطة بحد! ومش حاربت بحد!

وقال حسين في قسوة:

- عارفة إنت محتاجة لإيه؟ محتاجة لحد يقعد يهزك لغاية ما تفوقي.. لغاية ما تدركي إن الدنيا ما انتهت.. وإن إللي حصل ده كان ضروري يحصل لأنك إنت إللي أسأت الاختيار!

وانهالت ليلى على الباب تدقه بقبضتها، وتطلع حسين إليها قليلًا ثم هز كتفه ومد يده يدق الجرس ويقول:

- لكن للأسف ما عنديش وقت عشان أفوقك، لأنى مسافر!

واستدار وتركها خلفه، وأدرك وهو ينزل السلم أنه قد اتخذ قرارًا نهائيًا في موضوع البعثة.



ولم يكن حسين مرتاحًا في أعماقه لهذا القرار لأنه يتضمن إسقاط ليلي من حسابه. ولكن الأحداث تحالفت على إقناعه بصحة قراره. تحاشت ليلي مقابله خلال ترده على البيت، وفكر في الاستعانة بسناء وسأل محمود عنها فأخبره أنها سافرت مع عائلتها إلى رأس البر لقضاء جانب من الصيف، وأنه هو وأفراد عائلته سينقلون بدورهم إلى رأس البر بعد أيام.

واندفع حسين يستكمل أوراقه، ويختار الكتب التي سيأخذها معه، ويدرس برامج الدراسة في الجامعة التي سيلتحق بها. وتوطدت صلته بأخته سميحة في هذه الأيام كما لم تتوطد منذ زواجها. كان يسهر معها في بيتها إلى ساعة متأخرة من الليل يتحدثان.. كان قد أخبرها بموضوع ليلي، وكانت تترك أنه يتألم وإن كان يرفض أن يعترف حتى بينه وبين نفسه أنه يتألم، وقالت له مرة وهي تعدل من وضع غطاء المائدة لتخفي ارتباكها:

- تحب أروح أشوف ليلي يا حسين؟

وهز حسين رأسه بالنفي دون أن يتكلم، وتطلعت إليه سميحة متسائلة، فقال:

- ليلي عايزة كده يا سميحة! مفيش داعي إننا نحاول نضطرها لحاجة هي مش عايزاها.

وقالت سميحة:

- عارف يا حسين؟ أنا قلبي حاسس إن لك نصيب فيها ومسيرها لك برضه بعد ما ترجع من ألمانيا.

وضحك حسين ساخرًا:

- حضرتك بتفتحي البخت ولّا إيه؟

ولكن كلام أخته الذي بدا ساذجًا غير منطقي أدخل السكينة إلى نفسه وتجاوب مع شعور في أعماقه لم يتأت له من قبل أن يتبلور.. شعور بأن شيئًا ما يربطه بليلى، شيئًا أقوى منه وأقوى منها، شيئًا سيجمعهما معًا في يوم من الأيام. وأعانه هذا الشعور على التسليم بالأمر الواقع.

ولكنه عاد إلى بيته مثقلًا بشعور من الجرم، بعد أن ودع ليلي ليلة سفرها إلى رأس البر.

تحاشته تلك الليلة كعادتها منذ أن فاتحها بحبه، وجلس طول الوقت مع محمود في حجرته، ولكن عندما خرج إلى الصلاة كانت تقف هناك وسط كومة من الحقائق بعضها مفتوح وبعضها مغلق وهي تتحدث إلى أمها.

وصافح حسين الأم مودعًا ثم استدار إلى ليلي وتشبثت نظره بوجهها وهو يحتضن يدها بين يديه، واهتزت حدقتها ثم سحبت يدها من يده وابتسمت ابتسامتها المعتذرة وقالت:

- مع السلامة.

واستدارت تخاطب أمها:

- ماما.. على فكرة، الجاكتات الصوف، نسينا الجاكتات الصوف. ووقف حسين في مكانه لا يتحرك ونظرته مركزة على ظهر ليلي.

وشعرت ليلي بنظرته تحرق ظهرها، واستدارت في بطن، وواجهته، وقالت بصوت هامس مضطرب وكأنها تقضي إليه بسر:

- أصل الدنيا بتبقى برد هناك، برد وضملة بالليل!

وارتجفت شفتها السفلى، وكست عينيها طبقة من دموع جمدت على حدقتيها.

ولمدة خمسة عشر يومًا طاردت حسين عينا ليلي، وقد تحجرت فيهما الدموع. وكل يوم يمضي يقربه من موعد سفره إلى ألمانيا الذي تحدد مواعده، ويزيده شعورًا بأنه تخلي عن ليلي في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى المساعدة.

وظلت عينا ليلي تدعوانه وتنشئان به حتى وجد نفسه يجلس في القطار الذاهب إلى رأس البر.

وأسند حسين رأسه إلى ظهر المقعد، وشعر براحة نفسية عميقة، وكأنه فرع لتوه من صراع طويل.. لقد عرض عليها حبه، وحين رفضته انصرف غاضبًا كطفل كبير، رغم أنها في حالة لا تسمح لها أن تحبه هو، أو أن تحب أي إنسان، ربما لو كانت في حالة طبيعية لأحبتة، ربما تحبه بعد مدة حين تستطيع أن تقف على قدميها وتستعيد ثقته في نفسها وفي الحياة، ربما لن تحبه أبدًا، ربما ستحب إنسانًا آخر، ولكن كل هذا لا ينفي أنه يحبها، ولا يعفيه من واجبه تجاهها.. يجب أن يستنفد كل الوسائل الممكنة لمساعدتها.

لقد توهم أنه لا يستطيع أن يساعدها إلا كزوج أو كحبيب، ولكن ربما يستطيع أيضًا أن يساعدها كصديق، كمجرد صديق. يجب أن يستنفد كل الوسائل الممكنة والإ.. ستظل عيناها معه تدعوانه وتنشئان به في يأس، وتوقظانه من نومه، ولن يهرب منهما أبدًا ولو قطع آلاف الأميال.. آلاف الأميال.. آلاف... آلاف...

وأخذ القطار يطن في أذنه بكلمة آلاف، وقام حسين إلى النافذة وفتحها، وأخذ يستوعب الحقول الممتدة أمام مرأى بصره، وكأنه يريد أن يحفرها بكل تفاصيلها في ذاكرته. لقد نشأ هنا كطفل وكصبي في قرية مثل هذه القرية، فيها حقول مثل هذه الحقول، وساقية وترعة وناس مثل هؤلاء الناس.. ناس يكدحون ويعرقون، ويخفي مظهرهم الخشن الصلب قدرة جبارة على الحب وعلى العطاء وعلى التضحية.

وشعر حسين بحنين جارف، وود لو استطاع أن يتوقف، أن يمشي والنسيم يلفح وجهه بين الحقول الخضراء، أن يشم عبير الأرض، أن يصفح الأكف الخشنة الصلبة.

ولكن القطار مضى ينهب الأرض وهو يطن، وطنينه يردد في أذنه كلمة آلاف.. آلاف. نعم. سيذهب آلاف الأميال بعيدًا عن هذه الحقول، بعيدًا عن الوطن، وفي الغربة سيعيش وحيدًا، ويعمل وحيدًا، يأكل وحيدًا، وينام وحيدًا، وفي نهاره وحشة، وفي ليله وحشة للوطن. لو كانت معه.. لو كانت معه..

واضطرم صدر حسين بموجة غضب.. لماذا لا تستطيع أن تقف على قدميها مثل بقية الناس؟ لماذا لا تلطم من يلطمها وتستأنف المسير؟ ولماذا يسهل تحطيمها وكأنها مصنوعة من... من...

وجلس حسين على المقعد وهو يحاول أن يجد شيئاً يشبه به ليلى.. من الزجاج، من الكريستال، نعم من الكريستال، جميل ومن السهل تحطيمه، والكريستال سلبي أيضاً مثلها، يعكس الضوء ولا يشعه، تضعه في النور فيتألق، وتضعه في الظلام فلا يشع نوراً. نعم النور ليس في قلبها ولكنه في الخارج. الثقة في النفس لا تتبعث من داخلها بل لقد استمدتها دائماً من الآخرين. ولذلك استطاع عصام أن يسحقها، أن يجعلها تكره نفسها وتكره بالتالي الآخرين.

وهي جميلة، وهي ذكية، وهي ممتازة من كل الوجوه، ومع ذلك لم تستطع أبداً أن تقف على قدميها. كان لا بد لها دائماً أن تستند إلى شخص أو إلى شيء. استندت أولاً إلى أخيها، إلى بطل طفولتها، ورأت الدنيا من خلال عينيهِ واسعة جميلة طليقة مليئة بالحب، بالتضحية، بالإخلاص، بالحق، بالصدق، بالجمال.

وأراها عصام جانباً آخر من الحياة لا تعرفه، جانباً عارياً قبيحاً، وخارت الأرض تحت قدميها، استحالت إلى رمال طرية.

وتطلعت إلى أخيها في يأس تحاول أن ترى في عينيهِ الحياة التي رسمها لها، ولكنه أغمض عينيهِ خشية أن ترى فيهما ما رآه.. وكان محمود لم ير سوى الخيانة، وكأنه لم ير...

ورأى حسين أشجار النخيل تنبئ باقتراب القطار من محطة دمياط، وبدت له متراسة متكاثفة، صفوفًا وراء صفوف، شامخة مزهوة منتصرة مثقلة بثمارها، بعراجين من البلح الأحمر الذي يلتصق في أشعة الشمس.

... لم يرَ الجمال. وكان محمود لم يرَ الجمال، لم يرَ الأبطال الذين وقفوا للأعداء شامخين منتصرين، وماتوا شامخين منتصرين، لم يرَ الفرحة الغامرة التي تألقت في عيني ذلك الصبي حين رفع رسه لآخر مرة ليشاهد النار وهي تتأجج في معسكر من معسكرات الإنجليز، لم يرَ الأسطى مدبولي يزحف وهو جريح إلى داخل معسكر بريطاني ويحرق مخزن البترول بقنبلة يدوية ويحترق معه، ولم يسمع هتافه بسقوط الاستعمار يدوي في سكون الليل، يهز الأعماق، ويهز الأرض، ويفجر فيها منابع الثورة.

واهتز القطار وهو يتوقف في محطة دمياط، وسحق حسين عقب السجارة بحذائه، وحمل حقيبتَه ونزل.

وتركت السيارة الطريق الزراعي، وتوغلت في طريق رأس البر، وبدأ الهواء المشبع ببخار الماء يلفح وجه حسين ويسكن من توتره.. وشعر بحنين جارف إلى ليلى.

من هو حتى يلوم الآخرين على ضعفهم؟ من هو حتى يُصدر الأحكام على تصرفاتهم وأفعالهم؟ لقد كاد يبكي كالطفل وهو يرى القاهرة تحترق، وكاد يبكي وهو يرى نهاية معركة القناة، ولم ينفذه إلا الإيمان.. الإيمان بالشعب. لقد أحس بالشعب دائماً ولم ينعزل أبداً، وبالتالي لم يضعف.

ومحمود انعزل، وليلى انعزلت، انعزلت حبيسة وراء ((الأنثى)) تنكأ جراحها، وكان الدنيا كلها قد تركزت في هذه ((الأنثى)). ولم يعد لليلى هم إلا أن تحميها من عدوان العالم الخارجي. لقد استندت إلى أمها، إلى أصولها، إلى تقاليد الناس من حولها، ورأت الحياة من خلال عيني أمها ضيقة لا

تتجاوز الجدران الأربعة التي تعيش بينها، مخيفة يتحصن ضدها الإنسان، وينصرف جهده ليتحاشاها لا ليحياها، ويتسلح في ذلك بالأصول، يتكلم بحساب، ويتصرف بحساب، وينفعل بحساب لكي لا يتعب، ولكي لا يتألم.

وقد لا يعرف سعادة كبيرة ولكنه أيضًا لن يعرف ألمًا كبيرًا، فالجدران هناك تحيطه وتحميه ضد الوحش الذي يتربص به في الخارج.. ضد الحياة!
وامتدت الكتبان الرملية تحت بصر حسين، أرض خراب قاحلة جافة بلا ماء ولا شجر، ومن خلف الكتبان طالعت عينا ليلي وقد تحجرت فيهما الدموع.

* * *

كانت ليلي مستلقية على مقعد طويل تحت الشمسية تقرأ كتابًا حين شعرت بيد تلمس كتفها.

- ليلي.. حسين جه.

قال محمود.

ولأن وجه ليلي في ابتسامة لم تكتمل، أدركت أن جسمها ممدد تحت نظر حسين، وقامت تحييه في ارتباك:

- أهلاً وسهلاً.

وقال محمود وهو يزيح المنشفة من على كتفه، ويضعها على ظهر مقعد خال:

- حسين مسافر ألمانيا بعد أسبوعين.

واهتزت حدقتا ليلي ولم تقل شيئاً، مدت يدها وأخذت المنشفة من يد حسين ووضعتها على ظهر المقعد، وأخذت تسويها بيديها، وقال محمود:

- مش تهني ليلي يا حسين.

وانقبض وجه حسين، وأكمل محمود كلامه:

- أخذت التوجيهية وحتدخل الجامعة.

وتهلل وجه حسين وهو يحتضن ليلي بنظراته، وقال:

- مبروك!

وسار محمود إلى البحر وخلفه حسين، بعد أن ألقى نظرة تساؤل إلى ليلي.

وجلست هي من جديد، ولكنها لم تجلس على المقعد الطويل، جلست متصلبة على مقعد من الخيزران، وحاولت أن تستغرق في القراءة من جديد، ولكنها لم تستطع. بدأت أصوات الباعة تحول بينها وبين التركيز، وأمواج البحر تتدافع وتمتد حتى تصل إلى قدميها.

وقال محمود لحسين وهما يديران ظهريهما لموجة عالية:

- البحر مش حاجة النهارده.

- مش حاجة بس.. دا فظيع يا أخ.

وقال محمود:

- لقدام يبقى كويس.

- قدام؟! قدام مين يا عم.. دا أنا ما أعرفش أعوم!

وانفجر محمود ضاحكًا، وقد سره أن يكتشف في نفسه نقطة تفوق على حسين:

- طويل وعريض كده ولا تعرفش تعوم؟

وكادت موجة عالية أن تقلب حسين، وتماسك وهو يضحك.

- كفاية كده، يلّا بينا نخرج.

واندفع محمود إلى الداخل يشق الأمواج، وهو يشير لحسين أن يتبعه، وهز حسين رأسه واستدار في اتجاه الشاطئ.

واقترب حسين من من ليلى وقطرات الماء تتساقط من شعره ووجهه، وأعطته ليلى المنشفة دون أن تتكلم، وجلس على الرمل إلى جانبها، وقال وهو يجفف شعره ويبتسم في وجهها:

- لسه مخصصاني؟

وأفقلت ليلى عينيها وهي تبتسم.

وقال حسين مداعبًا:

- ما هو حاجة من اتنين، إما مخصصاني أو خايفة مني.

- وحاخاف منك ليه؟

وقال حسين في خفة:

- دا سؤال وجيه، الواحد بيخاف من شخص تاني ليه؟ إما إن الشخص التاني دا مؤذي أو...

وتطلعت إليه ليلى في توجس، وركز حسين عينيه في عينيها وقال بصوت عميق:

- أو خايف يحبه.

وأشاحت ليلى بوجهها بعيدًا عنه وتطلعت ساهمة إلى البحر، والموج يعلو شامخًا متوجًا بالبياض، ثم يتلاطم ويستكين ليرتد من الشاطئ ذليلاً إلى البحر، وقالت في صوت هامس:

- أنا عمري ما حاحب حد!

وطرح حسين رأسه على مقعد خالٍ، ومد قدميه وارتخى في جلسته، وقال وفي صوته رنة عدم التصديق:

- متأكدة؟!!

- طبعًا متأكدة.

- أنا شخصيًا مش متأكد.

وقالت ليلي في عنف:

- قصدك إيه؟

واعتدل حسين في جلسته وهو يبتسم ويشير بإصبعه في توكيد إلى صدره:

- قصدي إنك بتحبيني، تحبيني أنا، حتصبحي في يوم الصبح وتكتشفي إنك بتحبيني.

ونظرت إليه ليلي في دهشة لحظة، ثم انفجرت ضاحكة.

- بتضحكي على إيه؟

وهزت ليلي رأسها في تعجب وهي مستغرقة في الضحك، وقالت:

- يا ريت يكون عندي ثقة في نفسي زيك كده يا حسين.

وقال حسين ووجهه كوجه طفل غاضب:

- مش فاهم حاجة.

وابتسمت ليلي وقالت:

- إيه إللي بيخليك متأكد بالشكل ده، زي ما أكون أنا شخصيًا قلت لك.. إنني باحبك؟

وارتجف صوت ليلي وهي تتطرق بالكلمتين الأخيرتين.

وقال حسين، وكأنه يقرر حقيقة واقعة:

- إنت فعلًا قلت لي.

وفتحت ليلي فمها في بلاهة، وابتسم حسين:

- إنت فعلًا قلت لي، قلت لي أكثر من مرة.

وأشارت بيدها في يأس وهي تبتسم.

- لا.. دا إنت مجنون خالص!

وزحف حسين في اتجاهها:

- تفكري الحاجات دي الواحد بيقلها بلسانه بس، بالعكس دا بيقلها أكثر بعينه.

وقالت ليلي في سخرية:

- وعيني قالت إيه بقه يا سيدي؟!!

- عينيك إلكي فقلت لمعانها بتلمع لي أنا بس، ووشك إلكي راح منه الإشراق بيشرق لي أنا بس.

- إنت بتتخيل حاجات وهمية، حاجات ما حصلتش خالص.

واقترب حسين منها حتى كاد رأسه يلمس فخذها، وقال في صوت تناهى في رفته:

- خديني على قد عقلي يا ليلي.

ولمعت الدموع في عينيها وقالت:

- أنا أسفة يا حسين!

- لأ.. أرجوك، أنا عايز أشوفك النهارده مشرقة تمام زي ما شفتك أول مرّة.

ورفع إليها وجهه وقد ذاب في ابتسامته الأسرة وقال:

- عايزة تبسطيني قبل ما أسافر؟

وهزت ليلي رأسها بالموافقة.

- طيب، خلينا نتخيل، نتخيل مع بعض.

ومسحت ليلي عينيها وابتسمت، وقال حسين:

- نفرض إنك صحيت الصبح واكتشفت إنك بتحبيني.

وقالت ليلي وكأنها تلعب لعبة مسلية:

- وبعدين؟

- وبعدين حتروحي مكتب التلغراف، وتكتبي تلغراف على عنواني في ألمانيا.

- أقول فيه إيه؟

وأمسك حسين بحصاة، وأخذ يكتب بها على الرمال، وهو ينطق ببطء وكأنه يملئ، وتاهت عيناه، وغار صوته، وكأنه يحلم:

- قم بالترتيبات اللازمة لعقد زواجنا، سأخبرك في البرقية التالية بموعد وصولي، التفاصيل بالبريد.

ورفع حسين رأسه إلى ليلى ويده ما زالت ممسكة بالحصاة ونظر إليها نظرة فاحصة، وكأنه يختبر مدى قوتها، مدى قدرتها على القيام بهذا الدور الذي يريد لها أن تقوم به.

وتلملت ليلى تحت نظرته الفاحصة، وأدركت أن المحادثة ستخرج من النطاق الخفيف الذي كانت تدور فيه إلى نطاق جاد خطير، وتشبثت باللعبة المسلية، وقالت في صوت تسرب إليه بعض الخوف:

- وبعدين؟

- تركبي الباخرة وتيجي.

وبدا من صوت حسين أنه لم يعد مهتمًا بالمحادثة، كان اهتمامه منصبًا على محاولة الوصول إلى أعماق هذه الفتاة، إلى معرفة إلى أي مدى يستطيع الاعتماد عليها، ومصيره هكذا معلق بمصيرها.

وقالت ليلى بصوت ضعيف وهي تشير بذراعها إلى مسافة وهمية:

- كل السكة دي لوحدي؟

واعتدل حسين في جلسته، وقال في ببطء، وبطريقة يحمل بها كلماته أكثر من معنى:

- دي السكة إللي ضروري تمشيها لوحديك يا ليلى.

وشعرت ليلى بنظرته الفاحصة تضيق عليها الخناق، وكأنها تكشف عن مدى ضعفها ووهنها، وأشاحت بوجهها بعيدًا وهي تتطلع إلى البحر، ثم ارتجفت شفتاها وهي تقول:

- طيب افرض إن البحر هايج والموج عالي.

وقال حسين، وهو يحمل كلماته من جديد أكثر من معنى:

- عشان نوصل للبر، ضروري نواجه الموج والبحر.

ونظرت إليه ليلى طويلًا، وقد ضاقت عيناها، ثم ضحكت ضحكة أشبه بالعويل وقالت:

- على البر ألاقي إيه؟ ألاقي إيه يا حسين؟ قهوة مدلوقة؟

ونظر إليها حسين في دهشة لحظة، ثم أدرك أنها تشير إلى تفصيل من تفصيلات علاقتها بعصام، وانقبض وجهه ولم يقل شيئًا.

وغطت ليلى وجهها بكفيها، وقالت وهي تهز رأسها في يأس:

- ما أقدرش! ما أقدرش يا حسين!

وكشفت عن وجهها، وقامت واقفة، وقام بدوره واقفًا يواجهها.

وقالت ليلى بصوت هادئ:

- ما تضيعش وقتك يا حسين، مفيش فايدة مني!

ومضت ليلي في خطى متباطئة إلى العشة، ولحق بها حسين، وسمعه خلفها يناديها:
- ليلي.

ولم يكن في صوته غضب ولا يأس ولا رجاء، كان الصوت يستوقفها، يأمرها في رجولة وحنان أن تقف، ووقفت.

وقال حسين:

- عارفة يا ليلي حتلاقي على البر إيه؟
ونظرت إليه ليلي ولم تتكلم.

- حتلاقي حاجة أهم مني، وأهم من أي إنسان تاني.. عارفة إيه هي يا ليلي؟
ورفعت إليه ليلي عينين متسائلتين.

وقال حسين في بطاء:

- حتلاقي الحاجة إيلي ضاعت منك، حتلاقي نفسك، حتلاقي ليلي الحقيقية!

ولم تفهم ليلي مقصده في بادئ الأمر، ثم احمر وجهها وأدركت لأول مرة أنها تغيرت، وأنها أصبحت أشبه بالجثة الهامدة، وأن حسين أدرك هذه الحقيقة. وفرت إلى العشة في خطى مذعورة.

وعلى مائدة الغداء جلست ليلي في مواجهة حسين وإلى يمينها أمها وإلى يسارها محمود، وكان أبوها غائبًا في القاهرة.

وأحنت ليلي رأسها على الطبق لتتخاشى نظرات حسين، كانت تخاف نظراته الفاحصة، التي تنفذ إلى أعماقها وتكشف عما في هذه الأعماق، وتخاف أن ترى اليأس في عينيه، اليأس منها.

ولكن حين التقت عيناها بعينه مصادفة تبدد خوفها، لم تجد في نظرة حسين يأسًا ولا خوفًا، ولا كانت تفحصها ولا تمتحنها، كانت تربت عليها في حنان، وتضمها في شوق واعتزاز، وتتألق فرحًا.

كان حسين يستوعب كل تفصيل من ملامح ليلي وكأنه يريد أن يحفره في ذاكرته، ويدخره في قلبه، وكان هذا الاستيعاب يملأه بالنشوة. إنه يحب هذا الجانب من وجه ليلي الذي ينحدر في نعومة من الأذن الدقيقة إلى الخد، ويحب الشفة العليا التي ينفرج احمرارها من الوسط عن مثلث صغير يعلو عن الشفة السفلى، وكأنها تبسم وهي لا تبسم، ويحب العينين العسليتين الذكيتين الحساستين

المعبرتين وكأنهما شاشة عدسة رقيقة الحساسية، والجبين العريض الممتد في استواء وكبرياء، والشعر القصير الناعم الفاحم السواد، والبشرة العاجية المشربة باحمرار خفيف في الخدين، البشرة الناعمة نعومة بشرة الطفل، و...

إنه يحب كل ملامحها، كلًّا على حدة، ولكنه يحب الوجه في مجموعه أكثر، في الوجه في مجموعه جمال خارق، جمال لا ينبع من جمال الملامح وحدها، ولا من انسجامها كل مع الآخر، إنه ينبع من... من أين؟ من التناقض بين البراءة الناعمة التي تشبه براءة الأطفال، وبين الجبين العريض، والعينين اللتين تتأججان ذكاء، ذكاء امرأة واعية حساسة ناضجة، أم من التناقض بين الوجه الطفل والجسم الممتلئ الناضج، أم من شعوره هو تجاهها، من حبه لها؟

ما من مرّة رأى وجهها إلا وأشرق في كيانه سكينه حلوة تهدده، وتسلمه إلى اطمئنان حلو، وتدفعه في حنو إلى الأمام، وكأنه فهم فجأة كل الأسرار التي استعصى عليه من قبل فهمها، وكأنه وجد فجأة الحل لكل مشاكله، وكأن أحلامه قد تجسّمت فجأة فأصبحت حقائق، وما عليه إلا أن يمد يده ويمسك بها.. فأى شيء يستحيل عليه لو أصبح كل يوم على وجهها؟

ولكنه لن يصبح كل يوم على وجهها، في الغد يرحل، وهو لا يملك من الأمر شيئاً ولا يستطيع له تغييراً، لا يملك سوى أن ينظر إليها ويدخر صورتها في عقله وكيانه، ويعيش على الذكرى سنوات في الغربة. يجب أن يكون وجهها آخر ما يراه حين تباعد الباخرة بينه وبين أرض الوطن، آخر ما يراه في أرض الوطن.. رمزاً لكل ما يحبه في الوطن.

ولمعت فكرة في عقل حسين، في الغد حين يرحل، يجب أن تودعه ليلى، يعبر النيل في طريقه إلى دمياط ويقف في المركب، وتقف هي أمامه على الشاطئ يملأ كيانه من وجهها ويتخيل.. يتخيل أنه راحل عن الوطن ليعود إليها، للوطن.

ولكن كيف يقنعها بتوديعه؟ ومتى؟ وهل يستطيع أن تخرج بمفردها لتوديعه؟ هل تستطيع أن تتغلب على خوفها من نفسها ومنه ومن الناس؟

وسيطرت الفكرة على حسين، وتضخمت أهميتها في نظره لحظة بعد لحظة.

لو خرجت لتوديعه لكان معنى ذلك أنها خطت الخطوة الأولى تجاهه، ولن يتركها قبل أن تخطو الخطوة الأولى.

وتركز كيان حسين في محاولة الانفراد بليلى، ولم تسنح له الفرصة إلا عند غروب الشمس.

كان يتمشى مع محمود على شاطئ البحر حين لمحا ليلى وسناء تقفان أمام الشاطئ ترقبان الغروب، ليلى بوجه حزين، وكأن الشمس لن تشرق في الغد، وسناء بوجه يتوهج، وكأنها خزنت في كيانه ما تبقى من أشعة الشمس الآفلة للغروب.

وانضم محمود وحسين إلى ليلى وسناء، ومضوا يمشون في خطوات بطيئة على الشاطئ، وجو

أرجواني يلفهم، ونسيم رطب يبعث بالخدر إلى أجسامهم.

وكانت ليلي تمشي بحذاء الشاطئ وإلى يسارها سناء فمحمود فحسين، وانهمك محمود في حديث جانبي مع سناء، وليلي وحسين صامتان، ليلي تصوب نظرها إلى الأمام وحسين يتململ في مشيته، ثم استدار حسين وغير مكانه بحيث أصبح يمشي بمحاذاة البحار إلى يمين ليلي.

واحمر وجه ليلي، وسارت إلى جانب حسين وذراعه تلمس كتفها عفواً بين الحين والحين، فترسل في كيانه رجفة كرجفة الكهرباء، رجفة ما تكاد تفيق منها حتى تنتظر بحلق جاف وقلب واجف أن تتجدد من جديد، وبطرف عينها رأت وجه حسين مشدوداً، وكأن شيئاً ما يثقل عليه.

ولمحاها حسين تنتظر إليه بطرف عينها واحتكت ذراعه بكتفها - عن قصد هذه المرة - وعيناه تذوبان في نظرة حنان، وشفته السفلى تبرز بروزاً خفيفاً وكأنه يُقبلها، واحمرت أذنا ليلي، وتطلعت إلى الأمام، وابتسم حسين لنفسه ولانت ملامحه المشدودة.

وانخفضت نغمة الحديث الدائر بين محمود وسناء حتى أصبح حديثاً هامساً، واتسعت خطواتهما وكأنهما يسعيان بلا وعي إلى الانفراد. ولاحظ حسين هذا التطور وتباطأت خطواته، إن الفرصة تواتيه ولن يدعها تفلت منه، وليلي تأبى إلا أن توسع خطواتها لتلحق بسناء ومحمود.

ومد حسين ذراعه وجذب ليلي إلى الخلف في اتجاهه، ووجهه يضحك وهو يقول هامساً:

- تعالي هنا، إنت رايحة فين؟

ووقفت ليلي تجاهه مسمرة، في دهشة من جرأته المتناهية، ثم سعت إلى تخلص يدها من قبضته، وشلها الخوف حين وجدت حسين يرفع يدها إلى فمه، ويقبل باطنها، ومحمود وسناء على مبعدة خطوات منهما.

وأطلق حسين يد ليلي حين اطمأن إلى ابتعاد سناء ومحمود.

وقالت ليلي وشفاتها ترتجفان:

- إنت مجنون! افرض محمود...

ولم تستطع أن تكمل.

وقال حسين وهو يضحك:

- افرضي، أنا باحبك، وفخور إني باحبك، ونفسي محمود يعرف، والدنيا كلها تعرف إني باحبك.

ثم غام وجهه، وكاد يلتصق بها، وهو يقول بصوت عميق هامس مرتجف:

- بس مستنيك، مستنيك إنت يا حبيبتي.

وأجرى حسين إصبعه على ذراع ليلي في لمسة خفيفة، ورق صوته حتى أصبح كصوت الأطفال:

- وعارف إنك تحبيني، ومسيرك ليّ زي ما أنا لك.

وغص حلق ليلي، وغامت عيناها تحت سحابة من الدموع.

وأخبرها حسين باقتراحه، وحاول أن يزيل مخاوفها، فهما يستطيعان أن يتقابلا بعيدًا، عند المحافظة، أمام النيل. وهي تستطيع أن تسبقه، ويواتيها هو هناك بعد أن يتخلص من محمود. ولكنها كانت ما تزال تنتظر إليه بعينين واسعتين خائفتين، وكأنه يطلب إليها أن تقتل إنسانًا.

وقال حسين وقد تسرب اليأس إلى صوته:

- مش حتيجي؟

ولم ترد ليلي.

واندفع حسين في مشيته وهو ينظر إلى الأمام.

واتسعت خطوات ليلي لتلحق به، ومدت يداً متخبطة كالعمياء ومست بإصبعها يد حسين، وقالت بصوت مرتجف:

- الساعة كام؟

وأمسك حسين بيدها في يده، ووجهه يتوهج، واحتضنتها نظرتة في إعزاز

وسحبت ليلي يدها من يده. لمحت سناء ومحمود من بعيد وهما يستديران في طريقهما إلى حيث تقف هي وحسين.

تمددت ليلي في السرير وهي تفكر.. شاب مثله ممتاز من كل الوجوه يريد أن يتزوجها هي، وهو يعلم بكل تفصيل من تفاصيل علاقتها بعصام.

وشعرت بموجة من الارتياح تسري إلى جسمها كالارتياح الذي تشعر به عندما ينتهي الطبيب من خلع ضرر مصاب، أو عندما تغطي جرحًا ملتهبًا في جسمها بطبقة من المرهم المرطب. شعرت وكأن حسين قد رد إليها اعتبارها حين طلب إليها أن تتزوجه.

وتقلبت ليلي في فراشها.. لا.. إنه لا يريد أن يتزوجها، إنه يريد حبها أولًا كشرط أساسي للزواج، ويعلق الزواج على هذا الحب. كان يستطيع أن يعرض عليها الزواج الآن في الحال، ولكنه لم يفعل، إنه لا يريد جثة هادمة، وهي جثة هادمة.

هو يريد حبها، وهي لا تستطيع أن تحب، تخاف من الحب، وليس في قلبها إلا الكراهية، الكراهية للعصام.. لعصام الذي خدعها.. لعصام الذي حطمها.. لعصام الذي...

وحاولت ليلي أن تتساق كعادتها في التفكير الذي يتتالي عليها عادة طبعًا، متسلسلاً، صورة بعد صورة، يحمل إلى عينيها الدموع، وإلى قلبها موجة من الرثاء لحالها، والإشفاق على نفسها، ولكنها

لم تستطع أن تستطرد في هذا الاتجاه. كان مجرد تذكر اسم عصام يجعلها تغلي وتغص بالكرهية وتود لو استطاعت أن تحطم شيئاً، أما الآن فهو بعيد، بعيد وكأنه لم يكن، كأنها لم تعرفه كما عرفت، كأن لم يكن بينهما علاقة.

واكتشفت ليلي فجأة أن غضبها قد انفثاً، وأنها لم تعد تكره عصام. ولاحظت أن جسمها لا يؤلمها على غير العادة، وأن عضلاتها مرتخية غير مشدودة، وكأنما خرجت لتوها من حمام بخار امتص السموم التي كانت تسري في جسمها. واستغرقت في نوم هادئ متصل لا تقطعه الأفكار السود، ولا الأحلام، ولكنها حرصت على أن تستيقظ مبكرة لتودع حسين.

* * *

وعندما خرجت من دورة المياه لم يكن أحد قد استيقظ في العشة بعد، وحتى لو استيقظ أحد، لم يكن فيما تفعله شيء غريب، فهي تستيقظ عادة كل يوم قبل أن يستيقظ أحد وتخرج مبكرة لتتمشى. وخلعت ليلي قميص نومها، ووقفت بملابسها الداخلية أمام المرأة تمشط شعرها القصير، ولحظت أن بشرتها قد جفت من تأثير الشمس وفتحت علبة الكريم التي لم تمس من قبل، ومالت في اتجاه المرأة ويدها تدلك وجهها.

وتوقفت يدها بغتة على خدها، وازدادت اقتراباً من المرأة، وتأملت الوجه الذي يطالعها، إلى العينين اللتين تلمعان كعيني قطة متوحشة في الليل، وإلى الشفتين اللتين تبرزان في استدارة، وقد دب إليهما الاحمرار، وإلى الوجه الذي يتوهج بالدم، وإلى الصدر الذي يرتفع وينخفض في سرعة وفي عنف، وكأن نبضها قد ارتفع فجأة.

وتراجعت ليلي عن المرأة.. إلى أين تذهب؟ إلى أي مصير تتدفع بهاتين العينين المتوحشتين، وهذا الصدر المتهدج؟ ((إلى الخراب)).. قال أبوها.. ((إلى الخراب)).

ومدت ليلي يدها تمسح حبات من العرق تجمعت على جبينها، وسارت بخطوات متلصصة إلى السرير وكأنها تخشى أن يهاجمها أحد، وعلى طرف السرير انهارت.

وكانها لم تجرب، وكانها لم تتعلم، وكانها لم تقاس من الاندفاع، من خلف ظهر أبيها تخرج، ومن خلف ظهر محمود وأمها، تخرج على الأصول لتقابل حسين، تخرج بقدميها وبمحض إرادتها لتسعى إلى الألم وإلى الشعور بالضياح وبالهوان.

تمشي اليوم مع حسين، ومن قبل حسين عصام، وفي الغد مع أي رجل، أي رجل يهمس في أذنيها بكلمات معسولة، وكانها كلبة تتبع كل من يشير إليها.

ولكن حسين؟! حسين مختلف، حسين يحبها.. وعصام ألم يكن يحبها أيضاً؟!

الحب! ألم تعان من هذه الخرافة ما فيه الكفاية؟ ألم تكن سعيدة وهي مكتفية بذاتها، لا يستطيع

أحد أن يؤلمها أو يؤذيها؟ ومع ذلك فهي تسعى اليوم إلى النار بقدميها وكأنها لم تجرب، وكأنها لم تتعلم وكأنها لم تقاس.

ومالت ليلى برأسها إلى جانب تتسمع خطوات تدب في العشة.. لقد استيقظ محمود، وحسين يستعد للخروج.

وأحنت ليلى رأسها على رقبتها، وكزت على شفتها.. فليذهب من حيث جاء، ويتركها في حالها. لن تقني نفسها في أحد، لن تذل نفسها لأحد، لن تضع رقبتها بين يدي أحد.. ستظل كما هي سيدة نفسها، مكتفية بذاتها، لا يستطيع أحد أن يؤلمها أو يعذبها.

* * *

ووصلت أصوات إلى ليلى، وبدأت تتسمع من جديد.

كان محمود يصمم على اصطحاب حسين، وحسين يحاول أن يتخلص.

ودوى صوت حسين منتصرًا مزغرًا وهو يفصل في المناقشة التي دارت بينهما:

- أنا عايز كده يا محمود، عايز أطلع في الصبحية الجميلة دي لوحدي.

وضاقت عينا ليلى، إنه منتصر، متأكد أنها هناك تنتظره، لقد أشار إليها وهو متأكد أنها ستتبعه.. ولكنها لن تكون هناك، لن تتبعه، لن...

وسرت رجفة في جسد ليلى، جاءها صوت حسين عميقًا خفيضًا.. دافئًا.. وهو يقول:

- حتوحشني يا محمود.

وقال محمود:

- إنت طبعًا حتكتب لي بانتظام.

- طبعًا.

ودارت ملعقة محمود في قدح الشاي، والصمت يسود الصديقين، وقال محمود بصوت مرتجف:

- إنت بالنسبة لي يا حسين أكثر من صديق، إنت إلي خلعتي أطمئن، وأفهم إن الدنيا بخير.

وصعد الدم إلى رأس ليلى، وقفزت من مكانها واقفة.. يجب، يجب أن تشكر حسين، يجب أن تقول له ((مع السلامة)).

وقال حسين وهو يقف:

- أشوف وشك بخير يا محمود.

وجرت ليلى إلى باب حجرتها، ومدت يدها إلى مقبض الباب المغلق تفتحه.

واكتشفت أنها لا تستطيع أن تخرج لحسين، لا تستطيع أن تمد يدها إليه وتصافحه، لأنها غير مستعدة، لأنها عارية بملابسها الداخلية.

وسمعت ليلي محمود يصيح في الفراندة، وكأنه يضع كل كيانه في كلماته:

- مع السلامة، مع السلامة يا حسين.

وانقبضت يد ليلي على مقبض الباب المغلق.

وفي الأيام التي تلت سفر حسين لم تشعر ليلى بشيء، وكأن حواسها قد تخدرت، وكأنها فقدت القدرة على الحس. وكلما ذكرته هزت كتفها بلامبالاة، وانصرفت إلى شأن من شؤون البيت، أو إلى كتاب تطالعه. واستمرت على هذه الحال أسبوعين، إلى أن جاء يوم كانت فيه ممتدة على مقعد طويل في الفراندة، تطالع الجريدة الصباحية، وكان أخوها يقف إلى جانب السور يتطلع إلى البحر الممتد تحت مرمى البصر.

وتمطى محمود واستدار يواجهها وهو يقول:

- يا بخت حسين، زمانه دلوقت في البحر.

ولم تقل ليلى شيئاً، استقامت في جلستها، وأسقطت الجريدة من يدها، وقامت واقفة، وفقدت القدرة على الاستقرار في مكان واحد أو على شيء واحد.

وصرخت فيها أمها:

- جرى لك إيه؟

كانت تتحرك على المقعد كما لو كانت محمومة، تعتدل في جلستها بمعدل مرتين في الدقيقة، وتقوم لتجلس لتقوم من جديد، وتفتح الكتاب لتطويه في ملل بعد دقائق، وتأكل في غير مواعيد الأكل، وتشرب دون ظمأ، لتجد شيئاً تفعله، وتخرج لتتمشى، وما تكاد تخرج حتى تعود من جديد، وتنزل إلى البحر لتخرج منه بعد دقائق.

ووجدت دائماً سبباً تبرر به مسلكها، هذا المقعد غير مريح، وهذا الكتاب سخي، والشمس حارة، والبحر قذر.

وقالت سناء:

- إذا كان البحر مش عاجبك نروح بكرة الصبح الجربي.

وحبذ محمود الفكرة، ووافقت ليلى.

وشق الشراع الهواء، واندفعت المركب إلى الأمام في اتجاه الجربي.

وبدأ محمود يتكلم، وسناء تنصت إليه باهتمام، وقد أسندت رأسها إلى يدها، ورفعت إليه عينيها.

ولم تحاول ليلى أن تنصت إلى كلامهما، كانت تنطلع إلى ذلك الجانب من شارع النيل الذي تمر

به المركب: السينما وعلى واجهتها لوحة كبيرة فيها امرأة عارية الصدر تبتسم في بلاهة، وصلات لفنادق متشابهة متكررة لا يجلس حول موائدها أحد، وأحذية وصنادل وشباشب متراكمة، وفترينات تلمع في أشعة الشمس وهي تزخر بالحلويات الدميائية: الهريسة، والبسبوسة، والمشبك. وأكشاك لبائعي الكوكاكولا وال فول والطعمية وإعلان يقول: ((قف.. هنا ساندويتش بطارخ)).

كل شيء معد بعناية، وكل شيء ينتظر، ولا أحد يقف، ولا أحد يشتري، والمرأة في اللوحة تبتسم في بلاهة، والسوق في هذه الساعة من الصباح قد خلت من الناس، بل حتى من الباعة، وبدأت خاوية كمدينة مهجورة.

وقامت سناء إلى مقدمة المركب، وخلعت البرنس، وتمددت على ظهرها وقد كشفت عن جسمها، وغطت وجهها.

وتطلعت إليها ليلي.. لقد تمددت بنفس العناية المدروسة التي تتصف بها كل حركاتها، وكأنها قد درست الزوايا التي تبرز جمال جسمها الصغير الأبيض المتناسق الملفوف. إنها تدرك أن جسمها جميل وتحبه وتعنتي به وتدهنه بالزيت قبل أن تتعرض للشمس وبالكريم بعد أن تستحم، وتقيس وسطها كل يوم وتنزعج إذا زاد عن معدله، وتتصرف إلى الألعاب الرياضية، وتحرم نفسها من الطعام حتى يعود كما كان، وهي لا تخفي حقيقة اهتمامها بجسمها، وعندما تسخر منها عديلة تبتسم في اطمئنان وتقول:

- أنت ليه عايزاني أنكسف من جسمي يا عديلة؟

كما لو كان من الطبيعي ألا يخجل الإنسان من جسمه!

وتمطت سناء وقالت دون أن تكشف عن وجهها:

- الجو جميل بشكل النهارده.

وتطلعت ليلي إلى محمود، وهي تتوقع أن ترى عينيه مركزتين على جسم سناء، ولكنه كان يلعب بيديه في الماء وينظر وفي عينيه نظرة حاملة إلى مجموعة من سفن الصيد المتراسة فوق الرمال.

واستدارت ليلي بدورها تتطلع إلى السفن.. حطام سفن لا تستطيع أن تنزل إلى الماء، وفي الصحراء تقف وحيدة عاطلة مشلولة معزولة عن الماء.

وتنهده محمود في ارتياح وهو يستوعب منظر السفن في ذاكرته، وبدأت له وطلاؤها الأبيض يلتصع في أشعة الشمس كطيور بيضاء ضخمة جميلة، استرخت على الشاطئ تستريح، لتعاود طيرانها من جديد.

وقال محمود لسناء:

- شفت المراكب دي؟

وكشفت سناء وجهها، وجلست ترقب المراكب في حنان وكأنها تربت عليها بنظرتها.

وامتد شط الجربي تحت أنظارهم، وقد ازدحم بالناس، يسبح بعضهم في النيل ويجلس البعض الآخر حول الموائد المتفرقة تحت مظلات واسعة.

وقالت سناء والفرحة تتراقص في عينيها:

- وصلنا.

* * *

واختار ((الريس)) بقعة هادئة نسبياً، وشد المركب إلى وتد وأرسى السقالة. ولكن سناء قامت واقفة وقفزت من المركب إلى الماء مباشرة.

وقال محمود لليلى:

- يَلاً بينا.

ودون أن ينتظر جوابها قفز إلى الماء.

وتحاشت ليلى رشاش الماء بيدها، وبرزت سناء من الماء، واستندت على طرف المركب بيديها:

- يلاً يا ليلى.. دي المية جميلة جداً.

- مش دلوقت، بردانه، بعدين.

وانضم محمود إلى سناء يتشبث بالمركب بدوره، ومالت المركب في اتجاههما، وصرخت ليلى في غيظ:

- حاسب يا محمود! جرى إيه؟!

وهز محمود كتفه واستدار وبدأ يعوم، ولحقت به سناء.

كانا يعومان في رقة متناهية، وكأنما يخشيان أن يلطما الماء الذي يلفهما معاً في راحة لذية، أشبه بالاسترخاء.

وقال محمود:

- أنا أقدر أعوم كده للبكرة.

وضحكت سناء:

- عرفت إزاي؟ أنا كنت بافكر نفس الفكرة.

كان شيء ما قد بدأ يسري بينهما، حين أتاحت لهما الفرصة ليتعرفا على بعضهما معرفة وطيدة في رأس البر. شيء هادئ لذيق، يتسلل ببطء شديد، وينمو مع الأيام. شعور بالارتياح وبالانتماء وبالحاجة المتبادلة. شيء أشبه بالظل لفهما معاً، ليس فيه حرقة ولا لوعة ولا أرق ولا حنين

جارف مضمّن.

كان محمود ينظر إلى وجه سناء الصغير، إلى شفّتيها الرقيقتين اللتين تطبقهما في إصرار، وإلى أنفها الصغير الذي يرتفع طرفه إلى أعلى في كبرياء، وإلى عينيها الصغيرتين المستقرتين في اطمئنان، وإلى شعرها العسلي الناعم المنسدل في خطوط مستقيمة، ويشعر كما لو كان قد وصل بعد كفاح إلى بر الأمان.

وكانت سناء ترى اللعة في عينيهِ الخضراوين الحائرتين، والبسمة المرتبكة على شفّتيهِ الرقيقتين، والكبرياء في لغة وجهه الخمري الوسيم، وتود لو استطاعت أن تأخذه بين ذراعيها، وتربت على شعره وتهنئه وتدلّه حتى تطمئنّ العينان الحائرتان، وحتى تتسع البسمة المرتبكة فتصبح ضحكة كبيرة منطلقة.

وراقبتهم ليلي وهما يبتعدان، وشعرت أن شيئاً ما يلفهما معاً وينأى بها عنهما، ويعزلها وحيدة ضائعة تائهة. وحاولت أن تتاديهما وجمد النداء على فمها، وأطبقت جفنيها على عينيها، وجلست منكمشة كما لو كانت تنتظر شيئاً تخشاه.. وطفا على السطح الشعور بالوحدة الذي كبتته طيلة الأسابيع الماضية، جباراً عاتياً.

وأبقت ليلي عينيها مطبقتين كما لو كانت تخشى أن تفتحهما على صحراء جافة شاسعة، وأصاب وجهها رشاش ماء، وفتحت عينيها على وجه يرقص بفرحة الحياة، وجه طفل يداعبها.

وأمسكت ليلي في غضب بالمجداف وانهاالت به على الطفل، ولكن الطفل غاص تحت الماء وأفلت منها، وهو يلوح لها بيده، ويضحك ضحكة طليقة مجلجلة، عمقت من شعورها بالوحدة والعزلة. وكذلك الناس الذين يعج بهم الشاطئ، كانوا بدورهم يعمقون من شعورها بالوحدة، هؤلاء الأطفال الذين يتسابقون في السباحة، وفي أعينهم نظرة خطيرة ظامئة وكأن مصيرهم معلق على هذا السباق، وهذه المرأة التي لا تستحي، والتي أسندت رأسها إلى حجر رجلها، واسترخت في نومتها، في اطمئنان وكأنها تنام في مخدعها، وكأن عيون المارة لا تأكلها، وهذا الفتاة التي تضحك ضحكات قصيرة بلهاء بلا توقف، وكأنها فقدت السيطرة على نفسها، أو كأن رفاقها الشبان يدغدغونها.

وأفاقت ليلي على جسم مرن يرتطم برأسها، ورأت كرة من المطاط تتطاير مرتدة إلى الماء، والصبي الشقي الذي عاكسها يستعيدّها وحوله زفة من الأطفال يهمسون ويضحكون عليها، وكأنهم أدركوا بحاستهم أن شيئاً ما يفصلها عن بقية الأدميين الذين يعج بهم الشاطئ.

وغلّى دم ليلي بالغضب وقالت:

- يا ريس!

ولم يلتفت إليها المراكبي، كان يجلس منصرفاً عنها وفي عينيهِ فرحة ساذجة وكأنه يشارك المصيفين لهوهم.

وعادت ليلى تقول في لهجة أشد عنفاً:

- إنت!

والتفت إليها الرئيس مندهشاً.

وقالت:

- حط السقالة وانزل.

- والمركب؟

- حاطلع بيها.

- لوحذك؟

وقالت ليلى في حدة:

- أيوه لوحدي!

* * *

وجلست ليلى في وسط المركب وقد تصلب جسدها، وشدت قبضتها على المجدافين، وبدأت تلطم الماء، لطفة بعد لطفة في سرعة وفي قوة، بكل قوتها، وبكل كيائها وكأنها في سباق.. وكأنها تهرب من خطر يلاحقها.

وتعمقت ليلى في النيل بعيداً عن الناس.

وتوقفت تستجمع أنفاسها، وحبأت العرق تلتصع على وجهها وتلفتت حولها... ماء ولا شيء سوى الماء، ماء من كل جانب يحيطها ويحاصرها، يخنقها وكأنها استوعبته في كيائها وتسرب من فمها إلى رئتيها.

وارتخت قبضتها على المجدافين.. إلى أين تذهب؟ إلى أين تهرب؟ وممن؟ من الناس! الوحدة معها وهي وحيدة، والوحدة معها وهي مع الناس، الوحدة فيها هي، في نفسها، في أعماقها، في دمها كالسرطان تنمو وتتضخم.

وانكفأت ليلى على وجهها وهي تحتضن المجدافين.

حسين هو السبب.. نعم حسين هو المسؤول، قبل أن تعرفه كانت مكتفية بنفسها ومطمئنة ومرتاحة إلى هذا الوضع، ورجته أن يتركها في حالها، أن يبتعد عن طريقها ولكنه لم يبتعد، وذهب وخلف لها وحدة تنهش في جسمها وشعوراً بأن شيئاً عزيزاً ضاع منها.. شيئاً لا تستطيع أن تعوضه.

قال حسين إنها فقدت اللعان في عينيها والإشراق في وجهها، ولكنها في الحقيقة فقدت أكثر من

هذا، أكثر من هذا بكثير، فقدت المحبة، محبة الناس والاطمئنان والاستقرار، ولم يتبق لها شيء سوى الوحدة والشعور بفداحة الخسارة.

لو لم يذهب، لو بقي إلى جانبها.. وهزت ليلى رأسها في يأس.

وما الفائدة؟ كانت وحيدة وهو معها، وهو يحدثها عن حبه، مرّة واحدة فقط اتصلت به، اندمجت معه، حين مر بيده على ذراعها وقال: ((أنا مستنيك يا حبيبتي، طول عمري مستنيك)).

وحتى هذا الاندماج لم يدم، وكأنه كان حلمًا. تغلب عليها الخوف، خافت من محمود ومن حسين ومن الدنيا كلها وأفافت.

وأفاقت ليلى على المجدف يفلت من يدها اليمنى، وينزلق على جدار المركب، وانبعثت فيها كالمارد قوة جبارة، قوة لا عهد لها بها، قوة لم تكن تحلم بأن كيائها يحتويها، قوة جعلتها تتحدى النيل وكأنه ند لها، وكأنهما قوتان متساويتان تتصارعان. في لحظة واحدة كانت قد شددت بقبضتها اليسرى على المجدف، ومالت بكل جسمها إلى جانبها الأيمن لتنتشل الآخر، وانحرف المركب إثر ميلها المفاجئ وارتفع الماء تدريجيًا يقارب حافته، وهي تحاول انتشارل المجدف وتساهي سطح الماء مع جدار المركب.. واعتدلت ليلى والمجدف في يدها، وتتهدت في ارتياح وارتخت في جلستها، وأحست إذ ذاك فقط برعدة الخوف ترتجف في جسمها.

واستدارت بالمركب عائدة، وهي تجدف في بطاء واتزان، والتيار يدفعها إلى الأمام، وسرح نظرها في الأفق البعيد وهي تفكر في التجربة الأخيرة التي مرت بها.. من أين جاءت هذه القدرة على التصرف؟ على العمل في حزم وفي قوة وفي سرعة وبلا تردد؟ من أين؟

وهزت ليلى رأسها في تعجب وهي لا تكاد تصدق أنها واجهت الموقف بهذه الشجاعة. إنها ترتبك عادة أمام أتفه الأمور وتفقد القدرة على التفكير وعلى العمل وتغطي وجهها بيدها وتستسلم لمصيرها، فكيف تصرف والأزمة تواجهها كما يجب أن تتصرف تمامًا؟ بكل سرعة وبكل دقة وبكل قوة؟ وكأن التي تصرفت ليست هي، وكأنها إنسانة أخرى؟ إنسانة أخرى؟! إنسانة أقوى ترقد في أعماقها!

وقال محمود:

- جرى إيه يا ليلى؟ إحنا قلقنا عليك خالص!

كان قد سبح هو وسناء في اتجاهها حين لمحاها تتجه بالمركب إلى الشاطئ. وهزت ليلى رأسها وكأنها تصحو من حلم حين رأت نظرة اللوم تعقب نظرة القلق في عيني محمود.

وقال محمود وقد جمد وجهه والمركب تعود بهم إلى رأس البر:

- إنت مش حتبطلي التصرفات الغلط دي؟! كان ممكن تغرقى وإنت لوحداك كده!

وسرت رجة إلى جسم ليلى، وأشاحت بوجهها بعيدًا، وقالت وهي تهمس وكأنها تخاطب نفسها:

- كنت فعلًا حاغرق!

التحقت ليلى وسناء وعديلة بقسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة.

ومنذ اليوم الأول لافتتاح الدراسة تكتلن وظهرن كشلة متميزة لا تكاد تفترق في الكلية. تختلط مع الطلبة والطالبات في حدود مرسومة، لتبقى دائماً شلة محدودة المعالم.

وإذا أراد طالب أن يتقرب من واحدة من الشلة فعليه أن يتقرب إلى الشلة مجتمعة، وإذا استنقلت دمه واحدة منهن فعليه أن ينسحب، وإذا رغب أن يتحدث إلى واحدة منهن فعليه أن يقول ما يريد أن يقول أمام الشلة مجتمعة وإلا فلا، إذ لا أسرار هناك بين أفراد الشلة، وإذا دعيت واحدة إلى حفل أو نشاط اجتماعي دون الأخريات فلا تذهب لأن الشلة شلة.

وعامل الطلبة والطالبات الشلة كشلة. الشلة تحب هذا وتكره ذلك، الشلة تفعل هذا ولا تفعل ذلك، وكأنهن إنسان واحد لا ثلاث بنات كبيرات، لكل منهن شخصيتها المنفردة المتميزة، ولكل منهن عالم تكشف منه ما ترتئي، وتحجب منه ما ترتئي.

وكانت عديلة أطولهن، عريضة البنيان بلا امتلاء، بيضاء ذات عينين سوداوين كبيرتين، تغطيهما أهداب سوداء سخية، قوية الشخصية، بحيث يدرك من يراها قوة شخصيتها للوهلة الأولى، متكلمة قوية الحجة، لا تترك إنساناً دون أن تقلده تقليداً يثير الضحك من الأعماق، ولا يفوتها ظل من ظلال الفكاهة في أي سلوك إنساني أو أي وضع اجتماعي دون أن تلتقطه وتبلوره وتجعله مصدراً من مصادر الضحك بين الشلة لمدة سنين.

وكانت واقعية أيضاً وعملية بشكل جعل سناء تقول إنه يكفي أن تلمس عديلة أروع قصيدة شعر لتستحيل القصيدة إلى مسألة حساب. ولم تكن ترغب في الالتحاق بقسم فلسفة، كانت تريد أن تلتحق بقسم ((ياكل عيش)) كما تقول، ولكن المجموع لم يترك لها فرصة الاختيار.

وكانت هي التي تشرح ما يستحب وما لا يستحب للشلة، وما يصح ولا يصح، وهي التي تختار وتستبعد المعارف، وتحافظ على سمعة الشلة، وتجعل من حياتها في الكلية وخارج الكلية ضحكة متصلة!

ولكن ضحكة عديلة لم تكن تخلو من مرارة، واتجاهها العملي لم يكن سوى ضرورة أوجبتها عليها الظروف، وتحت هذا المظهر الصلب الصلب، العدوانى أحياناً، كان يخفق قلب يحن إلى الحب كقلب كل فتاة، ولكنها كانت تخفي هذه الحقيقة في عناد.

كانت تقول إن الحب وسيلة المترفين لتضييع الوقت، وإنه ليس لديها وقت تضيعه. كان عليها

أن تساعد أمها في شؤون البيت، وأن تعمل لتتخرج سريعاً، ولتشتغل ولتكسب مالاً تسد به ديون أمها الأرملة، وتساعد به إخوتها الذين يصغرونها سنًا.

والحياة ليست حلمًا ورديًا ولا قصة غرامية، الحياة حقيقة عارية، أفواه مفتوحة تطلب الغذاء والكساء والتعليم، ومعاش ضئيل لا يزيد على سبعة جنيهات، وأب مات فجأة بعد أن فقد وأفقد الأم كل ما كانا يملكان من مال، ومستوى اجتماعي يجب الاحتفاظ به حتى لا يشمت الأقرباء والأعداء.

وكانت سناء مختلفة عن عديلة، وكأنهما تفتان على طرفي نقيض! كانت تحب الشعر والموسيقى والأدب والتحف الفنية الجميلة، وكل ما هو جميل.. وكانت تهتم بمقاييس جسمها، وبتجميله، وبالطريقة التي تلبس بها، وتقضي وقتًا طويلًا في اختيار كل ثوب من أثوابها، وتضفي عليه طابعًا منفردًا يميزه، بالطريقة التي تربط بها الحزام، أو بالوردة التي تحليه، أو بالإيشارب الرقيق الذي تربطه حول رقبتها، وتترك طرفيه القصيرين يتطايران على كتفيها في الهواء.. ولم تكن تبخل على نفسها بشيء، كانت تحب الأشياء الصغيرة الجميلة: كيس النقود الذهبي الصغير كشبكة الصياد، وساعة على شكل أيقونة تتدلى من عنقها، وعطر جميل تتبعث رائحته من منديلها.

وكانت متيسرة بالنسبة لعديلة وليلى، وساعدها ذلك على إحاطة نفسها بإطار من الجمال الذي تحبه، والذي أفلحت في الاحتفاظ به حتى بعد أن تغيرت حالتها المالية.

وكانت تحب الخيال أيضًا، وتستعين به إذا لم يسعفها الواقع، وتعيش فيه ساعات طويلة، وتحب الحب.

وقبل أن تحب محمود، أحبت ((روبرت تايلور)) وهي في الرابعة عشرة من عمرها، وحفرت الحرف الأول من اسمه على ظهر يدها بالموسى، وتركت الدم ينبع دون أن تقر به، حتى يستقيم حرف الرء حين يجف الجرح. وكلما زال أثر الجرح، جرحت نفسها من جديد.

وكانت قليلة الكلام، تنصت أكثر مما تتكلم، ويبدو وجهها الأبيض الصغير هادئًا، ونادرًا ما يعكس الانفعالات العنيفة التي يضطرم بها جسمها الصغير الممتلئ.

وكان الناس يحسبونها خجولًا، ولكنها كانت في الحقيقة معتزة بنفسها، ولم يكن ذلك الاعتزاز كبرياء ولا تعاليًا، وإنما كان شعورًا هادئًا مطمئنًا، ينبعث من إيمان مطلق بصحة تصرفاتها. وكانت تتساق لعديلة وليلى في الأمور الصغيرة بلا مناقشة، مما جعلهما يعتقدان أنها سهلة القيادة، ولكن هذا الانسياق لم يكن في الحقيقة ضعفًا، كان كرمًا ينبعث من رغبة أكيدة في إرضاء من تحب.

ولم تكن عديلة تظن ولا ليلى أن هذه الفتاة الصغيرة رقيقة الشفتين سهلة القيادة، التي تعيش في الخيال، تتطوي ضلوعها على عزيمة جبارة وعلى قدرة عملية، لا تقل عن قدرة عديلة.

كانت تعرف ماذا تريد وكيف تصل إلى ما تريد وكيف تحتفظ به.



وعندما توطدت علاقة سناء بمحمود في رأس البر، اكتشفت أنها لا تستطيع أن تعيش من غيره، قبل أن يكتشف محمود هذه الحقيقة بشهور.

وكانت العلاقة التي قامت بينهما مختلفة عن الحب الذي تصورته دائماً، الحب المصحوب بالحرقة واللوعة والغيرة والشك والأرق، الحب الذي عرفته عن طريق روايات السينما وروايات الغرام. كانت شيئاً هادئاً حلواً نما نمواً مطّرداً وفصلها عن الخيال، وربطها بالأرض، وجعلها تشعر لأول مرّة في حياتها، أنها تسير على أرض صلبة وجميلة في ذات الوقت.

وعلى هذه الأرض انتوت أن تعيش طوال حياتها.

وعندما عادا إلى القاهرة كانت تراه في البيت حين تزور ليلي، وتتفرد به أحياناً حين تعتمد ليلي تركهما معاً. ولم تقنع سناء بهذه المقابلات العابرة، واقتрحت أن يتقابلا في الخارج. وبدأت الدهشة على وجه محمود لحظة، وقال شيئاً عن سمعتها، وضرورة صيانتها.

وركزت هي عينيها الصغيرتين في عينيه وقالت:

- أنت عايز تقابلني ولّا لأ؟

- طبعاً عايز.

- خلاص.

وكانت تعني ما تقول، فمنذ أن بدأت تحب محمود لم يعد هناك شيء له قيمة سوى محمود، وكأنها لم تعد ترى إلا من زاوية واحدة: الزاوية التي تصلها بمحمود. وأصبحت أفكار محمود أفكارها، وانفعالات محمود انفعالاتها، ومشاريع محمود مشاريعها.

وبدأ يتقابلان بانتظام في صالة فندق ((المتروبوليتان))، ويجلسان في ركنهما المختار في الضوء الخافت. ويتكلم هو أغلب الوقت، وتتصت هي أغلب الوقت، وهي تحتضن بعينيها الهادئتين كلامه.

ونمت يوماً بعد يوم في كيانه حتى أدرك يوماً أنه لا غنى له عنها. وكانت تعرف طوال الوقت أن ذلك اليوم آتٍ، ولكن حين أتى، ارتجف في أعماقها حب جديد، فوق الحب القديم، حب أشبه بذلك الذي يعمر قلب الشهيد. وقالت لمحمود:

- عارف يا محمود؟ أنا نفسي أعمل حاجة تثبت لك قد إيه أنا باحبك! نفسي أموت نفسي عشائك!

وأمسك محمود بيدها في حنان وقال:

- أنا عايزك تعيشي عشاني يا سناء، أنا من غيرك ما أساويش حاجة!

وكان هو يعني ما يقول.. كان يشعر وهي معه أنه قوي، أنه قدير وممتاز ووسيم، وأن الدنيا

من حوله مليئة بالحب، وبالإخلاص والتضحية والجمال، وأن القيود التي كانت تربطه بالأرض وبالخوف وبالشك وبالحيرة وبالقلق، قد انحلت فجأة، وأنه يستطيع أخيرًا أن ينطلق، وأن يطير لو اقتضى الأمر.

وتتطلع إليه سناء، وترى العينين الحائرتين وقد استقرتا، والتمعتا بالثقة الباسمة، وتحتضن بعينيها عينيها، وأحلامه والفرحة التي تضطرم في قلبه، وتطوي عليها جوانحها، وتعيش بها ولها وفيها. وفي عالم أخفته عن عديلة ولا تعرف عنه ليلي إلا القليل.

فليلى لا تعرف أنهما يتقابلان في الخارج، ولا تعرف أنهما يحلمان بمستقبل يجمعهما، ولا تعرف أنهما يناقشان فعلًا التفصيلات العملية.

وكان من المفروض أن تخبر سناء ليلي بكل هذه التفصيلات، ولكنها لم تخبرها، توقف الكلام على شفتيها في كل مرة همت فيها بفتح الموضوع لليلي، كانت تشعر شعورًا غامضًا أن ليلي لن تفرح لفرحتها، ولن تتفعل لانفعالاتها، ولن تحلم معها كشأنهما دائمًا. كانت تدرك أن شيئًا ما قد فصل ليلي عنها، وجعلها أقرب إلى عديلة منها إليها، على عكس ما كان عليه الحال دائمًا.

كانت ليلي دائمًا أقرب إلى سناء منها إلى عديلة، وفي داخل نطاق الشلة كانتا تكونان وحدة حقيقية، وحدة يغذيها تقارب في المزاج وفي المشاعر وفي الذوق، وفي مفهومات الحياة.. ثم حدث تطور بعد تجربة ليلي مع عصام. نأت ليلي عن سناء، وانجذبت بكليتها إلى عديلة. وقالت:

- عارفة يا سناء، عديلة أعقل واحدة في الشلة بتاعتنا، لو كنت سمعت كلامها ما كانش حصل إللي حصل، كانت دايماً تقول لي: ((ما تتدلقيش))، واندلقت زي الرطل!

وفي واقعية عديلة الباردة وجدت ليلي العزاء، ومع عديلة بدت لها الحياة سهلة بلا تعقيد، ولا أوهام ولا آلام، وكأنها مسألة حساب يتبع الإنسان قواعدها، فيصل إلى الحل الذي لا يختلف عليه اثنان. والمهم أن يتبع الإنسان هذه القواعد خطوة بخطوة، في دقة وفي تعقل وفي حرص، وبعد تفكير، ودون اندفاع، وإلا غشت بصيرته واختلطت عليه الأرقام، وتشابكت وتعقدت، وأصابته الإنسان حيرة لا مخرج له منها.

والقواعد مرسومة معروفة تعرفها عديلة، ويعرفها كل الناس. ومن يعرفها يعرف الفرق بين الخطأ والصواب، ومن يتبعها يسير في طريق الصواب، حيث الاستقرار والاطمئنان، وراحة البال، والاحترام، والثقة بأن الإنسان على صواب، لا صوابه هو فحسب، بل صواب الآخرين، كل الآخرين.

وإذ ذاك لن يكون الإنسان وحيدًا ضعيفًا، لن يواجه الحياة وحيدًا ضعيفًا، بل مع الآخرين، يسندونه في كل خطوة يخطوها، ويؤيدونه ويحمونه، ما دام يتبع القواعد، قواعدهم.

وعلى هذه الأرض الصلبة إلى جانب عديلة وقفت ليلي بعد تجربتها مع عصام، وفي نطاق القواعد المرسومة، عاشت تتحصن ضد الحياة التي تخشاها، وتكبت منابع الاندفاع والانطلاق في

طبيعتها، وتواجه الحياة بوجه بارد، وقلب بارد، وإحساس بارد، وتصرفات محسوبة معدودة، وبراحة نفسية مبنية على شعورها بأنها على صواب، وبأنها مكتفية بذاتها، وإن إنساناً ما لا يستطيع أن يؤذيها، أو يؤلمها.

ثم مر حسين بحياتها، ومسها تيار الحياة دافئاً دافئاً فواراً مثيراً مليئاً بانفعالات حية، لا يكاد يحلم بها من يتمسكون بالقواعد ويجيدون الحساب.

ووقفت ليلى على الشاطئ ترقب تيار الحياة وهو يتدفق، وشيء في قلبها يثور ويتمرد، يريد أن يصل ما بينها وبين تيار الحياة، وشيء في عقلها يشدها إلى الوراء، ويطوقها، ويحبسها على الشاطئ.

بقيت على الشاطئ، ولكن تيار الحياة عمق من شعورها بالوحدة والعزلة.

واشتد ارتباط ليلى بعديلة، وكأنها تستمد من هذا الارتباط القدرة على الوقوف على قدميها.. وازداد تباعدها عن سناء.

كانت عديلة تقف على أرض تستطيع ليلى أن تلمسها وأن تطمئن إليها، وكانت سناء تحلق في أجواء تخشى ليلى من مجرد التطلع إليها.

وفي عقل ليلى ارتبط حسين بهذه الأجواء، فهو يقف هناك عاليًا ينتظر، ينتظرها هي، وهي لا تستطيع، ولا ترغب في أن ترتفع إليه حيث ينتظر.. حيث يعيش الإنسان في حمى مستمرة، حيث لا يعرف أين يقف، حيث يرى الأشياء على غير حقيقتها، ويشعر بقوة ليست له، وبجمال ليس فيه، وبسعادة أكبر مما يتحملها كيانه، وحيث يرتبط بالسما بخيط رفيع، ينقطع فجأة، ويسقط الإنسان على الأرض.. حطام إنسان.

واستطاعت ليلى أن تخفي حقيقة حبها لحسين حتى عن نفسها، وأن تكبت حنينها له، أولاً بأول. وترسب الحنين طبقات فوق طبقات، وكمن في الأعماق مع رغبته الدافقة في الحياة، وفي الانطلاق.

وعلى السطح طفت الخديعة التي عاشتها ليلى في هذه المرحلة.

نظرت ليلى إلى ساعة الجامعة، وهي تدخل من الباب الخارجي. ودقت الساعة معلنة العاشرة إلا الربع. واتجهت ليلى إلى المبنى الرئيسي بكلية الآداب، وترددت قليلاً وهي تصعد السلم إلى الدور الثاني.. ليس من اللياقة أن يراها المحاضر، وأن يدرك أنها كانت في الكلية ولم تحضر محاضراته. ولكن كيف يدرك غيابها وفي المحاضرة عدد ضخم من الطلبة والطالبات؟

وزيادة في الاحتراس توقفت ليلى على مبعدة من إحدى الحجرات، ووقفت تنتظر خروج سناء وعديلة.

وانفتح باب الحجرة، وتزاحم الطلبة والطالبات في الخروج، وضحكت فتاة صغيرة سمراء واسعة العينين، كالقطة، وقالت لزميلتها:

- شفتي سوزي، كانت عاملة في نفسها إيه؟

- ما خدنتش بالي.

- كاشفة نصف صدرها، ومغرقة نفسها برفان، ومسبلة عينيها للأستاذ طول المحاضرة.

وقالت صديقتها، وهي مغرقة في الضحك:

- وأظن صاحبنا ولا هو هنا، إن الجبل اتحرك يبقى يتحرك هو. ولكزتها الفتاة الصغيرة في ذراعها منبهة.

وانشق موج الطلبة المتدافع، وظهر الدكتور فؤاد رمزي خارجًا وهو يمشي في خطوات بطيئة متزنة، تتبعه سوزي برائحتهما العبقة وفريق من الطلبة والطالبات.

ومشى الدكتور رمزي وقامته الطويلة منتصبه، ووجهه الأبيض، شاحب البياض الوسيم، خالٍ من التعبير، وعيناه الباردتان مصوبتان إلى الأمام، وكأن هؤلاء الطلبة والطالبات لا يتبعونه، وكأنهم لا يحدثونه، وكأنه لا يسمع ما يقولون.

وبدا لليلي كما لو كان يمشي في طريق خالٍ ليس فيه غيره، كما لو كان قد اختفى خلف صندوق زجاجي، يعزله عن الآخرين.

واقترب الدكتور رمزي إلى حيث تقف ليلي. ولم تدر كيف رآها وعيناه مصوبتان هكذا إلى الأمام، ولكنه رآها. وطافت عيناه حولها ثم استقرتا عليها، وكأنهما تعانينها، وكأنهما تزنانها، بلا رغبة وبلا فضول، وببطء وبغناية، كما يعاين الإنسان قطعة نقود في يده ليتأكد أنها ليست مزيفة. وانزاحت العينان، وتنفست ليلي في ارتياح.

ولكن الدكتور رمزي توقف أمامها، وقال وهو يصوب نظره إلى الأمام وكأنه لا يراها:

- كنت فين يا أنسة؟

واحمر وجه ليلي والدكتور رمزي يواجهها، والطلبة من خلفه يتطلعون إليها في سرور وفي فضول، وكأنها فأر وقع في المصيدة. وتمالكت نفسها، وقالت في صوت ضعيف:

- جيت متأخرة.

- وبعدين؟!

وأدركت ليلي أنه يسألها هذا السؤال ليحرجها، وليصل إلى مرحلة التقريع والتأنيب، ولم تقل شيئًا.

- تاني مرة ابقى نظمي مواعيدك! إللي عايز يتعلم ضروري ينظم مواعيده!

قال الأستاذ هذه الكلمات دون أن ينظر إليها، وبصوت بارد وكأنه يؤكد لها وللآخرين، أنه في حقيقة الأمر لا يهتم بها في كثير ولا في قليل، سواء نظمت مواعييدها أم لم تنظمها، انحرقت بنار أو لم تتحرق. وأعقت النصيحة الغالية ضحكة من طالب، انصرف الأستاذ على إثرها، وترك ليلي والعرق يبيلل جبينها.

ودارت عينا ليلي تبحثان بلا جدوى عن عذيلة وسناء، والتقت عيناها بعيني الطالب الذي ضحك، عنين وقحتين جريئتين، يعمقان من شعورها بالوحدة. وتركت ليلي المكان وهي تكاد تهزول.

* * *

وانحرفت ليلي إلى حجرة الطالبات، ودفعت الباب، وانهارت على أقرب مقعد، وألقت حقيبتها على الأرض بجانبها، واحتفظت بمذكراتها في حجرها، وبدأت تنتظر إلى الموجودات بطرف عيناها، وكأنها تخشى أن ترفع رأسها.

على المائدة وسط الحجرة جلست طالبة تنقل محاضرة من مذكرات مفتوحة أمامها، وإلى يمينها جلست أخرى تلمع حذاءها بقطعة من الصوف، وفي مواجهتها واحدة تشرب الشاي في قرف شديد وكأنها قد وجدت فيه عقرباً، وأمام المرأة وقفت زميلتها نوال أو ((النحلة)) كما يسميها طالبة سنة أولى في قسم الفلسفة.. وقفت تسوي حاجبها الرفيع بطرف المشط.

والتقت عينا ليلي بعيني نوال في المرأة، وأشاحت ليلي بوجهها بعيداً. كانت عذيلة قد قررت أن سمعة نوال بطالة في الكلية، وأن الاختلاط بها يسيء إلى سمعة الشلة. ومن يومها تجنبته ليلي، إلا في حدود تبادل التحية.

ونقلت نوال المشط إلى الحاجب الآخر وهي تسويه:

- صباح الخير.

ولم تستطع ليلي وهي ترد على تحية نوال، أن تتغلب على الضيق الذي كانت تشعر به إذ ذاك. ولحظت نوال هذا الضيق، وحسبته موجهاً إليها، ورفعت حاجبها في استنكار، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة، واستدارت لليلي:

- لك جواب في اللوحة.

وقالت ليلي في تعجب واضطراب:

- جواب! لي أنا؟

وانسعت ابتسامة نوال، وضافت عيناها في نظرة خبيثة:

- جواب.. أهو.

وأشارت بيدها إلى لوحة الخطابات، وعادت تواجه المرأة، تسوي الثوب على جسدها الصغير، وتشد الحزام على خصرها الدقيق دقة غير عادية.

ووقفت ليلى أمام اللوحة، وأدركت من الطابع الأجنبي أن الخطاب من حسين.

ومدت يداً مرتجفة وأخذته، ودسته في مذكراتها، واندفعت تجاه الباب.

ونادتها نوال وهي تنتنى وتمط في مخارج ألفاظها:

- ليلى.

وتوقفت ليلى على عتبة الباب مسمرة، وكأن أحداً ضبطها وهي تسرق شيئاً، ثم استدارت ببطء ورأت كوب الشاي وقد توقف عند فم صاحبته، والفتاة التي تلمع حذاءها، وقد ارتخت في جلستها، ووضعت ساقاً على ساق، وكأنها مقبلة على مشاهدة موقف مسلّ، ونوال وقد وضعت يدها في خصرها، وفي عينيها نفس النظرة الخبيثة.. تقول:

- شنطتك، نسيتي شنطتك.

وانحنى ليلى لتتناول حقيبتها الموضوعة على الأرض، وأطالت في انحناءتها، وهي تحاول أن تخفي اضطرابها، ثم استقامت، وخرجت من الغرفة وهي تكاد تهزول.

واستوقفتها طالبة في الممر، وقالت لها شيئاً، لم تفهم منه إلا كلمة ((عديلة))، وتمتمت هي بشيء ما، لم تدرك ما هو واستمرت في اندفاعها.

لمحت ليلى حجرة دراسية خالية، ودخلتها واختارت مكاناً في آخرها، وجلست. فتحت الخطاب بيد مرتجفة.

عزيزتي ليلى،

لم أكن أريد أن أستعمل كلمة ((عزيزتي))، بل أردت أن أستعمل كلمة أخرى، كلمة أقرب إلى الحقيقة وإلى شعوري نحوك، ولكنني خفت أن أخيفك وأنا أعرف أن من السهل إخافتك. من السهل بشكل مؤلم، مؤلم لي على الأقل.

وهذا أيضاً هو سبب ترددي في الكتابة إليك، ولكن حنيني الجارف إلى الوطن لم يترك لي الاختيار فقد أصبحت أنت رمزاً لكل ما أحبه في وطني، وعندما أفكر في مصر أفكر فيك، وعندما أحن إلى مصر أحن إليك، وبصراحة أنا لا أنقطع عن الحنين إلى مصر.

أكاد أراك تبتسمين، فأنت لا تصدقيني. أليس كذلك؟ أنت لا تتقين

بي، أنت تقيمين بيني وبينك الحواجز، أنت لا تريدين أن تتطلقي وأن تتركي نفسك على سجيبتها، لأنك تخشين أن تتعلقي بي، أن تفني كيائك في كياني، أن تستمدي ثقتك في نفسك وفي الحياة مني، ثم تكتشفين كيائك مدلولًا - كالكهوة - في غرفتي.

وأنا أحبك وأريد منك أن تحبيني، ولكني لا أريد منك أن تفني كيائك في كياني، ولا في كيان أي إنسان. ولا أريد لك أن تستمدي ثقتك في نفسك وفي الحياة مني أو من أي إنسان. أريد لك كيائك الخاص المستقل، والثقة التي تنبعث من النفس لا من الآخرين.

وإذ ذاك - عندما يتحقق لك هذا - لن يستطيع أحد أن يحطمك، لا أنا ولا أي مخلوق. إذ ذاك فقط، تستطيعين أن تلطمي من يلطمك وتستأنفي المسير. وإذ ذاك فقط تستطيعين أن تربطي كيائك بكيان الآخرين، فيزدهر كيائك وينمو ويتجدد، وإذ ذاك فقط تحققين السعادة فأنت تعيش يا حبيبتي، وقد حاولت، ولم تستطعي، أن تخفي عني تعاستك.

لقد انحبست في الدائرة التي ينحبس فيها أغلب أفراد طبقتنا، دائرة ((الأنأ))، دائرة التوجس والركود، دائرة الأصول، نفس الأصول التي جعلت عصام يخونك، وجعلت محمود يشعر بالعزلة في معركة القناة، وجعلت طبقتنا، كطبقة، تقف طويلًا موقف المتفرج من الحركة الوطنية، نفس الأصول التي تكرهينها وأكرهها، ويكرهها كل من يتطلع إلى مستقبل أفضل لشعبنا ووطننا.

وفي دائرة ((الأنأ))، عشت تعيش، لأنك في أعماقك تؤمنين بالتححرر، بالانطلاق، بالفناء في المجموع، بالحب، بالحياة الخصبة المتجددة.

عشت تعيش لأن تيار الحياة فيك لم يمت، بل بقي حيًا يصارع من أجل الانطلاق.

فلا تنحبسي في الدائرة الضيقة، إنها ستضيق عليك حتى تخنقك أو تحولك إلى مخلوقة بليدة معدومة الحس والتفكير.

انطلقي يا حبيبتي، صلي كيائك بالآخرين، بالملايين من الآخرين، بالأرض الطيبة، أرضنا، وبالشعب الطيب، شعبنا.

وستجدين حبًا، أكبر مني ومنك، حبًا كبيرًا، حبًا جميلًا.. حبًا لا يستطيع احد أن يسلبك إياه، حبًا تجدين دائمًا صداه يتردد في الأذن، وينعكس في القلب، ويكبر به الإنسان ويشتد: حب الوطن وحب

الشعب.

فانطلقى يا حبيبتي، افتحي الباب عريضًا على مصراعيه، واتركيه مفتوحًا.

وفي الطريق المفتوح ستجديني يا حبيبتي، أنتظر، لأنني أثق بك، وأثق في قدرتك على الانطلاق، ولأنني لا أملك سوى الانتظار.. انتظر.

حسين عامر

ملحوظة:

أردت أن أكتب خطابًا خفيًا، ولكنني وجدت نفسي أتفلسف بالرغم مني، (وهذه نقيصة أخرى من نقائصي يمكن أن تضيفها إلى القائمة).

ولكن أنت أيضًا تحبين الفلسفة وتحبين.. تحبين كل الأشياء التي أحبها.

صدقيني يا ليلي لقد خُلقنا لبعضنا.

وتناوبت مشاعر من الحنان والحزن على وجه ليلي، وهي تقرأ الخطاب.. وعندما فرغت منه، مالت بنصفها الأعلى وقد حدت النظر إلى الأمام. وأشرق وجهها وكأنها ترى رؤيا جميلة، رؤيا بعيدة التصديق.. رأت نفسها تمشي بخطى جبارة إلى باب مغلق فتدفعه، وتقف على أقدامها على عتبة الباب تتلقى أشعة النور تغمرها وتلفها، وتتلفت لفظة أخيرة إلى الغرفة المظلمة التي انحسرت فيها، فإذا بالنور قد أضاء جوانبها، وتسير إلى الأمام، لا يخيفها إنسان ولا يهينها إنسان، تلطم من يلطمها وتستأنف المسير!

ودقت ساعة الجامعة، وانتصبت ليلي واقفة، وكأنها تيقظت لتوها من النوم، وطوت الخطاب، وخرجت من الغرفة، ونزلت من على السلم الخلفي، بخطى متباطئة.

وفي نهاية السلم كادت تصطدم بعذيلة.

واجهت عديلة ليلي بوجه جامد، وبشفتين مطبقتين. وجرتها من يدها حتى انتحنا ركنًا خاليًا تحت السلم، وقالت:

- جواب إيه إيلي جالك؟

ونظرت إليها ليلي في دهشة، ولم تقل شيئًا.

واستأنفت عديلة كلامها:

- أنا كنت حاضرب البت أم حواجب دي. أدخل أودة البنات، أسأل عليك، تقول لي، قدام عشرين بنت: ((صاحبك جالها جواب أزرق)).. وخرجت ملبوخة!

وأشاحت ليلي بوجهها، وتنهدت، وكأنها قد تلقت صفة على وجهها.. ولمحت سناء تعبر الحديقة وهي تسير في اتجاههما، وقالت:

- مفيش داعي تهولي المسألة يا عديلة!

- لو كنت شفت الضحك والغمز، كنت عرفت إني ما باهولش.

وقالت سناء وقد انضمت إليهما دون أن تشعر بها عديلة:

- مالكم مبلمين ليه؟

ولم يرد عليها أحد. وأعادت السؤال:

- والنبي مبلمين ليه؟

وقالت ليلي في صوت ضعيف، وقد تهدلت كتفاها:

- جالي جواب.

كما لو كانت قد قالت: ((جات لي مصيبة)).

وانفجرت سناء ضاحكة، ورمتها عديلة بنظرة قاسية، وقالت وهي تؤكد خطورة هذا الخطاب بالذات:

- جواب أزرق يا ستي!

ولمعت عينا سناء وقالت وهي تضحك:

- لأ يا شيخة؟!

ومدت يدها إلى ليلي تصافحها وهي تقول:

- طيب إيدك على كده بقّه.

وبقيت يدها معلقة في الهواء، نظرت إليها عديلة شزراً ولكزتها ليلي في جنبها محذرة.

وقالت سناء:

- إيه الحكاية؟ ما تفهموني، كل المحزنة دي، على جواب أزرق؟!

وقالت ليلي موجهة الكلام إلى عديلة:

- على فكرة، كل الجوابات إللي بتيجي من ألمانيا زرقّة، مش ده بس!

وتهلل وجه سناء، وأحاطت ليلي بذراعيها، وقالت:

- من حسين؟ من حسين يا ليلي؟

وبدت في عينيها فرحة حقيقية، وكأنها هي التي تلقت خطاباً من حبيبها:

- بيقول إيه؟ بيقول إيه يا ليلي؟

وتطلعت عديلة إلى ليلي، تنتظر إجابتها على سؤال سناء، وقد أنساها الفضول مؤقتاً، الفضيحة التي صورتها.

واحمر وجه ليلي..لا، لن تطلع عديلة على خطاب حسين، ولا سناء، ولا أي مخلوق. إن ما في الخطاب سر بينها وبين حسين، سر لا يعرفه غيرها وغيره، ولن يعرفه غيرهما أحد. لو قرأت سناء الخطاب أو عديلة لخلجت منهما، لشعرت كما لو كانت قد وقفت أمامهما عارية.

وأطبقت ليلي شفتيها، وأدركت عديلة أنها لن تتكلم، وقالت:

- حيقول إيه يعني؟ الكلام إياه المحفوظ، باحبك وباموت فيك ولا ليش غيرك. وتلاقيه ما بيفوقش من البنات الألمان.

وابيضت شفقا ليلي.

وقالت سناء:

- يا شيخة حرام عليك، هي الدنيا يعني خلاص، مفيهاش إخلاص؟

وضحكت عديلة في سخرية:

- فيها يا ست سناء، في الروايات إللي بتقريها! تقدري تقولي لي لما سي حسين بيحب ليلي، ما طلبهاش من أهلها ليه؟

وقالت ليلي في صوت مكبوت:

- كفاية يا جماعة، أنا مش عايزة السيرة دي خالص!

ولكن المعركة كانت قد تطورت بين سناء وعديلة إلى حد لا يمكن السيطرة عليه.

وقالت سناء:

- يتجوزها إزاي؟ هيَّ شروء؟! إذا كانت دي واحدة كاشة وخايفة! يقول لها ((باحبك)) تقول له ((ما باحبكش)).. يعمل إيه؟ يشتريها؟! الراجل منتظر!

وكادت ليلي تصرخ وهي تقول:

- كفاية!

ألمها أن تناقش عديلة وسناء موضوعًا خاصًا بها هكذا، وكأنها غير موجودة، وكأنها غائبة، وكأنها قطعة من حجر لا قيمة لها.

ولكن عديلة لم تهتم باحتجاج ليلي، وردت على سناء في سخرية لاذعة:

- مسكين حسين؟ صايم، مش كده؟ ومنتظر لما المدفع يضرب.. على العموم الشعر الأصغر والعينين الزرق ما تقطرش.

- وقالت ليلي وشفتاها ترتجفان:

- على العموم أنا ما يهمني، شعر أصفر، زفت، قطران، موضوع حسين دا كله ما يهمني! ومش عايزة حد يتكلم فيه!

ونظرت سناء إلى ليلي نظرة جانبية فيها حسرة، ثم هزت كتفها في يأس، واستأنفت المسير.

أما عديلة فلم يكن من المهل تثبيط همتها، كان عقلها يستجمع الخطوط، ويصل إلى قرارات سريعة، بشأن الخطوات العملية التي ينبغي أن تتخذها ليلي لمواجهة الموقف.

وفي عصر ذلك اليوم زارت عديلة ليلي في البيت، وقابلتها ليلي بجفاء ملحوظ، كانت تدرك أنها ستضيق عليها الخناق، وتجبرها على اتخاذ خطوة عملية، وكانت تكره في هذه المرحلة اتخاذ أي خطوة عملية.

وركزت عديلة نظرها على ليلي، وقالت:

- حتعملي إيه؟

وأشاحت ليلي بوجهها بعيدًا ولم تجب.

وتكلمت عديلة، قالت إن واجبها كصديقة يحتم عليها أن تنبه ليلي إلى خطورة الموقف، وإن هناك حلًا واحدًا لا بديل له، وهذا الحل هو أن تكتب ليلي لحسين خطابًا، ترجوه فيه أن ينقطع عن الكتابة إليها لأن تسلمها لخطاباته يسيء إلى سمعتها في الكلية.

وقفزت ليلى واقفة كالملدوغة.

واستأنفت عديلة كلامها بنفس الهدوء.. بل إن من المستحسن أن تكتب هي (أي عديلة) الخطاب بخط يدها، وتمضيه باسم ليلى، حتى لا يستخدم كسلاح يهدد استقرار ليلى في المستقبل، حين تخطب أو تتزوج ((وياما بيوت خربت بالشكل ده)).

واكتسى وجه ليلى بالرعب والاستنكار، وقالت في صوت ضعيف:

- مستحيل! مستحيل يا عديلة! إنت ما تعرفيش حسين!

وأشاحت عديلة بيدها، تستبعد كلام ليلى، وقالت إن كل الرجال سواء، وإن حسين ليس أفضل ولا أسوأ من غيره، وإن الاحتراس لم يضر أبدًا أحدًا.

وانهارت ليلى على مقعدها.

واستأنفت عديلة كلامها وهي تتساءل:

- هل هناك حل آخر؟

واستبعدت أن تكون ليلى راغبة في إيجاد علاقة بينها وبين حسين، وفي تبادل الخطابات معه بصورة منتظمة، لأنها ليست من هذا الطراز الرخيص من الفتيات اللاتي يستهن بالأصول، فلا يفزن في النهاية إلا باحتقار الرجل. فما الحل إذن؟ ليس هناك إلا الحل الذي تقدمه، الحل الذي يحسم الموقف حسمًا سريعًا وفعالًا.. وإذا لم ترد ليلى على حسين فسيعتبر هذا تشجيعًا له على الكتابة، وسيكتب بدل المرة مرّات وتتسع الفضيحة في الكلية، يومًا بعد يوم، حتى تصبح سمعة ليلى مضغة في الأفواه. فهل هي مستعدة للتضحية بسمعتها؟ بأعلى ما تملك كل فتاة؟

وسكنت عديلة لحظة بعد أن انتهت من عرض الموقف ثم قالت وهي ترقب ليلى:

- إيه رأيك؟

واستندت ليلى برأسها على مسند المقعد وأغمضت عينيها، وقالت:

- ما أقدرش! ما أقدرش يا عديلة!

وقالت عديلة بقسوة:

- ليه؟ بتحبيه؟!

وهزت ليلى رأسها في يأس، وقالت:

- مش كده! مش كده!

- أمال إيه؟

وفتحت ليلى عينيها، ومالت بنصفها الأعلى في اتجاه عديلة، ثم قلبت يديها، وكأنها عجزت عن تفسير الموقف لعديلة، وقالت بصوت يختلط بنبرة البكاء:

- حاقول إيه؟ مش حتفهمني!

وقامت عديلة واقفة، وقالت:

- أصلي حمارة! على العموم، أنا إيلي عليّ عملته، وأنت حرة في حياتك!
وخرجت غاضبة.

* * *

ولمدة أسبوع ظلت الحيرة تستبد بليلى، والدموع تسيل من عينيها، وهي تفكر، في الترام وفي الشارع وفي البيت وفي كل مكان تنفرد فيه، والتفكير يسلمها إلى مزيد من التفكير، وهي لا تستطيع أن تنزل على رأي عديلة.

وكانت ما تزال تفكر وهي تجلس بين عديلة وسناء، في محاضرة الدكتور رمزي، وصوت الأستاذ يصلها من بعيد.. حجج عديلة واضحة ومقنعة، ولكنها لا تستطيع أن تقذف في وجه حسين بحبه لها، لا تستطيع أن تطعنه بسكين وقلبه وكيانه متفتح لها، لا تستطيع أن تضرب اليد التي امتدت إليها، لا تستطيع أن تقطع خط النور الوحيد الذي يلتصق في حياتها.

إن هذا يعني نهايتها، يعني أن تبقى دائماً في الدائرة المغلقة في الحجرة المظلمة.

الدائرة المغلقة؟! الحجرة المظلمة؟! كلام فارغ، أوهام. الدائرة المغلقة هي التي حبسها فيها عصام، وسيحبسها فيها حسين يوماً ما، وهي الابتسامة الساخرة التي تواجهها بها نوال، حين تصادفها في الممر، وهي جفاف عديلة، والاستتكار المرتسم على وجهها. هذه هي الدائرة المغلقة التي يجب أن تخرج منها.

ولكنها لا تستطيع، لا تستطيع أن تؤلم حسين.. ويخفق كيان ليلي بالحنان، وهي ترى ملامح حسين القوية تلين في ابتسامته الجميلة فيصبح وجهه طفل رضيع.. أبداً لم يعاملها إنسان بالرقّة التي عاملها بها حسين، ولم يعرفها إنسان على حقيقتها، كما عرفها حسين، وكأنّ الحجاب قد زال بينهما، وكأنه يستطيع أن يرى ما داخل أعماقها.. ((صديقي يا حبيبي لقد خُلقنا لبعضنا)).. لا إنها لا تستطيع أن تؤلمه وأن...

وأفاقت ليلي على سناء تلمس ذراعها، والدكتور رمزي يردد اسمها ((الآنسة ليلي سليمان)).

وأدركت أنه قد وجه إليها سؤالاً لم تسمعه، وقفزت واقفة وقالت في صوت حاولت أن تكسبه هدوءاً:

- أرجو إعادة السؤال.

وأعاد الدكتور رمزي السؤال، ووقف ينتظر وعيناه تضيقان عليها الخناق، لتعترف. وقالت ليلي بصوت خافت:

- آسفة.. ما تتبعثش المحاضرة!

وقال الأستاذ:

- طبعًا.. كنت سرحانة!

وتعالت الضحكات في الفصل، ووجه الأستاذ نفس السؤال لطالب في الجانب الآخر من المدرج.

ومالت نوال على سوزي وقالت شيئًا، وضحكت سوزي ثم استدارت لتواجه ليلي التي جلست خلفها، وقالت هامسة وهي تبتسم:

- إيلي واخذ عقلك يتهنى به.

ولكن ابتسامة سوزي ماتت على شفيتها، حين نظرت إليها عديلة وقالت في صوت مكتوم:

- اتعدلي أحسن لك، وبلاش الكلام الفارغ ده!

واعتدلت سوزي.

ونظرت ليلي من طرف عينيها إلى عديلة، ولكن عديلة أشاحت بوجهها عنها في غضب.

وبعد أيام كانت ليلي تمر بالبهو الخارجي مع عديلة وسناء حين استوقفتهن نوال وقالت في خبث وسخرية:

- ليلي.. لك جواب في أودة البنات.

وابتسمت عديلة في مرارة وانتصار، وكأنها تقول لليلي: ((جالك كلامي))!

وعندما ذهبت ليلي لتأخذ خطاب حسين، وجدت الحجرة مليئة بالطالبات، ومشت إلى اللوحة في اضطراب، ومدت إلى الخطاب يدًا مرتجفة، وخيل إليها أن كل العيون مسلطة عليها، وشعرت بالخطاب يحرق يدها ودسته في الحقيبة واستدارت وهي تتحاشى أن يلتقي نظرها بأحد.

وفي الطريق إلى الباب اصطدمت بالمائدة وفقدت توازنها، وخرت على الأرض راكعة، وسمعت ضحكات عالية، وضحكات مكتومة، وغشي بصرها وهي تجمع ما تناثر من حقيبتها فتحسست الأرض بيديها كالعمياء.

وفي عصر ذلك اليوم، زارت ليلي عديلة دون سابق اتفاق، وجلست في الصالون تنتظر وقد تصلب جسمها، وجمد وجهها.

وبعد أن صافحت عديلة دست في يدها ورقة بيضاء مطوية.

وقالت عديلة:

- إيه دي؟

وأجابت ليلي في اختصار:

- عنوان حسين.

وفهمت عديلة أن ليلي قد قبلت الحل الذي عرضته عليها، وأن هذا القبول يكلفها ألمًا نفسيًا عميقًا، وبدا الحزن في عينيها وهي تقول، وقد تهدج صوتها:

- أنا باعمل كده عشان مصلحتك يا ليلي!

- أنا عارفة.

- تحبي تكتبيه إنت يا ليلي في البيت لوحدهك؟

وهزت ليلي رأسها بالنفي. فقد حاولت أن تفعل ذلك ولم تستطع. واقترحت عديلة أن تكتب هي الخطاب، في وقت آخر.. في غيبة ليلي.

وقالت ليلي بصوت مكتوم:

- دلوقت.

ولم تفهم عديلة إصرار ليلي على مواجهة هذا الموقف المؤلم إلا بعد أن بدأت عملية الكتابة. لم توافق ليلي على النسخة الأولى التي كتبتها عديلة، ولا النسخة الثانية.. وقالت:

- حاجة أرق! حاجة رقيقة يا عديلة!

وأرادت عديلة أن تقول لليلي في سخرية: ((إنت مش حتنبسطي إلا إذا كتبت أنا جواب غرامي لحسين))، ولكن الكلمات توقفت على شفثيها، كانت ليلي مشدودة بحيث يكفي أن يشكها الإنسان بطرف إبرة لتنفجر.

وقالت عديلة:

- رقيقة إزاي؟

- اشكريه.

- أنا؟

- إنت مش بتكتبي الجواب باسمي، أنا اللي باشكره.

- على إيه؟

- على كل حاجة، على كل شيء.. اكتبني كده.

وأملت ليلي عديلة الخطاب. وتحجرت الدموع في عينيها وهي تقول:

- ((وأنا أشكرك من كل قلبي على ما فعلته من أجلي، على كل شيء)).

ولم تعجب هذه الصيغة عديلة، ولكنها خشيت أن تحتج. أدركت أن أقل معارضة قد تجعل ليلي

تعدل عن قرارها، وتلغي فكرة الخطاب نهائياً.

وشكرت عديلة حسين.

وخرجت ليلي، وعندما وصلت إلى الشارع تنهدت بارتياح، وكأنها خرجت لتوها من معركة أنهكت قواها، وشعرت بشعور من انتظر البلاء حين يحل به البلاء، ويدرك أن الأسوأ قد حدث.

تكررت مضايقات الدكتور رمزي لليلى في الفصل وخارج الفصل إلى درجة جعلتها تصيح في يأس:

- الراجل ده عايز مني إيه؟ عايز مني إيه بس؟

وفي نهاية كل فصل دراسي، كانت تتمنى من قلبها لو لم يحاضرها في الفصل الدراسي التالي، ولكن أمنيته لم تتحقق قط. حاضرها باستمرار طيلة دراستها الجامعية، في مادة أو أخرى.

كانت تشعر وكأنه يشرب من دمها بالتدريج قطرة فقطرة، وينتظر الوقت الذي يجف فيه دمها، كل دمها.

بدأ بتركيز اهتمامه عليها في الفصل، واختصها بالأسئلة الصعبة وكأن ليس في الفصل غيرها.

يسأل السؤال ويقف ينتظر ليسفه إجاباتها، ينتظر ووجهه الشاحب الوسيم خالٍ من التعبير، يكلمها وكأنه لا يكلمها، ويستمع إليها وكأنه لا يستمع إليها، موجود في الفصل يربض بوجوده على أنفاسها وكأنه غير موجود، وكأنه يقف وحده في صندوق زجاجي، يميزه ويفصله ويعزله عن بقية الموجودين.

وتجيب هي ويسفه هو إجابتها، ولم تكن تغضب لأنه يسفه إجاباتها.. فغالبًا ما يسفه إجابات بقية الطلبة والطالبات. كانت تغضب لأنه يجد لذة خاصة في تسفيه إجاباتها هي دون إجابات الآخرين.

فعندما يبدأ في تسفيه إجاباتها تلتع بسمه ساخرة على الشفتين الرقيقتين الشاحبتين وتومض العينان الباردتان بالانتصار، وكأنه وجه لعدوه ضربة قاضية. وينزاح الصندوق الزجاجي، ويشعر الطلبة أن الحياة قد دبّت في الأستاذ، ويسري التيار بينه وبينهم، وترتفع الضحكات وتعلو التعليقات، ويتحول الإله إلى إنسان ينكت، على حسابها طبعًا، ويقول: ((لا.. لسه بدري عليك! حضرتك بتتلفسفي، الفلسفة مش حلة ملوخية يا أنسة)).. ((إنت عارفة إنت محتاجة لإيه؟ محتاجة لفرامل، فرامل لخيالك، الفلسفة مش خيال.. الفلسفة قواعد صارمة، وقوانين صارمة)).. ((قسم الفلسفة مش مكانك، كان حقك تروحي قسم من أقسام الآداب، يمكن خيالك كان ينفعك هناك)).

وبدأ صراع صامت، أُملي على ليلى إملاء، صراع شعرت أنه يهد كيائها، ويمتص الدم من عروقها.

وفي بادئ الأمر لم تفهم ما الذي يريده الدكتور رمزي منها. وبعد فترة فهمت.. فهمت أن مفهومه للحياة يختلف عن مفهومها لها اختلافًا بيّنًا، لسبب بسيط، وهو أن طبيعته تختلف عن طبيعتها اختلافًا بيّنًا. وأدركت أنه يريد أن يذلها هي بالذات، وأن يُخضعها، وأن يسمعها تُردد آراءه.

ولم يكن يعتقد في رأي غير رأيه، ولم يكن يعجب بإجابة، أو بالأحرى يقر إجابة (فالإعجاب وفقًا له إحساس سوقي لا يليق بالشخص المثقف الذي ينبغي أن يفرض على مشاعره نظامًا حديديًا)، لم يكن يقر إجابة إلا إذا كانت الإجابة تتماشى مع رأيه الخاص، إلا إذا ردت إليه بضاعته!

ولم تكن ليلي عنيدة في هذه المرحلة من مراحل حياتها، كانت تسلم بالكثير وتستسلم دون مناقشة، ولكن شيئًا ما جعلها تتحمل التسفيه والتعليقات والنكات، ولا تستسلم هذه المرة، وكأن خطرًا ما ينتظرها إذا ما استسلمت.

قالت عديلة:

- ما تقولي إلهي هو عايزه وتخلصي.

- هو عايزني أبقى زي البغبغان؟!

- بغبغان، بغبغان، مش أحسن ما هو مستقصدك؟ حيجرى إيه يعني لما تريحيه؟

ولم تجد ليلي ردًا مقنعًا. لو قالت لعديلة إن شيئًا ما في أعماقها يحذرهما من الاستسلام، ويمنعها من الاستسلام، لضحكت منها عديلة. لو قالت لها إن خطرًا ما يهددها من ناحية الدكتور رمزي، خطرًا لا تستطيع أن تعرف كنهه، لحسبتها عديلة مجنونة.

ولم تستسلم ليلي. وظل الدكتور رمزي يشرب من دمها، وكلماته كالمطرقة في يد العامل تهدم يومًا بعد يوم من مقاومتها، ووجوده يملأها بخوف يشل حواسها، ويجذبها في ذات الوقت، فلا تستطيع أن ترخي عنه عينيها.

وقفت ليلي تجيب على سؤال وجهه إليها الدكتور رمزي. وضافت عينا الدكتور رمزي وهو يخفي ابتسامته، ولم يبذ على وجهه شيء من التعجب، وكأنه كان يعرف أنها ستستسلم، وأن المسألة مسألة وقت، وصبر، ومثابرة لا أكثر ولا أقل.

ولكن ليلي بالغت في إجابتها، كانت ذكية، وكانت مهمة بكل ما يدور حولها، واستطاعت أن تفهم ما يريد، وأن ترد له رأيه بكلمات تكاد تكون كلماته، وبطريقة حاولت أن تجعلها شبيهة بطريقته.

ولم يرغب هذا التطابق على الأستاذ وقال:

- أنت مقتنعة بالكلام إلهي بتقوليه؟

وأطبقت ليلي شفيتها في غضب ولم تجب.

وبدأت عملية أخرى أشبه بعملية النحات وهو يعمل بمعوله في رقعة أحيانًا، وفي عنف أحيانًا أخرى، وفي دراية وتصميم دائمًا. هنا لمسة خفيفة، وهنا انحناء عميقة، وهنا جزء يجب استئصاله كليًا، وهنا جزء يصقل ويهذب.

والتمثال تبرز معالمه تدريجيًا، ويتشكل ضربة بعد ضربة، وفقًا لإرادة الفنان.

ولم تدرك ليلي شيئًا من هذا، أدركت فقط أن الدكتور رمزي قد غير أسلوب معاملته لها، وأنه أصبح يعتبرها من مدرسته، ومن بين أتباعه في الرأي، وأنه أصبح أكثر صبرًا عليها، وتحملًا لهفواتها. وإن كان ما زال ينتقدها انتقادًا مرًا في بعض الأحيان، فإنما يفعل ذلك لكي تتعلم من أخطائها.

وبدأت ليلي تنضم إلى عديلة في الدفاع عن الدكتور رمزي، عندما تهاجمه سناء.

* * *

وفي السنة الثانية امتدت سطوة الدكتور رمزي إلى ما اعتقدت ليلي من قبل أنه من خصائص أمورها.

كانت تسلم إليه مرّة بحثًا في حجرته، ومدت يدها بالبحث ووضعت على المكتب وهمت بالخروج، وقال هو:

- إيه ده؟

وأدركت ليلي أن نظرتة مصوبة إلى وجهها وإلى شفثيها بالذات.

وكانت جميلة قد دعته في الليلة السابقة إلى حفل ساهر، وأصرت على أن تصبغ لها شفثيها، وفي الصباح تبقى أثر الراج فأضافت إليه لمسة خفيفة قبل أن تخرج إلى الكلية.

واحمر وجه ليلي وقالت متهربة:

- هو إيه؟

- إيلي في شفثيك؟

وقالت ليلي بصوت خافت وكأنها تجلس على كرسي الاعتراف:

- روج.

وكنتم هو ابتسامته وقال:

- أنا عارف إنه روج، ولكن حاطاه ليه؟ إنت عمرك ما حطيتي روج قبل كده!

وقالت ليلي مبررة فعلتها:

- كل البنات بيحطوا.

- دا تفكير سوقي.. هل معنى إن البلد اجتاحتها موجة فساد، إن إحنا كلنا نبقي فاسدين؟!

وأثارت الإشارة إلى الفساد ليلي، وقالت في غضب:

- أنا مش فاسدة!

وقال هو في برود دون أن يهتز لغضبها:

- أنا باقول عكس كده، باقول إنك أحسن من البنات إلكي بيعملوا كده.

وقالت ليلي في عناد طفولي:

- أنا مش أحسن من حد!

- إنت قطعاً أحسن!

ونظرت إليه ليلي للمرّة الأولى منذ أن دخلت الغرفة، وقالت:

- أحسن ليه؟

وابتسم في وجهها، وفي عينيه نظرتة الباردة الواثقة، وقال ببساطة:

- لأنني أنا أعتقد كده.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، تتبعتها عيناه في كل مكان تذهب إليه. كان يظهر فجأة وكأن الأرض انشقت عنه، وتطوف عيناه بها، وتتركزان عليها، وكأنهما تعاينانها، وكأنهما ترنانها، بلا رغبة، بلا عاطفة، ببطء وعناية، كما يعاين الإنسان قطعة من النقود في يده ليتأكد أنها ليست مزيفة.

وكانت ليلي تنتفض تحت نظرة الدكتور رمزي، ويشل حواسها خوف غامض، وتتهد في ارتياح حين تنزاح عيناه عنها.

ولكنه كان يملئ وجوده عليها حتى وهو غير موجود.

فإذا وقفت تضحك هي وعديلة وسناء مع واحد من الطلبة، شكرت الله لأن الدكتور رمزي لم يراها، وإذا ألقت في محاضرة بحثاً حاز إعجاب أحد الأساتذة، تمنّت لو سمعها وهي تلقي البحث حتى يدرك تفوقها، وإذا ما انهمكت في القراءة في المكتبة لمدة ساعات تساءلت: لم لا يراها وهي تخلص للعمل هكذا؟ لم لا يراها إلا وهي ضاحكة أو متلطة تتردش في أركان الكلية؟ لم لا يراها إلا وهي تفعل ما لا يجب أن تفعله؟ ولكنها كانت تنسى وجوده أحياناً، كما نسيته ذلك الصباح.

كانت ليلي تجلس في صالة القراءة بالمكتبة، حين اقترب منها زميل لها في السنة الثانية، وطلب منها إعارته المرجع الذي تقرأ فيه حين تفرغ من قراءته.

ورفعت ليلي رأسها إلى زميلها، وتذكرت حسين فجأة.

ذكرها شيء في العينين السوداوين الكبيرتين بحسين وهو يبتسم، نعم عينا حسين تبدوان هكذا حين يبتسم، تذوب فيهما الجراءة والقوة والصلابة، وتصبحان ناعمتين كهاتين العينين، حالمتين حنونتين مثلهما.

ووعدت ليلي زميلها بإعارته المرجع وهي تبتسم، وجر الزميل المقعد الذي يجاورها، وجلس، وقال إنه معجب بمناقشاتها في الفصل، واستطرد فذكر أنه يكتب الشعر، ويود لو قرأت بعض قصائده، وبدأ يتكلم عن المستقبل، عن الشعر الذي يريد أن يكتبه، والتجديد الذي يريد أن يدخله عليه، حتى يتجنب الانفصال القائم بين القلب الشعري والمضمون...

وجلس ليلي تنصت إليه وقد ارتخت في جلستها، وأسدت جفניה على عينيها، ومالت برأسها إلى جانب، ولمعت على فمها ابتسامة خفيفة.

تخيلت أنها تستمع إلى حسين، فحسين حين يتكلم عن المستقبل يرن صوته هكذا، وتتسلل إليه نبرة حاملة، وحسين حين يتكلم، تفيض كلماته هكذا، وكأنها تفيض بحياة خاصة بها، حياة تسري إلى من يستمع إليه، وتجعله يخلق معه حيث يخلق عاليًا.

وقال صوت بارد قاس:

- شفتم الكتاب ده؟

واندفع كتاب على المائدة تجاههما.

وفتحت ليلي عينيها، ورأت الدكتور رمزي يواجهها. ووقف زميلها، ولم تستطع هي أن تقف، لم تعد ترى شيئًا، أصيبت بدوار أشبه بالدوار الذي يصاب به من يسقط من مكان عالٍ.

وتصفح زميلها الكتاب واستأذن الدكتور رمزي في استعارته. وقال الدكتور إنه وضع نسخة من الكتاب في المكتبة، وإن لم تكن قد قيدت بعد.

واعتذر بأنه لا يستطيع أن يعيره هذه النسخة لأنها نسخته الخاصة:

- وأنا أحب كتبي تبقى نضيفة، ما أحبش حد يمسه، لو حد مس الكتاب، ما أقدرش أطلع فيه بعد كده، ما أشعرش إنه كتابي!

وقال الدكتور رمزي هذه الكلمات وهو يركز عينيه على ليلي ليؤكد كلماته، وكأنه يحملها أكثر من معنى.

ولكن ليلي لم تكن في حالة تسمح لها بفهم ما يدور حولها، شل الخوف حواسها وكأنها ضبطت متلبسة بجريمة خطيرة.

وحاول الدكتور رمزي أن تتقابل عيناه مع عيني ليلي، وقال موجهًا الخطاب لها:

- شفت الكتاب ده يا آنسة؟

ولم ترفع ليلي عينيها إليه، مدت يدين مرتجفتين إلى الكتاب وسحبته في بطنه إلى حيث تجلس،

وركزت عينيها على غلافه الخارجي.

وترك الدكتور رمزي الكتاب راقداً بين يديها، واتجه إلى صفوف الكتب المتراسة في مكتبات الحائط.

واعتذر زميلها وانصرف.

وودت هي لو استطاعت أن تنصرف، ولكنها لم تستطع، كان عليها أن تنتظر حتى يسترد الدكتور رمزي كتابه.

وأطال هو وقفته بين الكتب، واتجه بخطواته البطيئة المتتدة إلى حيث يجلس أمين المكتبة. وخيل لليلي أنه يسير بخطواته البطيئة الرتيبة على أعصابها، وأنه يطيل وقفته مع الأمين ليطيل من تعذيبها.

وحين عاد اكتشف أنها لم تمس الكتاب، وقال:

- يعني ما فتحتيش الكتاب! مكسوفة ولأ إيه؟

وفي هذه المرة فهمت ليلي الإشارة المزدوجة، فهمت المعنى المقصود واحمر وجهها.

* * *

وتغير أسلوب الدكتور رمزي في معاملة ليلي تغيراً بيئاً.

كان يشيح ببطء عنها إذا ما قابلها في الممر، بلا معاناة، وكأنه قد اكتشف أن قطعة النقود مغشوشة، ولا تستحق المعاناة. وفي الفصل انقلب عليها، واشتدت قسوته بشكل واضح أثار تعليقات الطلبة والطالبات.

وقالت سناء:

- الراجل ده حكايته إيه؟ هو مش حيثلم بقه؟

وقالت ليلي:

- أنا ما أقدرش أستحمل أكثر من كده، كفاية بهدلة بقه! ثم أنا نفسي أفهم هو عايز مني إيه؟! وتوقفت عذيلة عن المشي، وقالت وكأن فكرة عبقرية قد طرأت لها:

- يكونش بيحبك يا ليلي؟!!

- اتلهي.. حنخرف بقه؟

وضحكت سناء:

- وحب إيه المنيل ده؟ دا كره مش حب!

وسحرت الفكرة عذيلة، وقالت وهي تقلد أحد أساتذة الفلسفة:

- ولمَ لا؟ ألم يقل الفيلسوف المشهور ((شوبنهاور)) إن الحب في أعماقه كره، والكره في أعماقه حب؟

وانفجرت ليلي وسناء ضاحكتين.

وقالت سناء وهي تشرق بدموعها:

- على طريقة البرميل إللي الواحد يفتحه من ناحية يطلع عسل ومن الناحية الثانية يطلع زفت.. مش كده؟

وقالت ليلي:

- كفاية هزار بقّه، وتعالوا نقعد في حتة، نشوف لنا حل في الموضوع ده!

واتجهت الصديقات إلى ركنهن المختار على العشب خلف المكتبة.

وتربعت عذيلة، وبدأت الجدية على وجهها، وقالت موجهة الخطاب إلى سناء:

- ما هو أنا كمان ما أعطيش عقلي لغيري، تقدري تقولي لي الراجل ده ملاحقها في كل حتة ليه؟ وغاوي بهدلتها ليه؟

وقالت سناء:

- ليه يا ست الشيخة؟

وكتمت عذيلة ابتسامتها وقالت:

- والنبي بيحبها.

والتفتت إلى ليلي وعيناها تلتمعان:

- حَقَّة يا ليلي لو اتجوزك تبقى حتة جوازة!

وقالت سناء في حركة مسرحية:

- يا حفيظ!

وأملت عذيلة رأسها إلى جانب وقالت لسناء في حماس، وكأن الدكتور رمزي قد عرض فعلاً الزواج على ليلي:

- إيه؟ ماله؟ وحش! أستاذ قد الدنيا، وشكل وعربية وعز واسم، عريس تتمناه كل بنت في الكلية!

وقالت ليلي:

- دي مصيبة إيه دي يا إخوانا؟! إحنا في إيه ولّا في إيه؟ خرينا في الموضوع، أنا ضروري

أشوف لي حل مع الراجل ده!

وقالت سناء في جدية:

- بسيطة، مفيش إلا حل واحد.

ونظرت إليها ليلي متسائلة في اهتمام.

وقالت سناء:

- اتجوزيه.

وانفجرت ليلي ضاحكة، ولم يعجب الحال عديلة:

- مالك؟ إيه إللي مسيب مفاصلك كده؟ بقه الجوازة دي مش... وقاطعتها ليلي وهي تشرق بالدموع من أثر ضحكها:

- بس يا عديلة إيه إللي جاب سيرة الجواز والهباب دلوقت، إحنا في إيه ولّا إيه؟

ولكن عديلة كانت في واد آخر، كانت الفكرة التي طرأت عليها قد تحولت إلى عقيدة، وأصبحت تدافع عنها كأنها حقيقة واقعة:

- طيب بشرفك يا ستي سناء مش تتمنيه؟

- فشر.

- تتجوزي أحسن منه؟

- طبعًا.

وانبعثت صورة محمود أمام ليلي، وبدا لها بجانب الدكتور رمزي كالقزم إلى جانب العملاق، ولم ترتح في أعماقها إلى هذا التشبيه.

ومالت سناء على عديلة وقالت بصوت هادئ:

- عارفة يا عديلة إللي تتجوز الدكتور رمزي حتعيش إزاي؟

وبدا الاهتمام في عيني ليلي وهي تصغى إلى سناء وهي تستأنف كلامها:

- حنتحط في تلاجة وينقل عليها، في علبة سردين وتتختم عليها.

وسرت رجفة إلى جسم ليلي، ووضعت عديلة يدها على خدها وقالت في استخفاف:

- عجائب!

واستأنفت سناء الكلام:

- وأنا شخصيًا مش عايزة أعيش في تلاجة، أنا عايزة أطيّر.

وقالت عديلة:

- تطيري؟ كده؟!

ومدت ذراعيها وهزتهما كالجنحين حولها.

وقالت سناء وهي تكتم بسمتها:

- أيوه.

- طيب يا بت، ما هو ده يطيرك.. عيبه إيه؟

وقالت سناء في استتكار:

- يطير.. دا يكتم على نفس الواحدة لغاية ما يخنقها!

وقالت عديلة:

- طيب تعرفي تتلهي، والله دا بكرة الكلية كلها حتسد ليلي.

وقالت ليلي لعديلة وهي تضحك:

- تعرفي تتلهي إنت عشان نشوف لنا حل في الموضوع ده!

وقالت سناء:

- أنا عندي اقتراح: عديلة تكلمه وهي داخلة تاخذ البحث بتاعها.

وقالت ليلي:

- تقول له إيه؟

- تقول له: ((ليه الأسية يا حبة عينيا؟ اعتقها لوجه الله ولوجه المحبة)).

وانفجرت عديلة ضاحكة وهي تتصور نفسها تقف أمام الدكتور رمزي بوجهه المتجهم، وتقول هذا الكلام.

وقالت ليلي في غضب وهي تهم بالوقوف:

- أنا حاروَح.

وجذبتها سناء من ذراعها:

- خلاص.. أنا حاتكلم جد.. عديلة تقول له: ((ليلي بتعتذر إذا كان بدر منها أي حاجة غلط، وبترجو إنك تسامحها)).

وقالت ليلي:

- معقول. بس بلاش حكاية يسامحها دي.

وقاطعتها عديلة:

- ومين قال إني حاكمه في الموضوع ده؟

وانقبض وجه ليلي، وقالت سناء:

- ولا ترعلي.. أنا عندي اقتراح ثاني.

- إيه؟

- عديلة تتجوزه.

وقالت ليلي لسناء في مرارة:

- إنت فايفة النهارده أوي!

وقالت عديلة وهي تفكر:

- بصراحة ما ينفعش.

- وقالت ليلي:

- هوّ إيه إللي ما ينفعش؟

- حكاية جوازي بالدكتور رمزي.. لأنه إما يكسر دماغي من أول أسبوع، أو أكسر أنا دماغه! أصلنا زي بعض.. راس وراس.

وضحكت سناء وقالت:

- فولة وانقسمت نصين.

وقالت عديلة وهي ما تزال تفكر:

- لأ. أنا قطعاً ما انفعهوش! هوّ عايز واحدة زي ليلي، ناعمة، ورقيقة، وهادية، ولطيفة.

وأكملت سناء كلام عديلة:

- ومطبعة، ومغمضة، ومن الإيد دي للإيد دي، زي الخاتم في صباعه!

وقالت ليلي بغضب:

- هوّ أنا ما أخذش منكم إلا التريقة؟ على العموم دي مشكلتي وأنا إللي حاكلها!

وقالت سناء:

- حقتولي له إيه يا ليلي؟

- حاقول إللي أقوله، المهم إني ما أتبهدلش في الفصل بالشكل ده!

* * *

وعندما اتجهت ليلى إلى حجرة الدكتور رمزي بحجة استرداد بحثها كانت قد أعدت العدة لكل كلمة ستقولها.

ولكن عندما رفع إليها وجهه الشاحب وهو يجلس إلى مكتبه تبخر من عقلها كل شيء أعدته. وتقدمت حتى حاذت المكتب، وقالت وقد خالطت نبرتها ثورة على ضعفها:

- البحث من فضلك!

وفتح درجًا من أدراج المكتب في بطء وهو ينظر إليها، وأخرج البحث بلا تردد، وكأنه كان يتوقع قدومها، وقذف به على المكتب أمامها، وهو ما يزال ينظر إليها. واحمر وجه ليلى وهي تمسك بالبحث في يدها، وتهم بالاستدارة خارجة.

وجاءها صوت الدكتور رمزي باردًا:

- انتظري.

وتسمرت في مكانها دون أن تنتظر إليه.

وقال:

- افتحى البحث، وشوفي التقدير.

وكانت الدرجة ((جيد جدًا))، وكانت واثقة أنه يعرف أنها ((جيد جدًا)) ومع ذلك سألتها:

- التقدير إيه؟

- جيد جدًا.

- كان ممكن تاخدي ((ممتاز)). عارفة ما أخذتيش ممتاز ليه؟.

ولم تجب.

وتسرب الغضب إلى صوته البارد وهو يقول:

- ما تردي.

ولم ترد. وانفجر غضبه:

- عشان بتضيعي وقتك، عشان بتستخدمي المكتبة في أغراض ما تعملتش المكتبة عشانها!

وانقبضت يدا ليلى على حافة المكتب، وودت لو استطاعت أن تضربه، ولكن الخوف شلها، وظلت مكانها لا تتحرك، ولا تتكلم، ولا ترفع نظرها إلى أعلى، ولفتها موجة كراهية عميقة انقبض لها وجهها.

وقال الدكتور رمزي وقد استعاد صوته هدوءه:

- إنت بتكرهيني.. مش كده؟

ولم تتكلم، رفعت إليه عينيها وركزتهما في عينيها.

واختلجت عينا رمزي، وتطرق إلى قلبه خوف مبهم، كما لو كان، لأول مرة في حياته، قد نسي أن يعد العدة لشيء.. أو أسقط من حسابه شيئاً، ما كان ينبغي له أن يسقطه.

عكست عينا ليلي قوة جبارة، مزيجاً من الثورة والعنف والاعتداد والكرهية، قوة لم يخیل إليه قَطُّ أن من الممكن أن يحتويها كيان هذه الطفلة الرقيقة الودیعة.

وأدرك الدكتور رمزي أن اللحظة التي يمر بها لحظة حاسمة، وأنه یقف وهذه الفتاة التي تواجهه على مفترق الطريق. وتغلب على دهشته المفاجئة، وعادت عينا تتركزان علیها وهو يعكس فیهما أقوى ما يحتويه كيانه من قوة ومن سطوة وعنف. ودخلت عينا مع عينيها في صراع صامت طويل. وهما الآن تتصديان لها في برود متربص، وهما الآن تقنحمانها وتهدانها هذًا، وهما ترقان وهو يخضعها ويروضها، وهما تعمقان بعمق من عمقها، وكأنه يسلبها منابع القوة قطرة بعد قطرة.

وشعرت ليلي أن الدم قد هرب من جسمها وأسدت جفنيها على عينيها.

وقال الدكتور رمزي وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

- بتزعلي مني لیه؟ عشان عايزك تمشي صح؟! عشان عايزك تبقي أحسن بنت في الكلية؟

وأبقت ليلي جفنيها مسدلين على عينيها، ولم تتكلم. وقال هو:

- أنا عايزك تجاوبي على سؤال واحد بس، إلی عملتيه ده.. صح ولّا غلط؟

ولم تجب، وأعاد سؤاله بنفس الهدوء وسكت.

وملاً الانتظار كل لحظة، كل ذرة من هواء الغرفة، وكأن العالم كله قد توقف متربصاً، ينتظر منها أن تتكلم.

وسالت الدموع بلا صوت من عيني ليلي، وارتخت قبضتها على حافة المكتب.

ومد هو يده على المكتب ومس بإصبعه يدها وقال بصوت رقيق:

- مفيش داعي للعیاط!

وفتحت هي عينيها فجأة، وتطلعت إليه في دهشة وكأنها ترى أمام عينيها ظاهرة طبيعية غريبة. ووجدت يده على المكتب، ووجهه جامداً خالياً من التعبير، مغلقاً في وجهها وكأنه لا يراها، وكأنه لم يمس يدها، وكأنه لم يتحدث إليها في حنان.

واستدارت ليلي لتخرج، ومسحت دموعها بكفها في الطريق، ووضعت يدها على مقبض الباب. وتذكرت فجأة كلمات من خطاب حسين: ((انطلقی یا حبيبتي، افتحي الباب واسعاً على مصراعيه واتركيه مفتوحاً)).

وقال الدكتور رمزي:

- لحظة واحدة من فضلك، فيه حاجة صغيرة عايز أقول لك عليها قبل ما تخرجي.
وواجهته ليلى وهي ما تزال على مقربة من الباب. وقام من مكانه ووقف يطل عليها لحظة ثم قال:

- فيه ناس كتير من إلي بيسموا أنفسهم مثقفين بيستهينوا بالأصول وبالتقاليد بتاعتنا، ولكن ضروري تعرفي إن الأصول دي، هي إلي بتربطنا بالأرض، ومن غيرها نبقى زي الشجرة إلي من غير جذور، شوية هوا تجرفها، وتوقعها كمان.

- ووقفت ليلى متسمة تصغى إليه وهو يتكلم. واستمرت واقفة بعد أن فرغ من كلامه، تنتظر إليه وكأنها مشدودة إليه بخيوط غير مرئية لا تستطيع أن ترخي عينيها عنه ولا تستطيع أن تتصرف.

وهو يقف أمامها طويلًا رافع الرأس، شاحب البياض، قريبًا. ولكنه بعيد، تغلف وجهه الوسيم سحابة من غموض، ينظر إليها وكأنه إله يطل عليها.. إله؟

نعم إله من آلهة الإغريق، لا يضعف أبدًا، يقف في الصواب، ويؤمن أنه على صواب، ويريد لها هي أن تكون في الصواب، في ظله. إنه لا يخطئ أبدًا، ولا يضعف أبدًا، ولا يلين أبدًا، لو لان؟! لو لان الحجر؟!

وصرخ قلبها: ((أرجوك، أرجوك لا تؤذني، سأمشي في ظلك، سأبتعدك ولكن لا تؤذني)).

وعكست عيناها عمق جرحها، ويأسها ورجائها.

ولان وجه الدكتور رمزي في ابتسامة، وقال في رقة:

- خلاص يا ليلى، تقدري تتصرفي.

وأدركت ليلى أنه ناداها باسمها لأول مرة، لم يقل لها ((يا آنسة)) كعادته، بل ناداها باسمها الخاص، باسمها الشخصي.

ومنذ ذلك اليوم تدخل عامل خاص شخصي في العلاقة التي تربط بين ليلى والدكتور رمزي، كان يبتسم لها ابتسامة خاصة كلما قابلها في الممر، ابتسامة خاصة بها هي، تميزها عن الآخرين، وتجعلها تشعر أنها أفضل منهم.

وفي نهاية العام الدراسي أعارها بعض كتبه الخاصة لتقرأها في الإجازة الصيفية، وفي بداية سنتها الثالثة في الجامعة حرص على أن يطلب منها ما كتبت، وناقشها مناقشة خاصة في بعض الآراء التي وردت في نقدها.

وكان حازماً في معاملته معها داخل الفصل وخارجه، ولكن شيئاً ما كان يترقق تحت حزمه، شيئاً يميزها هي به عن الآخرين، ويجعلها تشعر أنه طالما يميزها عن الآخرين فهي أفضل منهم.

وكانت ليلى وحيدة وممزقة ومرهقة، ولمحت جداراً كبيراً امتد لها ظله، وجلست في ظل الجدار، لا تفكر، وارتكنت عليه وارتاحت، وشعرت أنها بخير طالما ارتكنت على الجدار، وطالما امتد لها ظله، وكأن الظل يمدّها بضخامة من ضخامة الجدار، وبقوة من قوته، وبصلابة من صلابته.

وتشبّثت ليلى بظل الجدار يحميها ويقويه، وحسرت تصرفاتها، بل أفكارها، في النطاق الذي يرضى عنه الدكتور رمزي، وأصبح الصواب بالنسبة إليها ما يرتئيه هو صواباً، والخطأ بالنسبة إليها ما يعتبره هو خطأ. ولم يصعب عليها قَطُّ أن تتبين خطأه من صوابه، فالخطأ واضح محدد المعالم، والصواب واضح محدد المعالم، والأسود أسود والأبيض أبيض، ولا ظلال ألوان بينهما، والخطأ يعرفه هو وتعرفه هي وأما وعديلة وكل الناس.

ولكنه هو، الدكتور رمزي، أفضل من كل الناس، فهو حين يلتزم الصواب لا يلتزمه لأن الناس يلتزمون به، بل لأنه يؤمن به.. وحين يتحاشى الخطأ لا يتحاشاه لأنه يخاف الناس، بل لأنه أكبر من أن يخطئ، وأقوى من أن يخطئ، ولأنه إنسان غير عادي، إنسان مثقف، والمثقف حقاً هو الذي يفرض على عواطفه ومشاعره وأفعاله وكلماته نظاماً حديدياً يحول بينه وبين الاندفاع، وبالتالي بينه وبين الخطأ، وهذا النظام الحديدي هو الذي يميز الإنسان المتحضر عن السوق الذين يندفعون عادة إلى الخطأ، نتيجة للاندفاع وراء المشاعر الرخيصة.

وتبنت ليلى آراء الدكتور رمزي وانحصرت في نطاقها. ولحظ هو هذا التطور، وحرص على إبداء تأييده له، وقال مرّة تعليقاً على بحث ألقتة في المحاضرة:

- البحث جيد، وقد كدت تتخلصين من شوائب الذاتية التي كانت تحول بينك وبين الموضوعية، أي بينك وبين الأسلوب العلمي، والطريق ما زال أمامك طويلاً، ولكنك تتقدمين فيه.

* * *

وقالت عديلة وقد انفردت بسناء بعد المحاضرة:

- جالك كلامي؟ عمال يسلفها كتب، ويهيأها في المحاضرة، والحالة معدن.. مش قلت لك مبسوط منها؟

وقالت سناء في سخرية:

- ما ينبسطش منها ليه؟ دا ربنا فوق وهو تحت بالنسبة لها.

وقالت عديلة وهي تحاول استفزاز سناء:

- غيرانة؟!

- يا شيخة بلا قرف، عاجباك الكتمة السوداء إللي هيّ فيها؟ دا ما أكلموش، ودا ما أعملوش، والوقفة دي ما تصحش، والفيستان أبو كم طويل، والأصول، والشجرة إللي بجذور، والحيوان، والسوبرمان؟! بشر فك عاجباك الهفة دي؟!

- عايزة الحقيقة؟ هيّ زودتها حبتين!

وقالت سناء:

- حبتين بس؟ دي بقت حاجة تطفش!

وكانت سناء تعتقد أن ليلي تغيرت تغيرًا يدعو إلى الأسف، وأنها أصبحت لا تطاق ولا تحتمل، فقد ازدادت انطواء على نفسها واستشixت، وأصبحت جامدة متحجرة بليدة الحس، وكأنها فقدت القدرة على الإحساس بالآخرين، والتجاوب معهم. كما أصبحت محدودة الأفق لا ترى أبعد من كفها، وكأنها قصيرة النظر. وما تراه يثير الاشمئزاز، فهي لا ترى إلا أخطاء الناس وهفواتهم، ولا تتكلم إلا لتصدر أحكامًا قاسية تدين بها الناس، في ثقة وفي وقاحة، وكأنها تمسك بيدها ميزانًا لا يتسرب إليه الخلل. ولو صدق الإنسان كلامها لذهب وانتحر، فالجذور قد تخلصت، والانحلال عم كل بيت، والفساد اجتاح البلد، ولا بد للمتقين، أنصاف الآلهة، من أن يقفوا في وجه الفساد.. وطبعًا ليس هناك مثقفون، سوى الدكتور رمزي، وسواها هي بالتبعية!

وكانت سناء تتساءل في ألم: ماذا حدث؟ ماذا حدث لهذه الفتاة التي كانت المحبة تترقرق في وجهها وفي كيائها بأجمعه؟ ولماذا أصبحت هكذا مليئة بالحقد وبالمرارة وبالجمود وبالتحجر والبرود؟ من يصدق أنها أخت محمود الذي تلمع عيناه بحب الناس وبحب الحياة؟

وكانت سناء تدرك أنها ستصطدم قريبًا بليلى، فمحمود قد تخرج وأوشك على أن ينتهي من سنة الامتياز، وهما في انتظار صدور قرار تعيينه في أحد المستشفيات ليعلنا لعائلتيهما قرارهما. وهي ومحمود لن يتركا أحدًا يقف في طريق زواجهما. ولم يتبق إلا شهر وتصطدم بليلى.

وكانت سناء تخشى هذا الاصطدام أكثر حتى مما تخشى الاصطدام بأبيها وبأمها، عز عليها أن

تدخل في صدام مكشوف مع ليلي، صدام تفقد فيه الصداقة التي كانت يوماً أعز شيء في حياتها. ولكن ماذا تستطيع أن تفعل، وليلي لن تفهم، وقد أصبحت بهذا الجمود، وهذا البرود والتحجر؟! ولكن حدث في تلك الفترة ما قرب بين ليلي وسناء وكاد يعيد علاقتهما الوطيدة إلى ما كانت عليه.

على السبورة في مدخل الكلية أعلن فتح باب التطوع للطلابات في الحرس الوطني، وبقي الإعلان أسبوعاً ثم أزيل ليحل محله دعوة لطلابات الكلية للاجتماع بمدرج ٧١ مع قائد فرقة الحرس الوطني.

وفي الموعد المحدد ظل باب المدرج الزجاجي يندفع ثم يرتد ليمتلئ المدرج بمئات من الطالبات، طالبات جنن ليسجلن أسماءهن في الحرس الوطني، وطالبات جنن مدفوعات بحب الاستطلاع، وطالبات جنن ليعرضن على المجموعة مجتمعة آخر مبتكرات الأزياء.

وقالت عديلة وهي تجلس بين ليلي وسناء في انتظار حضور الضابط:

- يعني مش كنت زمانى روحت وغسلت شعري و...

ولم تكمل. دخل الضابط المدرج ووقف يواجه ثلاثمائة فتاة.. وساد الصمت لحظة، والعيون ترقب الضابط الشاب الذي تسربت حمرة الخجل إلى وجهه حين بدأ يتكلم بصوت خافت.

وعاد الهمس من جديد، واستكملت الحكايات التي انقطعت، ووضعت فتاة ضيقة العينين شبيهة بالصينيات ساقاً على ساق، وقالت لمن حولها إنها قبلت خطوبة الشاب الذي خطبها لتتخلص من إلحاحه. واشتكت فتاة ممثلة لزميلتها من أن شعرها قد جف فجأة وأصبح أشبه بخيوط المقشّة، ونصحتها زميلتها بعمل حمام من الزيت والبخار.

وامتدت يد الضابط إلى ياقة قميصه في ارتباك، وصاحت شلة في آخر المدرج في إيقاع منتظم:

- مش سامعين.. مش سامعين.

وضرب الضابط بيده على المائدة وصاح في صرامة:

- سكون.

وساد الصمت لا يقطعه إلا تردد الأنفاس في رتابة.

وأدرك الضابط أنه أمسك بزمام الموقف، وعلا صوته وهو يتكلم واكتسب عمقاً، وتقدم بين الصفوف يتكلم كلاماً عادياً بلا فصاحة ولا بلاغة، كلاماً ينبعث من إحساس جديد على هؤلاء الفتيات، إحساس بقيمة المرأة وبالمساواة الحقيقية التي تتاح لها لأول مرة، إذ يتاح لها حق الدفاع عن الوطن.

وتحجرت الدموع في عيون، وتطلعت عيون في عجب ودهشة وكأن باب عالم غريب قد تفتح أمامها.

وارتفعت عيون في ملل إلى ساعة الحائط.

والسكون سائد لا يقطعه سوى تردد الأنفاس في رتابة.

ومرت أمام ليلي صور من حياتها، صورتها وهي طفلة تقفز قفزات رتيبة وترفع يدها اليمنى وتخفيضها، وتقول منغمة، كما يفعل المتظاهرون: ((السلاح، السلاح.. نريد السلاح)). وصورتها وهي شابة ترتفع على أكتاف المتظاهرات، وتهنق بصوت غير صوتها، صوت الآلاف.

وبدت هذه الذكريات ليلي بعيدة باهتة، وكأنها لم تحدث لها هي، وكأنها حدثت لإنسان آخر.

وأخرجت سناء من حقيبتها قلمًا، وكتبت على ورقة:

- سأطوع.

واستدارت شفتا ليلي لتبتسما ابتسامة ساخرة، ولكن الابتسامة ماتت على شفتيها.

مالَت سناء على الورقة، وبشفتين مطبقتين وعينين تتألقان أجرت تحت الكلمة التي كتبتها خطوطًا متتالية، خطوطًا عميقة تمزقت لها الورقة.

وسرت الرعدة في جسد ليلي وتركزت في رأسها.

وكانت ليلي ما تزال مضطربة وهي تقف أمام الضابط تسجل اسمها كمتطوعة في الحرس الوطني. وانتظر الضابط منها أن تتكلم، ولكنها استمرت ترسم خطوطًا بيدها على طرف المائدة.

وقالت أخيرًا:

- ليلي سليمان.. تالته فلسفة.

- وجرت متوردة الخدين لتلحق بسناء.

وفي البداية بدأ الأمر كلعبة مسلية، الطوابير، والحركات العسكرية، والتعبيرات العسكرية، والشاويش وأوامره ونواهي، وهواء الصباح المبكر يلفح الوجوه ويثير الشعور، وروح الجماعة من جديد. وكان الفريق شلة واحدة تدبر مؤامرة، تمامًا كما كان الحال في الدراسة الثانوية.

وتمتعت ليلي بكل لحظة من لحظات التدريب، وهي تستعيد الإحساس الذي فقدته في الجامعة، الإحساس بأنها جزء من كل.

ثم بدأت تشعر بالعزلة حين نبهها الشاويش إلى ضرورة رفع رأسها، وحاولت أن ترفعها ولم تستطع، كانت كتفاها ترتفعان كلما همت برفع رأسها، وشعرت أنها تحتاج لمجهود لتحقيق الشيء الذي يأتي للأخريات سهلًا طبيعيًا، وكأنهن ولدن برؤوس مرفوعة.

وفي كل مرّة ينبهها الشاويش، وفي كل مرّة تحاول، وفي كل مرّة تفشل وتهم بالانسحاب ثم تعود من جديد.

وقالت لسناء:

- مش قادرة! مش قادرة يا سناء!

- بس عشان اتعودت تمشي وراسك محنية!

- وأعمل إيه؟

- ارفعي راسك وارخي جسمك، وقولي في سرك طول ما أنت ماشية: ((أنا جميلة، أنا ذكية)).
وضحكت ليلي.

وقالت سناء:

- أنا مش باهزر، ضروري الواحد يشعر بالكبرياء جوّه، في نفسه. وابتسمت ليلي ابتسامة شاحبة.

وحاولت من جديد ونجحت، ولاحظ كل من حولها أن قامتها قد اعتدلت وأن مشيتها قد استقامت.

ولكن ليلي واجهت صعوبة جديدة، قال الشاويش إنها تمسك بالبندقية كما لو كانت تمسك بالمقشة. وأثار هذا التعليق سلباً من السخرية. ولكن ليلي أوقفت السخرية حين بدأ التصويب، وأثارت دهشة الجميع بمن فيهم الشاويش.

بعد الطلقة الأولى ارتخى جسدها الذي كان متصلباً، وتركز كيائها في عينيها، وببد ثابتة ضغطت على الزناد، وأصاب الهدف، وانتشت وصوبت وأصابت، مرّة بعد مرّة، ويوماً بعد يوم.

وعاودها الإحساس الذي تخلّى عنها.. الإحساس بأنها قادرة، وأنها قوية.

ولم تكن كلمات التشجيع والإعجاب هي التي ملأتها بهذا الإحساس، وإنما كان هو الإدراك أنها أرادت، ونجحت في تحقيق إرادتها، وأنها تستطيع دائماً أن تريد وأن تتجح في تحقيق ما تريد.

وعمق من الشعور بالنجاح انعدام الفاصل الزمني بين الإرادة والفعل.

وأوشكت ليلي أن تنتهي من تدريبها العسكري، والشعور الجديد يلزمها، والانتعاش يدب في جسمها ويتألق في عينيها.

رفعت ليلي إلى الدكتور رمزي وجهاً باسمًا متورداً وقالت وملابس التدريب تتأرجح في يدها:

- صباح الخير يا دكتور.

كانت عائدة من ساحة التدريب لتوها، وصادفت الدكتور رمزي عند الباب الرئيسي للكلية. وبدأت الدهشة على وجه الدكتور رمزي. كانت هذه هي المرة الأولى التي ترفع ليلى وجهها إليه، وتركز عينيها في عينيه وتبدأه بالتحية.

ولمح ملابس التدريب تتأرجح في يدها وقال:

- أنت جاية منين؟

- من التدريب.

- تدريب إيه؟

- الحرس الوطني.

وسحب هو نفساً من سيجارته وهو يحدها بنظرة فاحصة، ثم قال:

- بلاش كلام فارغ، التفتي لمذاكرتك أحسن!

ونظرت ليلى إليه وهي تبسم ابتسامة خفيفة، كابتسامة من يأخذ طفلاً على قدر عقله.

وأغاضت ابتسامة ليلى الدكتور رمزي وقال:

- أظن حضرتك فاكرة نفسك مهمة أوي؟ حتحاربي، مش كده؟

وانسعت ابتسامة ليلى.

واستطرد الدكتور رمزي:

- إمتى حنكبر على الأفكار الطفولية دي؟! إمتى حنفهم إن كل إنسان له مجاله؟!!

ونظرت إليه ليلى في تساؤل، واستأنف كلامه:

- المثقفين فئة مختارة، فئة ما تحاربش، كل بلد ينقسم إلى قسمين، قسم يفكر وقسم يحارب. والدفاع عن البلد يجب أن يقتصر على غير المثقفين.

وشحبت الابتسامة على وجه ليلى، وارتجفت شفتاها وهي تقول:

- الدفاع عن البلد واجب على كل إنسان، سواء كان مثقفاً أو غير مثقف.

ودمدت معذرة، واستدارت، ومضت تهرول وكأن خطراً ما يلاحقها.

* * *

وبعد أسبوع من هذه المقابلة العابرة، أرسل الدكتور رمزي يستدعي ليلى إلى غرفته.

وعندما مدت يدها تفتح باب الغرفة تخلت عنها الشجاعة والصلابة اللتان تواجه بهما الآخرين.

كانت ما تزال تعاني كلما واجهت الدكتور رمزي، نفس الشعور الذي عانت به يوم دخلت حجرته لأول مرة، مزيجاً من الخوف والرغبة والانجذاب.

كان يقف وقد أعطى ظهره لمكتبه يبحث عن كتاب في مكتبته الخاصة، واستدار برأسه حين فتحت الباب، ولمحها، والنقط في نفس اللحظة كتاباً، وقال دون أن ينظر إليها:

- اتفضلي استريحي.

وجلست هي على طرف المقعد المجاور للمكتب، وشدت ذيل ثوبها على ساقها. وتركها تنتظر دقائق، وهو يتصفح الكتاب، ثم استدار وجلس على المكتب، وقال:

- أنا عايز أقابل والدك، ممكن تحددى ميعاد وياه؟

وارتسمت على وجه ليلي الدهشة، وقالت:

- حضرتك تحب تقابله إمتى؟

وفي ببطء أخرج الدكتور رمزي مذكرته من أحد أدراج المكتب وفتحها، وانكب عليها يتصفحها.

وبدأ عقل ليلي يدور في سرعة، لماذا يريد مقابلة والدها؟ إنه لا يعرفه، وليس بينهما أي صلة! هذه العبارة يقولها الرجل للمرأة حين...

وتطلعت ليلي إلى الدكتور رمزي من طرف عينها، وبدا لها بعيداً معزولاً كعادته في صندوقه الزجاجي.

لا، لا يمكن، لا يمكن، لا بد أن له مصلحة في وزارة المالية وسمع أن والدها موظف فيها!

لا، لا يمكن، الناس لا تتزوج هكذا!

ورفع إليها الدكتور رمزي رأسه وقال:

- الاتنين كويس يا ليلي؟

- حاضر يا دكتور.

- وقامت واقفة.

- وقال وهو يبتسم:

- حتردي عليّ إمتى؟

- بكرة إن شاء الله.

ووقفت ليلي لحظة مترددة، ولكنها لم تجرؤ على سؤاله عن سبب رغبته في مقابلة والدها.

وعلى غير العادة وقف الدكتور رمزي، وصافحها قبل أن تتصرف.

* * *

قالت أم ليلى وهي جالسة على مائدة الغداء:
- والنبي أنا قلبي حاسس إنه عايز يتجوزك يا ليلى.
وصرخت فيها ليلى في حدة:
- هو إنت مفيش في عقلك إلا الجواز يا ماما؟! هي الناس بتتجوز من الباب للطاق كده؟!
وركز أبوها عينيه فيها، وقال في برود:
- يعني إيه من الباب للطاق؟
وارتج على ليلى.
والتفت أبوها إلى أمها وقال:
- على العموم، مفيش داعي تطلعي في عقل البنت كلام فارغ زي ده، دا راجل له اسمه
ومركزه، ولما حيتجوز حيبص لفوق.
وقالت الأم محتجة:
- يوه! هي ليلى وحشة؟! دا سي محمود الأتربي يقول...
واستطردت تقص حكاية رددتها مائة مرة، مؤداها أن لو كان في كلية الآداب ثلاثة مثل ليلى
لأنصلح أمر الكلية.
وبعد أن قام الأب عن المائدة، مالت ليلى على أمها، وقالت في صوت مكتوم:
- مفيش داعي تعدي وتحسبي، لو كان موضوع جواز كان على الأقل لمح لي بكده، الموضوع
مش موضوع جواز، وأنا باقول لك أهو.
وقامت من على المائدة غاضبة.

* * *

وكان الموضوع موضوع زواج، وبعد أن خرج الدكتور رمزي من البيت، أحاط أبوها كتفيها
بذراعيه وقال وهو يكاد يطير بها من الفرح:
- مبروك يا ليلى، قرينا الفاتحة على بركة الله.
وكان أول خاطر خطر ليلى، أن أحدا لم يستشرها، لا أبوها ولا الدكتور رمزي، وكأن أحدا
غيرها هو الذي سيتزوج، ولكنها نسيت هذا خاطر في غمرة اعتدادها.
وازداد هذا الاعتداد، حين عُرف الخبر في الكلية، وتمتعت بنظرات الحسد والفضول، وهي

تشعر طوال الوقت أن الأيدي تشير إليها، وأن من لم يعرفها عرفها، لأنها أصبحت خطيبة الدكتور رمزي.

واحتضنتها عديلة حين رأتها، وقالت:

- يا بنت الإيه! أما حتة جوازة؟ دا إنت هزيت الكلية!

وقبلتها سناء وقالت:

- مبروك.

وقالت عديلة لسناء، بعد أن انصرفت ليلي:

- جالك كلامي، أنا أفهمها وهي طايرة.

وقالت سناء في حزن وهي ساهمة:

- مين كان يصدق؟

وقالت عديلة دون أن تفهم مقصد سناء:

- فعلاً، مين كان يصدق إن ليلي تجيب الراجل الجهم ده على ملا وشه؟! لكن صدق إيلي قال: ((تحت السواهي دواهي)).

وقالت سناء في قرف:

- بلا خيبة، والله هو إيلي جابها على ملا وشها مش هي!

بدأ الاصطدام بين الدكتور رمزي وبين أم ليلي مبكرًا، وإن لم يكن اصطدامًا بالمعنى المفهوم، فلم تكن أم ليلي تجرؤ حتى على الحديث أمام خطيب ابنتها.

وعندما نوقش موضوع الخطوبة قال الدكتور رمزي رأيته ببساطة واختصار، فهو يرى أن تكون الخطوبة ((على الضيق))، وأن يقام الاحتفال ((بكتب الكتاب)) والزواج في يوم واحد في الإجازة الصيفية التي تعقب تخرج ليلي.

ووافق أبو ليلي، وفتحت أمها فمها لتقول شيئًا ثم أطبقته ولم تتكلم، ولكنها تكلمت بعد أن خرج رمزي، وانصب لومها كالعادة على ليلي:

- قاعدة ساكتة كده ليه ولا كأن حد داس لك على طرف؟ هو إنت عازبة ولأ إيه؟ على الضيق! الكلام ده كان يبقى معقول لو كان الجواز قريب، لكن دا لسه سنة ونص، ويا هنا من يعيش!

- بس إنت عازبة إيه يا ماما؟

- يوه! عازبة أفرح، هو أنا مليش نصيب في الفرح؟!

كانت فرحة، وجدت أخيرًا عريسًا لابنتها، عريسًا تستطيع أن تتفاخر به أمام أختها، فكيف تترك مثل هذه المناسبة تقوت هكذا ((فطيس))؟

إن حظ أختها كان دائمًا أحسن من حظها، تزوجت أختها قاضيًا وتزوجت هي موظفًا بسيطًا في وزارة المالية. وتزوجت جميلة قبل ليلي بسنوات، وأي زواج؟! زواج ولا كل زواج، زواج معتبر، جعلها تلبس أحسن لبس، وتختلط بأحسن الناس. فأولاد سامية هانم ودولت هانم معها باستمرار، تدخل معهم وتخرج معهم. وصدقي ابن سامية هانم، وأخته شوشيت، عندها باستمرار. وعصام معهم طبعًا، وأي نصفة أصابت عصام؟!

تخرج قبل محمود بسنة، لأنه عاقل وناصح ولم يضيع سنة بحالها في الحرب والكلام الفارغ. وهو الآن نائب في القصر العيني ومحمود عاطل بعد أن انتهى من سنة الامتياز ينتظر التعيين، وقد يعين أو لا يعين، وحتى لو عين سيعين حكيم صحة لا نائبًا كعصام، ولن يعين في القاهرة بل في الأقاليم، وسيعيش بعيدًا عنها في الغربية بينما يعيش عصام في حضن أمه.

وعصام يختلط بأحسن الناس. وقلبها يحدثها أن وراء اختلاط جميلة بأولاد سامية هانم حكاية. ولا بد أن أختها عينها من شوشيت لعصام، وأختها حين تضرب، تضرب لفوق، وهي تعرفها جيدًا.

وقد طلبت هي من محمود أن يلاطف شوشيت فلم يهتم، وقال إنها كالذكر، لأنه عبيط ولا يفهم ما فيه مصلحته، ومسيره يقع في زواج متعوس، بينما عصام واع وناصح، ولا بد أنه الآن يلف

على البنت، وإلا فما معنى اختلاطهم الزائد؟ ولماذا يتردد صدقي وشوشيت على بيت جميلة باستمرار؟ لا بد أن وراء ذلك سرًا، وإذا تم زواج عصام بشوشيت يكون حظ أختها من السماء.

وهي؟ هي لا يريدون لها أن تفرح ببنتها، وكأن الفرح ليس من نصيبها!

واستمر النكد في البيت أيامًا حول هذا الموضوع، واشتكت أم ليلي لأختها ولبنت أختها ولعصام ولمحمود ولزوجها، ورددت الشكوى حتى ثار والد ليلي غاضبًا في وجهها:

- خلاص، قلنا كده يعني كده.

وسالت دموع الأم دون أن تتكلم.

واستجمعت ليلي شجاعته، وبدأت تفتح الموضوع في حذر للدكتور رمزي، ولكنه قطع عليها الطريق:

- خلاص يا ليلي، هو إحنا إللي حنتجوز ولّا هي؟ إحنا ما بنحبش الدوشة والناس الكثير!

واقترحت جميلة اقتراحًا ارتضته أم ليلي، وهو أن تقام الخطوبة على الضيق في البيت، إرضاء للدكتور رمزي، على أن تحتفل هي بالمناسبة في حفل تقيمه في بيتها، وتدعو له الأقارب والأصدقاء.

وكان على ليلي أن تقنع الدكتور رمزي بهذا الحل.

ولفت ليلي حول الموضوع ودارت، ثم رجّت الدكتور رمزي أن يقبل هذا الاقتراح، ونظر إليها مليًا وقال:

- المهم عندي رأيك إنت، إنت مقتنعة برأيي، ولّا لأ؟

- طبعًا مقتنعة، بس عشان خاطر ماما.

وعكست عيناها رجاء ملحًا، كالرجاء الذي يلمع في عيني طفلة وهي تنتظر أن يجيب لها أبوها طلبًا.

وقال وهو يبتسم:

- طيب يا ليلي.

وأضاف، وكأنه لام نفسه على التنازل في وقت ينبغي فيه أن يرسى قواعد العلاقة بينه وبينها:

- بس ضروري تفهمي يا ليلي، إني تنازلت عشان خاطر والدتك، وإني ما أنتظرش أبدًا إني أضطر للتنازل مرّة ثانية، وفي المستقبل ضروري يكون رأيي ورأيك حاجة واحدة.

وقالت إنها تفهم موقفه تمامًا وتقدره، وتنفست في ارتياح.

كانت تريد أن تخلص من هذه الشكليات، من الخطوبة، ومن حفلة جميلة، ومن كل شيء، وتفرغ إليه، تنفرد به، تفتح له قلبها ويفتح لها قلبه، وتشعر به ويشعر بها، ويزول الحاجز الذي

يفصل بينهما.

لم تعد العلاقة التي كانت تجمعها بها كأستاذ بطلانته ترضيها، كانت تريد أن تشعر أنها خطيبته وحبيبته.

نعم حبيبته، وإلا فلماذا خطبها؟ فهي ليست جميلة ولا غنية، ولا من أسرة ذات مركز اجتماعي خطير ولا شيء، لا شيء على الإطلاق.. فما الذي يجعل رجلاً مثله يتزوج فتاة مثلها سوى الحب؟

كانت قد عاشت حتى الآن في ظل قوته، وكانت تريد الآن أن تعيش في ظل دفئه، كانت تحلم باليوم الذي ينزاح فيه القناع الذي يغلف به عاطفته تجاهها، وتتفجر فيه هذه العاطفة دافقة رقاقة تلفها وإياه، وتمسح على رهبتها منه، وعلى شعورها بالخوف في حضرته.

كانت تريد أن تشعر أنها ليست مقبولة كإنسانة فحسب، بل محبوبة أيضاً كامرأة، ومرغوبة.

وكانت هذه الرغبة تؤرقها، غير أنها انشغلت عنها في الأيام السابقة لإعلان الخطوبة.

كان البيت يشغي بالناس، وكانت ليلي تتلفت حولها فتجد وجوهاً حبيبة إلى قلبها، أمها وخالتها وجميلة ومحمود أحياناً.

كانت مدة إقامته في المستشفى كطالب امتياز قد انتهت، وأصبح يقيم في البيت في انتظار قرار تعيينه، ولكنه كان يقضي معظم وقته في الخارج، وحين يأتي من الخارج تدب الحياة في البيت بأجمعه وكأنه قد أتى معه بنسمة منعشة، وكأنه كان يفيض بسعادته على الآخرين.

كان سعيداً للغاية، لا يكاد يستقر على الأرض من فرط سعادته.

وفي فورة كفورة الفقايع على سطح المياه الغازية يقبل ليلي، ويحتضن أمه، ويربت على كتف خالته، ويطري ذوق جميلة في اختيار ثوبها.. وتزول الفورة وتعمق العيان وترق الشفتان حين ينظر إلى سناء نظرة طويلة عميقة تنقلها عاطفته الجياشة.. ثم يتخفف من حمله وتعود الفورة من جديد، وتسدل سناء جفניה على عينيها وكأنها مخدرة.

وكانت ليلي تتساءل: ألا تخشى سناء أن يلحظها الناس؟ ثم كيف تعرف المواعيد التي يبقى فيها محمود في البيت؟ لا بد أن محمود يتصل بها في التلفون، ولا بد أنهما يتقابلان في الخارج! ولكن كيف؟ إن الرقابة على سناء صارمة، فكيف تفلت من هذه الرقابة؟ إن سناء تلعب بالنار، والنار ستحرقها وتحرق محمود.

ولكن من الواضح أنهما يستعذبان هذه النار، محمود سعيد وكأنه قد ولد من جديد، قوي وأكثر رجولة ووسامة، وأكثر ثقة في نفسه وفي المستقبل. وسناء لا تعيش على الأرض، إنها تطير. وهما قد ازدادا جرأة واعتداداً هذه الأيام وكأنهما متفقان على خطوة ما، خطوة تتطلب كل جرأتهما. وهذه حقيقة ثابتة لم تغب عن عيني جميلة الفاحصتين ولم يكن من الممكن أن تفوتهما الآن.

* * *

كان التغير الذي طرأ على جميلة في مدة السنوات الثلاث الأخيرة تغيرًا غريبًا يصعب تصديقه، تحولت الفتاة الغريزة الطفلة إلى امرأة ناضجة ماهرة عملية محنكة.

امتلاً جسدها، واستدار، واستقامت مشيتها، واستقر الوجه الجميل فوق العنق الطويل الشاهق البياض، بعد أن كان يدور في فورة أشبه بفورة محمود، وكللت الجداول السوداء الحالكة، الجبين الأبيض المنبسط في كبرياء، شعرة فوق شعرة وكأنها مرسومة بريشة فنان، واحتلت العينين العسليتين اللتين كانتا تترقرقان كالنبع الصافي، نظرة جريئة قاسية باردة، وأصبحت البسمة الخجول بسمة مرسومة مدروسة.

وبدت جميلة أشبه بتمثال مرمرى رائع الجمال، وتحت السطح الخامد نار، والنار المستترة تلهب رغبة الرجال، والسطح الخامد يستفز رجولتهم، ويدعوهم إلى النضال، إلى امتحان قوتهم إزاء هذه المرأة الجميلة المعتدة بجمالها.

وكانت جميلة تمضي مرتفعة الرأس منتصرة، تشعر أنها تستطيع أن تجتذب أي رجل ترغب أقل رغبة في اجتذابه، وكانت تتمتع بكل دقيقة تقضيها في كل حفلة من الحفلات.

ولكن عندما تعود إلى البيت من سهرتها، تلفها الكآبة، وهي تمر بحجرة زوجها المغلقة، وغطيته يصل إلى مسامعها. تتمدد في سريرها وتحلم أنها عادت إلى سن السابعة عشرة، وأنها صغيرة ولم تتزوج، وأنها تحب.. تحب من؟ إنساناً آخر غير كل هؤلاء الذين تقابلهم في الحفلات، هؤلاء يمضون وقتاً لطيفاً، كما تمضي هي هذا الوقت، لا أكثر ولا أقل. وهي ترغب لا في الغزل ولكن في حب عميق، حب صامت أصيل، يلفها لا في معركة حامية، ولكن في استرخاء حنان.

* * *

وعندما عرفت جميلة أن ليلي على وشك أن تخطب، احتل القلق عينيها، وعندما انفردت بها في الغرفة قالت:

- أنت بتحبي رمزي يا ليلي مش كده؟

وهزت ليلي رأسها بالإيجاب.

وانزاح القلق عن وجه جميلة، وارتخت في جلستها، وضحكت ضحكة عصبية قصيرة، وقالت:

- أنا عارفة كده برضه، إنت طول عمرك أعقل مني، انتظرت لغاية ما جالك إللي يحبك وتحبيه!

ومالت ليلي على جميلة وأمسكت بيدها:

- وإنت كمان مبسوفة في جوازتك، مش كده يا جميلة؟

وبدت في عيني جميلة نظرة حزينة ما لبثت أن اختفت، وقامت واقفة، وعندما وصلت إلى النافذة استدارت بجانب من وجهها وقالت وفي عينيها نظرتها الباردة القاسية:

- اسألني ماما تقول لك.. تقول لك على السعادة إيلي أنا فيها!

ثم استدارت تواجه ليلي وتقول:

- على العموم إحنا فيك دلوقت، ضروري نفكر حنعمل إيه في الحفلة.

كانت مهتمة بموضوع خطوبة ليلي، وبالحفلة وبكل التفاصيل.

وكانت تتردد على ليلي في هذه الفترة كل يوم تقريبًا، تدخل البيت برائحتها العبقة وبثيابها الرائعة في بساطة وبذخ وانسجام، ويتنهد الجميع في ارتياح، وكأنهم يلقون بكل المسؤوليات عليها، فهي التي تعرف كل شيء، وهي التي تقترح، وهي التي تدبر الأمور في بساطة وفي دراية، وكأنها ظلت طول حياتها تدبر أمور الخطوبة والزواج.

وفي أول الأمر كانت تأتي مع زوجها ثم أسقطته وأصبحت تأتي وحيدة.

وقالت أمها:

- أمال فين علي بك؟

وهزت جميلة كتفها وقالت:

- حاجبيه يعمل إيه؟ ينام زي ما عمل إمبارح؟!

وكتمت ليلي ضحكتها. تصورت علي بك وقد افترش الأريكة فكاد يملأها، ومال برأسه على كتفه وانفتح فمه وعلا تنفسه وهو يغط في نومه، وسلسلة الساعة الذهبية تتدلى على كرشه، ضخمة كبيرة، وكأنها السلسلة التي يوثق بها المساجين.

وقالت أم جميلة:

- لا، ملكيش حق يا جميلة. مش قرابيه؟!

وهزت جميلة كتفها في استخفاف، وقالت لليلي:

- على فكرة عصام بيعتذر لك، وجاي بكرة يهنئك.

وكانت ليلي قلقة لأن عصام لم يهنئها.. كانت تريد أن تراه، وأن تشعر أنه لا يحمل لها أي مرارة، وأن تشعره أنها لا تحمل له أي مرارة.

وكانما أرادت أن تصفي كل شيء قبل أن تخطب.

وجاء عصام مع صدقي، وكانا قد أصبحا صديقين متلازمين، وحين رأتهما ليلي معًا، ابتسمت.

تذكرت ليلي خطوبة جميلة، حين أراد عصام أن يخنقها لمجرد أن صدقي حادتها.

ولمح عصام ابتسامتها وفهم سرها، وحين خلا مكان، جلس إلى جانبها، وقال وهو يبتسم:

- كنت بتضحكي على إيه؟

- يعني بقيتوا أصحاب إنت وصدقي!

وضحك عصام وقال:

- فاكرة؟

وقالت ليلي:

- كان لعب عيال.. مش كده؟

ولم يجب عصام.

ولمحت ليلي صدقي يهمس في أذن جميلة بكلمة، وجميلة تنفث دخان سيجارتها في وجهه وتضحك ضحكات قصيرة متقطعة.

ورفع عصام وجهه إلى ليلي وقال، وهو يبتسم ابتسامته الخجول:

- عارفة يا ليلي أنا ناوي أعمل إيه لما أتجوز؟

ونظرت إليه ليلي متسائلة، وقال:

- أول بنت لي حاسميها ليلي، على اسمك.

وشعرت ليلي بخجل، شعرت أنها تافهة وحقيرة، وأن عصام الذي احتقرته يوماً أفضل وأشجع منها.

عصام لا يريد أن يتكرر لعاطفة أصيلة ملأت قلبه يوماً، لقد انقضت هذه العاطفة بالنسبة إليه، ومع ذلك ما زال يدخرها في قلبه كشيء جميل يعتز به. وهي تنتكر لهذه العاطفة التي ملأتها بالسعادة يوماً وتسميها في قسوة وجفاف ((لعب عيال)).

تنتكر لنفسها لترضي من؟ نفسها؟ رمزي؟!

ولم تنسق ليلي في تفكيرها، قطعت عليها جميلة هذا التفكير حين صفقت ببديها وقالت:

- يلاً.. الرجالة يتفضلوا، إحنا يا ستات عندنا شغل.

ووقف عصام، وجلس صدقي مكانه لا يتحرك وسيماً جذاباً أنيقاً جريئاً يقتحم بنظرته جميلة وهي تجلس إلى جانبه.

وتدل صدقي قبل أن ينصرف، وقال إنه يموت في شغل الستات، ولكن عصام سحبه من يده وهو يضحك.



وبدأت جميلة تناقش تفاصيل الحفلة التي ستقيمها، وانحصر النقاش في اختيار الثوب الذي ستحضر به ليلي حفلة الخطوبة. وبدأت ليلي تناقش نوع القماش، واعترضت جميلة. قالت إن ((الموديل)) هو الذي يحدد نوع القماش. وأعلنت أمام الجميع أن الثوب سيكون هديتها إلى ليلي بمناسبة خطوبتها.

وفي اليوم التالي أخذت جميلة ليلي إلى حائكتها، وقالت للحائكة:

- أنا عايزة أحسن حاجة عندك يا مدام.

- حاجة ((سبيشيال)) يا مدام.

قالت الحائكة وهي تشير إلى غلاء ((الموديل)) الذي ستعرضه عليهما. وقالت جميلة في عناد:

- قلت لك أحسن حاجة.

وأرتها ((موديل)) من الشاش وقالت إنه من تصميم ((كريستيان ديور)). ووقفت ليلي وجميلة مبهورتين أمام ((الموديل))، وقالت الحائكة بالفرنسية:

- دا موش ((موديل))، دا حلم.

ولم تخالف الحقيقة فيما قالت. لم تر ليلي في حياتها شيئاً أجمل من ذلك ولا حتى في السينما، وكادت ترى نفسها وهي ترتدي هذا الثوب في ((شيفون)) أبيض، لا بد أنه سيجعلها أجمل مما هي عليه عشرات المرات، ولا بد أن رمزي سيرها جميلة إذ ذاك.

وانقبض وجه ليلي وقالت:

- فيه حاجة تانية من فضلك يا مدام؟

وقالت جميلة في استغراب:

- إنت مجنونة يا ليلي؟! هوّ فيه أحلى من كده؟

وقالت ليلي:

- أنا عايزة حاجة مقفولة.

وهزت الحائكة كتفها وقالت في استخفاف:

- كوكتيل مقفول؟!!

وصمتت ليلي، ورجت جميلة الحائكة، ورفضت الحائكة في عناد وقالت بالفرنسية في احتقار:

- أنا فنانة مش خياطة! وما أفصلش فستان كوكتيل مقفول!

وجلست جميلة في سيارتها، وقد تصلب جسمها، ولمعت الدموع في عينيها من الغيظ، ولمست

ليلى فخذها برقة وقالت:

- أنا آسفة يا جميلة!

ولم ترد جميلة.

ومالت ليلى وقبّلتها في خدها، والتفتت إليها جميلة وقالت في احتداد:

- أنا عايزة أفهم بس، إنت ليه عايزة تكتمي نفسك الكتمة السوداء دي؟ طول عمرك بتلبسي المفتوح!

وقالت ليلى:

- أصل.. أصل رمزي ما يحبس الحاجات المفتوحة.

- ما يتفلق يا ستي! هوّ الرجالة حنتدخل في هدم الستات كمان؟!

- ما أقدرش يا جميلة.

ومالت جميلة على ليلى وقالت في بطة:

- هاوديني يا ليلى، أنا جربت الدنيا أكثر منك، الست لما تتخ للراجل من أول يوم يركبها ويدلّل رجليه.

وشعرت ليلى بوخزة في قلبها، وأدركت فجأة أن ذلك الشيء الذي تحذرها منه جميلة قد حدث بالفعل. حدث أو لم يحدث، لا بد أن يكون الثوب مقفولاً. ولن يرضى عنه رمزي إلا إذا كان مقفولاً.

وخاطت لها خالتها ثوب الخطوبة مقفولاً.

* * *

وعندما وقفت ليلى أمام المرأة، قالت خالتها بعد أن أجرت اللمسات الأخيرة في الثوب:

- جنان يا حبوبة، جنان!

وتراجعت إلى الوراء، وضافت عيناها وهي تفحص الثوب من بعيد، ثم ضحكت فجأة وقالت:

- عارفة يا ليلى فستانك طلع زي إيه؟

وأدارت ليلى رأسها:

- زي إيه يا خالتي؟

- زي فستان جواز جميلة، بس ده مقفول والتاني مكشوف. تمام تمام، نفس الكسم والرسم والقماش.

وغامت عينا ليلي.. رأّت جميلة تقف في السطح يوم حريق القاهرة مولية ظهرها إلى السماء،
مسمرة كالتمثال في ثوبها الأبيض، وكتل الدخان الكثيفة الكريهة تحيط بها كالإطار.

وتردد في أذن ليلي صوت حسين وهو يقول:

- دي مش النهاية يا ليلي، صدقيني، دي مش النهاية.

والتفتت ليلي إلى خالتها وقالت بصوت ضعيف:

- خلاص يا خالتي؟

جلست ليلى في السيارة بين أبيها وخطيبها في الطريق إلى بيت جميلة. كان أبوها يجلس إلى جانبها جامدًا متصلبًا، ورمزي قد انكمش في جلسته وكأنه يخشى أن يمس جسده جسدها.

وشعرت ليلى برجفة باردة تمسها رغم أن الأمسية كانت من أمسيات شهر يوليو، وحاولت أن تتكلم لتزيل الحرج الذي يسود ثلاثتهم، وأدارت رأسها إلى رمزي وقالت:

- الفستان كويس؟

ونظر إليها أبوها في استنكار.

وقال رمزي وهو يكتم ابتسامته، وكأنه يأخذ طفلة صغيرة على قدر عقلها:

- عال.

ولم ترضِ الابتسامة ولا التعليق ليلى، ولكنها عزت تحفظ رمزي إلى وجود أبيها معهما. وربض الصمت على ثلاثتهم من جديد. وبدأت ليلى تعبت بخاتم الخطوبة وهي تطيل النظر إليه.

كان رمزي قد جاء بأمه إلى بيت ليلى في اليوم السابق، وألبسها الخاتم مع دبلة ذهبية.

وأحبت ليلى أمه للوهلة الأولى، شعرت كأن شيئًا ما يقربها من هذه المرأة، ويجذبها إليها، كما لو كان بينهما شيء مشترك، وظلت تتطلع إلى وجهها، كان في وجهها حلاوة لم تمحها السنون، ورقة ووداعة وانكسار، وفي عينيها حزن دفين، يغيب فجأة حين تتطلع في اعتداد إلى ابنها.

ولاحظ رمزي أن ليلى تعبت بالخاتم، وقطع الصمت الذي ساد ثلاثتهم وقال:

- والخاتم عجبك؟

ورفعت إليه ليلى وجهها مبتسمة:

- في منتهى الجمال.

وقال رمزي:

- الحاجة الثمينة دايماً تبقى جميلة.

ولم ترتح ليلى إلى هذه الإشارة إلى ثمن الخاتم، وقال أبوها:

- فعلاً الغالي تمنه فيه.

وربض الصمت على الثلاثة حتى توقفت العربة أمام بيت جميلة، وانفتح الباب، ولفت ليلى

موجة من الدفء.

اندفع محمود من بين صفوف المنتظرين تجاه ليلي، كان ينوي أن يصادفها فقط ولكنه عندما اقترب منها ووضع يدها بين يديه جذبها إلى صدره واحتضنها.

وتشبثت ليلي به وشعرت أنه قريب منها، أقرب مما كان طيلة السنين الماضية.

وعندما انفصل الأخ عن الأخت كانت الدموع تلمع في عيني ليلي، وكانت أمها تقف بعيدًا وشفتاها ترتجفان.

وصرخت جميلة في حماس وهي تمسك بكتفي ليلي:

- أنت جنان يا حبيبتي النهارده، جنان!

وقالت خالتها:

- يا روجي عليك، ربنا يحميك، عروسة ولا كل العرايس. وصادفها عصام وهو يبتسم ابتسامته الخجول وقال:

- في الحقيقة، حاجة تخلي الواحد يقرر إنه يتجوز.

وصادفها علي بك زوج جميلة، وقال وكرشه يتهدج:

- ما شاء الله يا ست هانم، حاجة عظيمة خالص يا ست هانم.

ووقف الدكتور رمزي متباعدًا، ينتظر انتهاء المظاهرة، ثم تحول إليه المستقبلون يصادفونه ويهنئونه.

وتقدمت ليلي إلى حيث تقف أمها، ومالت عليها وقبلتها، ولمعت الدموع في عينيها من جديد.

وعزفت الموسيقى، وأمسك رمزي بذراع ليلي وسار بها إلى داخل الحديقة.

وشعرت ليلي بشيء من الحرج وهي تمر بين الموائد المتناثرة في الحديقة المزدحمة بالناس، ثم زال الحرج.

وقف الرجال ليتملوا منها وهي تمر، وشعرت بعيونهم تطوف بوجهها في حنان وكأنها تربت على خدها، وزغردت سيدة وأفسحت بزغروتها المجالا للتعليقات، وارتفع صوت نسائي يقول:

- يا روجي عليها زي القمر!

وقال صوت رجل:

- زي الخوخة، الخوخة الحلوة.

وشدت ليلى قامتها، وارتفع رأسها، وتورد خذاها، وتكور فمها الدقيق، وترقرقت عيناها بلمعان وهاج. شعرت أنها جميلة، وأنها محبوبة ومرغوبة، وانتشت.

وعندما اقتربت من المائدة الرئيسية خلعت قفازها وهي تحني رأسها إلى جانب في دلال، ومدت يدها تقطع التورطة الكبيرة. وابتدأ حفل الشاي.

وعندما مرت السكين في التورطة، تذكرت ليلى فجأة أن رمزي بجانبها، وتطلعت إليه وهي تضحك، وقدمت له قطعة من التورطة وهي تنظر إليه في شقاوة.

الليلة.. الليلة سيقول لها شيئاً جميلاً، الليلة. شيئاً يهزها، ويلفهما معاً، ويجعلهما يحلقان عاليًا بعيدًا عن الناس. الليلة هي جميلة في ثوبها الأبيض وهو جميل في بذلته الكحلية. والليلة ليلتها التي سيتذكرانها دائماً، حين ينفردان في بيتهما، يحكي لها وتحكي له.

الليلة سيمد يده إلى يدها من تحت المائدة، ويمسك بها ويهمس بشيء في أذنها، شيء يجري الدماء ساخنة في عروقها. الليلة ستطوف نظرتة بها كأنها تتحسسها، وكأنها تربت عليها، وكأنها تضمها، ثم تنزاح عنها في ألم، حين يدرك هو أن النظرة لا تكفي، لا تشبع الرغبة في أن يحتويها في كيانه.

والليلة ستتوقف الكلمات على لسانه قاصرة مبتورة عاجزة عن تحمل الحب الذي يطويه لها هذا الرجل الكبير في جوانحه.

ومالت ليلى برأسها إلى جانب، وقالت في خفة وهي تحاول أن تصل برمزي إلى اللحظة التي تنتظرها:

- يعني ما قلتش الفستان عاجبك ولّا لأ؟

- ما قلت.

وتكور فم ليلى وهي تمضغ قطعة من التورطة:

- يعني عاجبك؟

وابتسم رمزي وقال:

- أنا عارف إنت عايزاني أقول إيه، لكن أظن الكلام ده اتقال كفاية الليلة، بعدين تطلعي فيها.

وقالت في دلال وعيناها تتوهجان:

- عايزاك نقول إيه؟

وضحك رمزي:

- إنك حلوة.

واحمر وجه ليلى، وأطرقت في حياء، وقالت في صوت هامس:

- يعني أنا حلوة صحيح النهارده؟

ووجف قلبها، وهي في انتظار الإجابة. وقال رمزي:

- ودي عايزة كلام!

ولكن كان في رده نغمة من الاستخفاف لم ترتح إليها ليلى، وانقبضت يدها على طرف المائدة وكأنها تتشبث بها.

وقالت وهي تهز رأسها كطفلة عنيدة:

- على كل حال، أنا ضروري أكون حلوة، بالنسبة لك إنت على الأقل، وإلا ما كنتش خطبتني.

وقال رمزي:

- أنا على العموم ما باختاراش مراتي على أساس سوقي!

وسقطت الشوكة من يد ليلى في الطبق.

وأضاف رمزي:

- المظهر الخارجي ما يهمنيش في كثير، إللي يهمني الاستقامة.

ولم تعاود ليلى الأكل، أبعدت الطبق عنها، وانقبض وجهها وعيناها تطوفان بالحديقة.

ولاحظت ليلى أن جميلة قد نظمت كل شيء بنفس الطريقة التي نُظم بها ليلة الاحتفال بزواجها: الموائد متناثرة في الحديقة حول الممر، والأنوار الملونة تتلألأ بين الأشجار، والأوركسترا في نفس المكان عند مدخل الحديقة، ونفس الوجوه تتطلع إليها، والمائدة الرئيسية بالقرب من مدخل البيت.. مع فارق واحد، أنها هي تجلس حول المائدة الرئيسية بدلاً من جميلة، ورمزي يجلس مكان علي بك.

مالت جميلة على ليلى ورمزي وقالت:

- إيه رأيكم؟ كل حاجة كويسة؟

وأشارت ليلى إلى البذخ الذي تبدى في كل شيء، وقالت في صوت ضعيف:

- كل ده عشاني؟ عشاني أنا يا جميلة؟

وكانها تستكثر على نفسها هذا الحفل الباذخ.

وضحكت جميلة وقالت:

- يا سلام يا ستي، هوّا إحنا عندنا كام ليلي؟

واعتدلت في وقفته، وقالت وهي تضحك في استفزاز:

- وعشان كمان الدكتور رمزي، على الله يكون مبسوط. إحنا عارفين إنه ما يحبش الحفلات والكلام الفارع ده، ولكن حنعمل إيه بقه؟ ضروري ياخذنا على قد عقلنا.

ولم تفت نبرة السخرية على الدكتور رمزي، ونظر إلى جميلة في غضب، وصمدت جميلة لنظرته وهي تكتم ابتسامتها.

وذاب غضبه في ابتسامة وقال:

- على العموم يا ستي إحنا متشكرين.

وهمت جميلة بالانصراف، ثم توقفت، وكأنها تذكرت شيئاً، وقالت لليلى وهي تشير بيدها إلى الحديقة:

- خدت بالك يا ليلي؟ أنا عملت كل حاجة زي يوم جوازي تمام. وتلفتت ليلي حولها ساهمة.

وقالت جميلة وهي تستدير لتصرف:

- تمام يا ليلي، تمام.

وبدت نظرة حزينة في عيني ليلي وهي تقول:

- فعلاً زي يوم جوازيك تمام.

ولكن جميلة لم تسمعها، كانت قد أولتهم ظهرها وهي تتجه إلى موائد المدعوين.

وتركز نظر رمزي على ظهر جميلة وهي تسير في ثوبها الضيق. كانت في ثوب أسود حالك السواد يضم في عنف جسدها الفائز، يكشف عن جانب من الظهر، وينفرج ليبرز دقة الخصر، ثم ينحبس عند الردفين، وكأنه انحبس منها فجأة في هذا الموضع وهي تلبس، وسدلت بقيته في صعوبة على ساقها البيضاء الممتلئتين في امتشاق وانسجام.

وارتفعت عينا الدكتور رمزي من أسفل إلى أعلى، حيث ينفرج الثوب الأسود عن كتفين مستديرتين كالتفاحتين، ويمتد ليكشف عن عنق طويل من مرمر.

وغرق رمزي في السواد من جديد، سواد شعرها الحالك القصير المقصوص في استدارة.

وراقبت ليلي جميلة وهي تقترب من المائدة التي يجلس عليها صدقي وعصام وشوشيت.

كان صدقي يجلس مسترخياً في مقعده وهو يلعب بسلسلة ذهبية في يده، ولكن وجهه لم يكن مسترخياً كجسده، كان يتحفز لجميلة وهي تقترب إلى حيث يجلس.

وعصام لم يشعر باقتراب جميلة، كان منصرفاً إلى شوشيت أخت صدقي، ينظر إليها نظرته الخجول، ويبتسم في وجهها ابتسامته غير المكتملة، ويحاول، بلا فائدة، أن يصل إليها. وهي تجلس

غائبة عنه، غارقة في دخان سيجارتها، نحيلة رهيفة ليس في وجهها جمال سوى جمال عينيها الكبيرتين الحالمتين اللتين تنظران بعيداً، إلى حيث يتطاير الدخان.

وعصام يحاول، المسكين يحاول، أن يقوم بالدور الذي أسند إليه، دور المغازل، وهي قريبة منه وبعيدة، كما لو كانت محبوسة في دخان سيجارتها.

وجميلة تميل على صدقي، وتقدم له قطعة من الجاتوه، وصدقي يعتدل في جلسته، ويهمس في أذنها بشيء، وتهز جميلة راسها بالنفي.

جميلة تقول لا، وتتجه إلى المائدة التي يجلس عليها زوجها بكرشه المنتفخة ثم تطوف ببقية الموائد.

وانتقلت ليلي بنظرتها إلى المائدة التي تجلس عليها أمها.. أمها قلقة، تجلس وقد تهدلت كتفها، وترفع عينيها في حذر وفي خوف وكأنها تريد أن تنظر إلى شيء، وتخشى أن تتحقق مخاوفها. ولكن ممّ تخاف أمها؟ أتخاف ألا تكون هي سعيدة؟ لا إنها لا تنظر في اتجاهها، إنها تنظر في اتجاه اليمين، في اتجاه محمود وسناء.

سناء تجلس مع محمود وحدهما، يا للجرأة! سناء وقد تورد وجهها تهمس في أذن محمود بشيء، وعينا محمود تلمعان كفصين من الفيروز.

ومالت ليلي إلى الأمام ولم تستطع أن ترخي عينيها عن سناء ومحمود وكأنها مربوطة إليهما بخيوط سحرية.

* * *

ولمس رمزي ذراع ليلي، ورأت صدقي يقف خلفها يهنئها.

وقال رمزي وهويرقب صدقي يتخذ الاتجاه المضاد، ويعبر الباب متجهاً إلى داخل الفيلا:

- أخو جميلة؟

وضحكت ليلي في سخرية، وكأنها قد وجدت منفذاً لغيظها:

- صدقي، أخو جميلة؟! طبعاً لأ. إللي ما فيه شبه بينهم!

- في المظهر الخارجي جازي، ولكن نفس الشخصية.

- أبداً مفيش نسبة، جميلة بنت طيبة وبسيطة، وصدقي...

وقاطعها رمزي:

- يعني عايزة تقولي إن جميلة شخصيتها زي شخصيتك مثلاً ؟

- تقريباً، إحنا متربيين سوا في بيت واحد.

- وهز رمزي رأسه، وهو ما يزال يحد النظر إلى جميلة:
- لأ، هيّ حاجة تانية خالص.. وعمرك ما حتبقي زيها.
- ونظرت إليه ليلي في دهشة، وضحكت في ارتباك.
- وقال رمزي:
- بتضحكي على إيه؟
- أصل إنت قلت الجملة دي بطريقة غريبة، زي ما تكون زعلان إني مش زي جميلة.
- ونظر رمزي إلى ليلي طويلًا، وهو يسحب نفسًا من سيجارته، وقال:
- لو كنت زيها ما كنتش اتجوزتك!
- ليه؟ جميلة مالها؟
- أنا ما قلتش حاجة، جايز هيّ أحسن بنت، بس مش الطراز إلي ينفعني، قصدي كزوجة.
- قصدك الطريقة إلي بتلبس وبتتروق بها؟
- لأ، حاجة أعمق من كده، شخصيتها، شخصيتها ما تتماشاش مع شخصيتي.
- وترددت ليلي لحظة، ثم قذفت بالسؤال الذي يعذبها:
- وإنت عايز تتجوزني عشان شخصيتي بتتماشى مع شخصيتك؟ ونظرت إليه، تنتظر أن يلين وجهه، أن يخبرها أنه يحبها، وأنه أحبها دائمًا.
- وقال رمزي في بساطة، ودون أن تختلج عضلة واحدة من عضلات وجهه:
- طبعًا، عشان مطيعة وهادية وبتسمعي الكلام.
- وتشبثت ليلي ببقية من أمل، وقالت:
- بس؟!
- وتوقف تنفسها وهي تنتظر الجواب. وقال رمزي:
- أمال يعني عشان إيه؟

* * *

وخفضت ليلي رأسها، وانحنى ترقب المائدة بعينين زائغتين، وفي قدح نصف ممثلي من الشاي لمحت ذبابة غارقة تحاول في يأس واستماتة أن تخلص نفسها.

وبحركة لا إرادية ارتفع رأس ليلي، وتركز كيائها بأجمعه في مراقبة محمود وسناء. وتسلسل إلى قلبها ألم مفاجئ، وكأن يداً تعتصره، وكلما ازداد الألم ازدادت انكباباً على مراقبة سناء ومحمود،

وكانها تستعذب الألم وتسعى إلى مزيد منه، وعيناها مفتوحتان ورأسها يدور بين سناء ومحمود، وكيانها تستوعبه المراقبة. . محمود قد رقت شفتاه حتى كادتا تختفيان، وسناء احمر وجهها وأشاحت برأسها في دلال.. محمود يميل عبر المائدة ويهمس بشيء، وسناء تركز على شفتها حتى لا تتفجر ضاحكة. نظرة محمود تتحسس سناء وكأنها يد إنسان أعمى، وسناء تسدل جفنيها على عينيها، وتتحسس بيدها يد محمود من تحت المائدة.. محمود يضع كلتا يديه على المائدة وهو يضحك في شقاوة، سناء تنظر إليه في دهشة وهي لا تدرك مرماه.. محمود يقول لها شيئاً، ويشير إليها بيده، عينا سناء تتوهجان وشفثاها الرقيقتان تنطبقان في تحفز.

سناء تضع يدها على المائدة ومحمود يمسك بيدها بين يديه أمام الناس، أمام كل الناس، في النور، ليعرف من لا يعرف أن سناء تحب محمود وأن محمود يحب سناء.

ومس رمزي ذراع ليلي وقال:

- جرى إيه؟ باقول لك سرحانة في إيه؟

ونظرت إليه ليلي نظرة غريبة وكأنها أفاق لتوها من حلم، وكأنها نسيت أنه موجود إلى جوارها. ولكنه موجود، موجود في كل ذرة من الهواء، موجود وكأنه وحده هو الموجود.

وسرت رجة باردة في جسم ليلي.. ((في تلاجة، وينقل عليها)).. سناء قالت ((إلي تتجوزه تتخط في تلاجة وينقل عليها)).

ومالت ليلي على رمزي وهي تضحك وكأنها ستحكي له حكاية تستخف بها، حكاية مضحكة لا يصدقها عقل:

- تصور؟! سناء ومحمود يبحبوا بعض! تصور!؟

وانكفاً رمزي يراقب سناء ومحمود، وقالت ليلي في صوت حاد متقطع وكأنها فقدت القدرة على التنفس الطويل:

- لعب عيال! مش كده، لعب، لعب عيال، عيال.

وانتابت صوتها في المقطع الأخير بحة أشبه بحة البكاء، ولم يعرها رمزي أي اهتمام، كان اهتمامه منصباً على مراقبة سناء ومحمود وكأنه يجد في هذه المراقبة لذة.

كان من الواضح أن سناء ومحمود قد قررا أن يتحديا كل الموجودين، وأن يعلنوا عزمهما على الزواج بطريقة لا تحتل الشك.

واعتدل رمزي في جلسته وقال في استنكار:

- فيه خطوبة رسمي!؟

وضحكت ليلي ضحكات قصيرة محمومة وكأنه ألقى بنكتة، ومالت عليه وكأنها ستقضي له بسر غريب، وقالت هامسة وقد اتسعت عيناها:

- فيه حب! تصور!؟

وضحكت ضحكة أشبه ما تكون بالنشيج.

واعتدلت في جلستها، وعادت من جديد تراقب سناء ومحمود وكأنها مشدودة إليهما بخيوط سحرية، ولكنها لم تستطع أن تركز، كان صوت رمزي يصل إليها من بعيد وكأنه يتكلم من داخل حجرة زجاجية مقفلة.

- مفيش حاجة اسمها حب، دي الكلمة إللي الإنسان المتحضر بيقتنع بها الغريزة! وإللي إنت شايفاه قدامك، اندفاع، زي اندفاع الحيوان وراء غريزته!

ولكن من حسن الحظ أن الصوت قد توقف، وأنها تستطيع الآن أن تركز، أن ترقب، والألم يعصر قلبها، سناء وقد تورد وجهها وهي تهمس في أذن محمود بشيء يجعل عينيه تلمعان كقصين من الفيروز.

كادت ليلي تقفز واقفة، عندما شعرت بيدين تستقران على كتفيها، وتنبهت حواسها وهي ترى جميلة تقف خلفها مستندة إلى المقعد.

وقالت جميلة:

- جرى إيه يا ستي ليلي، هو إنت حتقеди كاشة كده ؟ ! مش تيجي تحيي ضيوفك!

واستدارت جميلة تواجه رمزي، ومالت برأسها إلى جانب، وترقرقت عيناها وتثنى صوتها وهي تقول في دلال واستفزاز:

- هو الدكتور رمزي من الرجالة إللي بيخوفوا ولّا إيه؟

ووجف قلب ليلي والكلمات تخرج من شفتي جميلة. خشيت أن يرد عليها رمزي ردًا وقحًا أو جامدًا بعد كل هذا الذي فعلته من أجلها. ولدهشتها رأت وجه رمزي يحمر، ولكن ارتبأكه لم يدم إلا لحظة نفث فيها دخان سيجارته ثم ارتخى في جلسته، ولمعت عيناها بنظرة جريئة متحدية، ودبت الحياة في وجهه وهو يميل تجاه جميلة ويبتسم ويقول:

- وإنت، ما بتخافيش!؟

- وهزت جميلة رأسها بالنفي.

وضحكت ضحكات قصيرة متقطعة اهتز لها جسدها. وطافت عينا الدكتور رمزي بالجسم الفائز الناضج تزنه في لهفة وفي ظمأ، وكأنه يدير بين يديه كوبًا من الماء المتلج بعد طول ظمأ، ثم استند بظهره إلى مسند مقعده، وضافت عيناها واهتزت ساقاه هزات رتيبة وهو يقول:

- أبدًا! أبدًا!؟

وخرجت كلماته سمكة وكان شيئاً ما يتقلها.

ومالت جميلة بنصفها الأعلى إلى الأمام، وأسندت يديها إلى فخذها وقالت وقد توهج وجهها:

- أنا ما أخافش! أنا أخوف بس يا دكتور رمزي!

ورأت ليلي عيني رمزي تستقران في نهم على الخط الذي يفصل بين نهدي جميلة، وشفته تنكوران في ابتسامة كريهة أشبه بتكشيرة حيوان مفترس.

ووصلت إلى آذانها أصوات الموسيقى وهي تتوالى في ضربات سريعة متلاحقة مجنونة.

وقال رمزي وهو يمسح بلسانه شفثيه وكأنه يتلمظ:

- بيتهألك!

وكانه يقول: ((استتي عليّ، الزمن بيني وبينك طويل!)).

ورأت جميلة نظرة رمزي ترتجف على نهديها، ولحظت أنه لا يستطيع بحال أن يستقر في جلسته، وانتشت.

واعتدلت قامتها، وضحكت في انتصار وهي تقول:

- على العموم، كفاية عليك ليلي تخوفها!

واستدارت ومضت. نسيت ما جاءت من أجله، ومضت وردفاها يهتزان أكثر مما يهتزان عادة حين تمشي، وكأنهما انفصلا عن جسدها، وكأنما أصبح لهما كيان منفصل، كيان رجراج جياش فوار لا يمكن التحكم فيه.

وتوقفت جميلة أمام باب الفيلا مترددة.

وتحركت شفثا ليلي وهي تناديها، ولكن لم يخرج من حلقها صوت، وكأنها فقدت القدرة على النطق.

ولم يدم تردد جميلة طويلاً، سارت إلى الفيلا وردفاها يرتجفان، وعبرت الباب، واختفت في المبنى.

ولمحت ليلي الذبابة وقد طفت على قدح الشاي، ماتت وطففت على السطح، وجعلت ترقبها وهي لا تفكر في شيء ولا تشعر بشيء، وفي عقلها خواء وفي كيانها خواء.

وارتفعت ضجة من المدعوين كالعاصفة المكبوتة، واندفعت إلى الحلقة راقصة متشحة بوشاح أحمر طويل، وازدادت ضربات الموسيقى جنوناً وعنفاً، وتتالى التصفيق متتابعاً متلاحقاً، وعلت الصرخات المجنونة، ونشرت الراقصة وشاحها الأحمر، وبدأت تدور حول نفسها دورات سريعة.

وفقدت الأشياء توازنها، وبدأت الموائد تهتز أمام عيني ليلي والناس والأشجار، وبدأ الجدار من خلفها يتمايل ويهدد بالانهيار.

ورفعت ليلي يديها إلى رأسها وكأنها تحجب عنها لكمة متوقعة.

وقال رمزي وهو يهز كتفها:

- مالك؟ مالك يا ليلي؟

واستقامت الأشياء أمام عيني ليلي، وبدأت تستعيد حواسها، وشلها خوف قاتل حين تعرفت على صوت رمزي وهو يقول:

- إنك ضروري تعبت من الدوشة، في الواقع حاجة تدوش!

وانقبض وجه ليلي وهي تحاول أن تزيج عن خدها ذبابة حطت عليه، ولكنها لم تجرؤ على تحريك ذراعها، بقيت مدلاة إلى جانبها كطن من الحديد إلى أن أمسك محمود بيدها.

تشبثت ليلي بيد محمود في جنون، وأطبقت عليها بكل قوتها، وكاد محمود يصرخ وهو يقول:

- إيه يا ليلي؟ فيه إيه؟

- خدني جوّه!

وقال رمزي:

- إيه؟

وقالت ليلي في صوت ضعيف وكأنها تعتذر:

- شوية! شوية!

وظلت تردد هذه الكلمات في سرها ومحمود يسحبها إلى داخل الفيلا، ولحقت بهما سناء في البهو ووجهها يتوهج، وأمسكت بوسط ليلي وهي تقول:

- هنييني يا ليلي، هنييني! دي اللحظة إللي كنت طول عمري باستناها!

وحركت ليلي شفتيها وهي تحاول أن تبتسم، ولكن جاءت حركتها أشبه بالحركة التي تسبق البكاء.. ورأت صورة حسين وهو يلمس ذراعها ويقول:

- أنا مستنيك يا حبيبتي، طول عمري مستنيك.

واندفعت تجري على السلم وكان إنسانًا يطاردها، وهمت سناء باللاحاق بها ولكن محمود قال لها وهو يمسك بيدها:

- سيبها يا سناء، أصلها متضايقة شوية!

وفتحت ليلى أول باب صادفها في الدور الثاني، وانهارت على أول مقعد قابلها وهي تلهث، ووجدت نفسها في دورة المياه الملحقة بغرفة نوم جميلة، وجلست وصدرها يتهدج وهي تحاول أن تستجمع أفكارها.

ولكن صوتًا ما كان يصم أذنيها ويفتت أعصابها ويحول بينها وبين التركيز، وتلفتت ليلى حولها وأدركت أن الصوت صوت ماء مكتوم ينتفض في الماسورة، وحاولت أن تنصرف إلى التفكير من جديد، ولكن الماء المكتوم كان يتحسرج بشكل كريبه، يتحسرج كحشرة مريض يحتضر. وتحاملت ليلى على نفسها وسارت إلى الحوض ومالت على الصنبور وفتحته، وانفجر الماء المكتوم وهو يغلي في حشرة ضخمة.. حشرة كريهة مخيفة، ثم سكن وهو ينساب في هدوء.

وشعرت ليلى بهدوء يتسلل إلى جسدها المنهك، ورفعت قامتها وصفا عقلها، وأدركت فجأة الموقف كاملاً بكل تفاصيله، وكأن الغشاء قد انزاح فجأة عن عقلها وعن عينيها، وهمست في يأس: ((أعمل إيه؟ أعمل إيه يا رب؟!)).

ووصلتها أنغام الموسيقى من الحديقة ممتزجة بأريج الياسمين، ولمحت وجهها في المرأة، وجه ميت، ومسحت بيدها على وجهها.

أمامها العمر كله لتفكر، أما الآن فيجب أن تخفي ذلك الوجه الميت عن الناس، وأن تنزل لتواجه رمزي، ولتواجه الناس، لتواجه المصير الذي اختارته لنفسها. الأمر بسيط، بسيط للغاية.. مزيد من البودرة ومن الأحمر ثم لا يعرف أحد، لا يدرك أحد أن تحت المساحيق وجهًا ميتًا.

وسارت ليلى إلى باب دورة المياه المؤدي إلى مخدع جميلة، وشعرت بقدميها تضعفان تحت ثقل جسمها وكأنها مريضة منذ شهور، ودفعت الباب ودخلت إلى الحجرة.

* * *

كانت جميلة ممتدة على الشيزلونج وجفناها مسدلان على عينيها وكأنها نائمة، وعلى الأرض يركع صدقي، ظهره إلى ليلى، ونصفه الأعلى ممتد فوق جسد جميلة، ووجهه مدفون بين نهديها، وكأنه نائم بدوره. ورأت جميلة ليلى أولًا حين ارتد باب الحمام إلى مكانه محدثًا أزيزًا.. رأتها واتقدت عيناها كراهية وغضبًا. وربتت على كتف صدقي ليقوم، ولكن ذراعيه التفتا حولها في تشبث. وامتدت كراهيتها إليه، مدت يديها وانتزعت ذراعيه في عنف عن كتفها وهي تصرخ في صوت مكتوم:

- قوم.

واستدار صدقي وهو ما زال في جلسته، وبدا عليه الارتباك حين رأى ليلى، ثم قام، وشبه ابتسامة تحوم حول شفثيه وكأنه قد وجد شيئًا مسليًا يدعوه إلى الابتسام، ولكنه لا يبتسم تأدبًا ومجارة للآخرين.

وسارت جميلة إلى مائدة الزينة وهي تعطي ظهرها لليلى، ووقف صدقي في وسط الحجرة وهو يسوي شعره بده.

وقادحت جميلة بنفس الصوت المكتوم دون أن تستدير:

اخرج.

وهز صدقي كتفه، وسار إلى باب حجرة النوم، وأدار المفتاح في الباب وخرج، كان باب الحجرة موصدًا، ولم يخطر ببال جميلة أن أحدًا سيدخل حجرتها عن طريق دورة المياه.

وفتحت جميلة صندوقًا خشبيًا موضوعًا على مائدة الزينة، وأخذت منه سيجارة وأشعلتها بيد مرتجفة وسحبت منها نفسًا، واستدارت تواجه ليلي:

- انفضلي، اشمي، حاضريني عن الفضيلة، عن الخيانة والانحطاط!

ولم تتكلم ليلي، نظرت إلى جميلة وكأنها لا تراها، وكأنها تنظر خلالها، وبدأت جميلة تتمشى في الحجرة كالنمر الحبيس، تخطو عدة خطوات قصار ثم تستدير وتخطو نفس الخطوات لتستدير من جديد.

وتوقفت فجأة وقالت:

- ما تتكلمي! ما بتتطقيش ليه؟! ولأ ما يصحش؟ ما يلقيش إنك تكلمي واحدة زي؟!!

وربعت يديها على صدرها:

- معلوم! واحدة زيك محترمة، مرات الأستاذ.. الأستاذ المحترم اللي...

ولم تستطع جميلة أن تكمل. انفجرت تضحك ضحكات خالية من المرح، ضحكات عصبية قصيرة متلاحقة متتالية كادت تحول بينها وبين التنفس، وانطوى الجزء الأعلى من جسمها إلى الأمام وهي تسند يدها إلى بطنها تهدئ من ضحكتها، واستطالت الضحكات وأصبحت أكثر حدة وكأنها أنات، ثم هدأت.

واعتدلت جميلة وهي تقول في فرح وحشي:

- الأستاذ بتاعك إيلي زي الكلب، ريقه يجري على كل عضة! وشدت قامتها وهي تتقدم من ليلي، وأشارت بيدها وهي تقول:

- عارفة صدقي إيلي خرج ده، أشرف منه، على الأقل مش عامل إله، على الأقل ما بيخبش حقيقته.

ورفعت جميلة السيجارة إلى فمها وأخذت نفسًا عميقًا، وأخذت تتطلع إلى حلقات الدخان وهي تلتف بعضها فوق البعض، ثم قالت بصوت عميق هامس:

- تفهمي إيه إنت في الدنيا؟! تفهمي إيه؟! تفهمي إيه إيلي تقاسيه الست لما تعيش مع راجل بتكرهه؟ علموك دي في الكتب؟ فهموك دي؟!!

وانهار صوت جميلة وهي تنطق الجملتين الأخيرتين، وامتلأت عيناها بالدموع، وازداد صوتها

ارتجافاً وهي تستطرد:

- تعرفي إيه إيلي تحس بيه الست لما تشعر إنها بقت زي الخرقة القديمة؟ نشفت.. جسمها نشف وقلبها نشف.. لأن ما حدش بيبص لها وعنيه بتلمع، ما حدش بيقول لها: ((أحبك))؟

وتوقفت جميلة لحظة عن الكلام ثم دوى صوتها مرتجفاً متحشراً يائساً:

- أعمل إيه؟ قولي لي أعمل إيه؟!

وتشنج وجه ليلي وهي تحاول أن تتكلم، ولكن فمها استدار دون أن يخرج منه صوت.

وقالت جميلة وهي تبتسم في مرارة:

- الطلاق؟ مش كده؟ بسيطة!

وأشارت بيد ترتجف إلى السرير وهي تقول:

- على السرير إيلي قدامك ده نمت ثلاث أيام بين الموت والحياة، بلعت أنبوبة الأسبرين، وأمي قالت مش عايزة فضايح! كانت فاهمة إيه معنى إني أستنى مع راجل ما بيحبنيش وما باحبوش، ومع كده صممت!

وسكتت جميلة، ثم بدأت تضحك ضحكات الهستيرية المتلاحقة.

- أمي.. أمي أنا.. مش عايزة فضايح، أمي، أمي مش عايزة فضايح!

وسكتت عن الضحك فجأة وضافت عيناها وقالت:

- وإنت؟ وإنت يا ست يا محترمة، يا بتاعة المبادئ، لو كنت مطرحي تعملي إيه؟ حتعملي إيه؟

وبدأ صوت جميلة وهي تسأل هذا السؤال مرتفعاً مليئاً بالتحدي، ثم انخفض، واختفت نبرة التحدي وكأنها تسأل ليلي سؤالاً، مجرد سؤال:

- حتعملي إيه؟

وكانها أدركت بحاستها أن ليلي تقف نفس الموقف الذي تقفه، وأنه لا بد لها أن تنتهي إلى نفس النهاية.

واهتز كيان ليلي بصرخة مدوية، وتقدمت إلى جميلة وهي لا ترى شيئاً، تتحسس طريقها كالعمياء، وعند قدميها سقطت مغمى عليها.

وبعد فترة عبرت ليلي وجميلة باب الفيلا إلى الحديقة، وعادت ليلي إلى مكانها، وانخرطت جميلة وسط المدعوين. ولم يلحظ أحد شيئاً. كانت جميلة قد أخفت وجهها خلف المساحيق وكذلك فعلت ليلي.

ولكن لو دقق الإنسان لوجد شيئاً لم تستطع المساحيق أن تخفيه، النظرة الحزينة المستسلمة في عيني جميلة، والنظرة الخائفة القلقة التي تبحث عن مخرج في عيني ليلي. ولكن لم يدقق أحد، لم يهتم أحد الاهتمام الذي يدفع إلى التدقيق.

وبعد أيام تلقت ليلي خطاباً من حسين يقول فيه:

عزيزتي ليلي،

تلقيت خطاباً من محمود يخبرني فيه أن خطبتك قد أعلنت لأحد أساتذتك.. وبالأمس كتبت لك خطاباً مجنوناً ثم مزقته. أتصدقين أنني ما زلت أحبك؟!

واليوم أشعر أنني في حالة أفضل تمكنني من التفكير السليم، ولذلك أكتب إليك لأهنتك. وبالرغم من كل شيء فأنا سعيد من أجلك أنت يا عزيزتي، سعيد لأنك استطعت أخيراً أن تدفعي الباب وأن تتطلقي. لقد استطاع هو أن يفعل ما فشلت أنا فيه، استطاع أن يحرك من قيودك، وأن يعيد إليك ثقتك بنفسك وبالناس..

أليس كذلك؟ ولا بد أنك تمضين الآن في الطريق المفتوح باللمعة في عينيك وبالإشراقة في وجهك، الإشراقة التي كادت تجعلني أصرخ في المصعد.

لا تقلقي بشأنني، فأنا بخير، لم أنهر حين أرسلت إلي خطابك الجاف، ولم أنهر حين سمعت خبر خطوبتك.. فأنا أعمل وأحيا من أجل حب أكبر من حبي لك، حبي لمصر ولشعب مصر. وما دام ذلك الحب يعمر قلبي فلن أنهار ولن أكف عن العمل. ومنشأ الصعوبة أن حبي لوطني كان قد اختلط بحبي لك، حتى أصبحت أنت رمزاً لكل ما أحبه في الوطن. وعلي الآن أن أحاول أن أنتزعك من فكري ومن خيالي ومن دمي.

لا تتألمي من أجلي، ولا تلومي نفسك، فأنت لم تشجعي، بل بالعكس فعلت كل ما يمكن أن تفعله إنسانة رقيقة حساسة مثلك لتنشيط همتي.. ولكن ماذا أفعل؟ ماذا أفعل في الفكرة المجنونة التي سيطرت علي، فكرة أنك لي وأني لك مهما طال الزمن؟! إن الخطأ الوحيد الذي ارتكبه هو أنك جعلتني أراك، وأنت جميلة، وأنت رقيقة، وأنت.. وأنت.. أنت.

فإذا أردت أن تكفري عن خطئك، دعيني أراك مرّة واحدة حين أعود
إلى الوطن، وأملأ عيني منك مرّة أخيرة وأنت تمضين في الطريق
المفتوح والإشراقة في وجهك واللمعة في عينيك.

حسين عامر

عين محمود طبيبًا في المستشفى الأميري ببور سعيد، وبعد أسابيع من استلامه العمل جاء في زيارة إلى القاهرة، وكان يجلس على مائدة الغداء يوم الجمعة مع أسرته حين رفع رأسه عن الطبق وقال:

- على فكرة.. أنا حاتجوز.

ووجف قلب ليلي وهي ترقب وجه أبيها والانفعالات تتوالى عليه.. بدا وجهه أول الأمر جامدًا وكأنه لم يفهم كلام محمود ثم انهار، تدلى طرفا فمه، وغزا عينيه حزن عميق، وأطبق جفنيه على عينيه، وامتدت يده إلى الفوطة يخفي وجهه خلفها وهو يتظاهر بمسح فمه، وحين رمى بالفوطة جانبًا كان وجهه قد ارتد جامدًا كما كان وإن عراه بعض الاحتقان.

وترك الأب ثواني من الصمت تربض على الموجودين قبل أن يقول في هدوء مصطنع:

- بتقول إيه؟

ونظرت ليلي إلى أخيها وشفاتها ترتجفان، تنتظر منه أن يتكلم وكأن مصيرها معلق على الكلمات التي ستخرج من شفثيه. وتكلم محمود:

- باقول حاتجوز.

وارتخت ليلي في جلستها، والتمعت عيناها بالدموع، انتشت، وكأنها هي التي واجهت أباه بهذه الجسارة وبهذه البساطة.. إن الأمر بسيط للغاية، ما عليها إلا أن تهز كتفها كما هزها محمود وتسלט عينيها في عيني أبيها وتقول.. ماذا تقول؟

ودوى صوت أبيها مرسلًا الرجة إلى جسدها:

- حضرتك موزب كل شيء وجاي تقول لي؟ وعلى إيه؟ على إيه تتعب نفسك؟! ما هو أنا طرطور.. مش كده؟!

- أرجوك يا بابا! أرجوك تفهمني!

- أنا لا أبوك ولا أعرفك! أنا بريء منك!

وأطبق محمود عينيه يائسًا، وهو يديق بيده اليسرى على المائدة.

وقال أبوه ونغمة العتاب تتسلل إلى صوته:

- طول عمري باريبك وأصرف عليك دم قلبي، علشان لما تكبر تقف على رجليك وتساعد أمك وأختك إللي على وش جواز.. وتو ما بقيت بني آدم عايز ترفسنا، عايز تتجوز!

واحمر وجه الأب حين أدرك أن الضعف قد تسلل إلى صوته، وانقلبت نبرة العتاب إلى نبرة سخرية:

- بدل ما تساعدني دلوقت عايزني أساعدك عشان تتجوز، مش كده؟

وواجه محمود أباه في اعتزاز:

- أنا مش عايز مساعدة من حد!

وثار الأب لهذه الجملة كما لم يثر من قبل، وكأن استغناء ابنه عن مساعدته أمر لا يطاق ولا يحتمل، واتسم كلامه من ذلك الحين بسخرية مُرة:

- وحتتجوز مين يا حضرة الدكتور؟

وتجاهل محمود سخرية أبيه وقال وهو يحاول أن يصل إلى قلبه:

- يا بابا البنت اللي حاتجوزها ممتازة وطيبية، ومتعلمة، وبنت عيلة حتى اسأل ليلي عنها.

وانكملت ليلي في مقعدها حين تركزت عليها نظرة أبيها قاسية متسائلة، وكأنه يحملها مسؤولية هذه المصيبة التي نزلت بهم. وضربت الأم كفاً بكف وقالت:

- صاحبته يا سيدي.. أمال؟ الست ليلي جلابة الهنا، طول عمري أقول الاختلاط ما يجيبش إلا المصايب وأدي آخرتها!

وانزاحت نظرة الأب عن ليلي واستقرت باردة على محمود:

- والعيلة دي حتاخذك على إيه؟ حتدفع مهر كام وشبكة كام؟

وقال محمود بصوت مكتوم:

- أنا حاتجوز البنت مش حاتجوز العيلة!

واسترخى الأب في جلسته وقال:

- بقه كده؟ هي بقه من إياهم؟! من اللي ماشيين على حل شعرهم! وغطى محمود وجهه بكفيه وهو يحاول أن يسيطر على نفسه.. لقد توقع كل ذلك وأكثر، ويجب أن يحول بين سيل الكلمات الجارحة التي تتكون في عقله وبين الانطلاق.

ودوى صوت الأب:

- والله والله لو كانت دي بنتي لكنت قتلتها، قتلتها قتل!

واستقرت نظرته على ليلي حامية مهددة، وسرت الرجفة في جسدها تحت وقع نظرته.. هل خمن شيئاً؟ مستحيل. كيف يستطيع أن يخمن؟ إحساسه الأبوي؟ إحساسه الأبوي حقاً ((أي إحساس؟)) إن حائطاً ضخماً وقف دائماً بينه وبينها وكأنهما لا يتكلمان نفس اللغة وكأنهما...

وأزاح محمود يديه عن وجهه، وقال بصوت مؤدب يعلن به انتهاء المناقشة:

- أنا أسف يا بابا، ولكن يظهر حضرتك مش حقتدر تفهمني!

ولكن محمود لم يستطع أن يفلت بهذه البساطة. تعمد الأب أن يمد في المناقشة:

- مين يقدر يفهمك؟ مين يقدر يفهم إن إنسان مفلس زيك، متخرج أول إمبراح، عايز يتجوز ويفتح بيت ويربي عيال ويتحمل مسؤوليات؟

وارتخت ليلي في جلستها.. لا لم يخمن، لا هو يستطيع أن يخمن ما يدور في فكرها ولا أي إنسان. ولا هي حتى تستطع أن تصف شعور الاشمئزاز الذي سيطر عليها في كلمات تبدو للناس مقبولة ومعقولة.

ماذا تقول؟ إن القناع قد سقط وتحت القناع طين؟ إن نظرة رمزي زحفت كالثعبان على صدر...؟

وقالت الأم بصوت مرتجف:

- يا ابني كل حاجة لها أصولها وإللي يمشي على الأصول ما يتعبش.

وأغمضت ليلي عينيها.. ماذا تقول؟ لو قالت لأمها عن الطريقة التي زحفت بها نظرة رمزي على نهدي جميلة لضحكت أمها وقالت ببساطة:

- كل الرجالة كده.. أمال إنت فاكدة إيه؟

ماذا تقول؟ ومن يستطيع أن يفهمها حين تقول إن نظرة رمزي التي زحفت كالثعبان كشفت لها عن فسادها وعن كل الفساد: فسادها هي التي ارتضت هذه الزيجة، وفساد جميلة، وفساد عصام الذي ارتضى أن يلعب دور البهلوان، وفساد صدقي الذي يبحث لنفسه كل يوم عن فريسة ليثبت لنفسه أنه رجل، وليثبت للعالم الخارجي أنه بطل مغوار، وفساد أم جميلة، وفساد أمها هي التي قبلت أن تعيش على الخوف خوفاً من كلام الناس، وفساد أبيها الذي يؤمن دائماً أنه على صواب، وفساد كل أصولهم، كل أصولهم.

وقال محمود:

- يا ماما الأصول اتغيرت، الزمن بيتغير والأفكار بتتغير، حاولوا إنكم تفهموا!

وكان من المستحيل أن يفهماه، واعتصم الأب بغرفته بعد أن هدد بقطع كل علاقة بينه وبين محمود، ولجأت الأم إلى الدموع.

وسافر محمود إلى بور سعيد، وفي يوم الخميس التالي حضر إلى القاهرة ولم يزر عائلته، ولكنه زارها يوم الخميس الذي يليه، ووجد الدكتور رمزي في انتظاره.

كانت الأم قد طلبت منه أن يتدخل ليعيد محمود إلى صوابه.

وانفرد رمزي بمحمود في حجرة الاستقبال، والأب ما زال يعتصم في حجرته، والأم مع ابنتها في الصالة ينتظران.



وراحت ليلي تذرع الصالة جيئة وذهابًا وعيناها تتطلعان في قلق إلى الباب المغلق، وخوف غامض يعصر قلبها، خوف من أن يستسلم أخوها لقوة هذا الرجل الذي انفرد به. واستولت عليها رغبة جامحة في أن تسمع كل كلمة يقولها أخوها، وكأن مصيرها هي معلق على هذه الكلمات. وانحرفت إلى باب غرفة محمود، وقالت أمها وهي تستوقفها:

- رايحة فين؟

- حاجيب كتاب من مكتبة محمود.

ودخلت الغرفة، وتسالت إلى الباب الزجاجي الذي يفصل غرفة محمود عن غرفة الاستقبال، والتصقت بالحائط تتبين الحديث الدائر بين الرجلين، واعتراها خجل طارئ من تلصصها، زال حين تبينت نبرات صوت رمزي. لم تسمعه قط يتكلم بهذه الطريقة، صوته مرتخ معسول منخفض، صوت صديق يحكي لصديقه، ولا بد أن ملامحه مرتخية الآن والصندوق الزجاجي الذي يغلف وجهه قد زال. كم وجهًا لهذا الرجل؟! معها هي إله، ومع جميلة طفل يسيل لعبه، ومع محمود صديق قديم يحكي.

- أنا حاحكي لك حكاية يا محمود ما قلتهاش لحد قبل كده، ولكن إنت أخويا الصغير ومش ممكن أبخل عليك بتجربة من تجاربي.. لما كنت طالب في الجامعة حببت بنت ساكنة في الدور إللي تحتي، وبقيت أقعد بالليل في الضلمة أسمع أم كلثوم وأعيط، وأسهر للصبح وأنا باكتب قصيدة شعر لحبيبتني، وأنزل ألتقيها مستنياني على السلم بمريلة المدرسة، أعطيها القصيدة وكل حنة في جسمي بترتعش، وفاتت الأيام وابتديت أخرج معاها وحيي لها بيزيد يوم عن يوم، والدنيا جميلة في عيني، ونويت إني أتجوزها بمجرد ما أخرج، ما كانش ممكن أتصور نفسي عايش يوم واحد من غيرها.

واتسعت حدقتا ليلي في دهشة وابتلعت ريقها.

واستأنف رمزي كلامه:

- وفي ليلة كان أهلها مسافرين وفتحت لي الباب...

وقمت من على الكنب، وبصيت لها وهي لسه متمددة، وعرفت فجأة إن حبي لها خلص.. خلص في اللحظة دي، وتاني ليلة لقيت الباب مردود قفلته بإيدي، ونزلت سكرت، وجيت وش الصبح لميت عفشي وعزلت من الحنة كلها.

وكتمت ليلي صرخة كادت تنطلق من فمها، وشعرت برغبة في أن تهرب من الغرفة ومن البيت بأكمله، ولكنها بقيت مسمرة في مكانها مشدودة إلى الباب الزجاجي المغلق، وكأنها مشدودة إلى هوة بقوة لا تملك لها دفعًا.

واستمر رمزي يتكلم:

- ومن يومها عرفت إن مفيش حاجة اسمها حب.. فيه اشتها، والاشتها بينتهي لما الانسان ياخذ إللي عايزه.. والاشتها حاجة والجواز حاجة ثانية.

وترددت في رأس ليلي فكرة واحدة، فكرة ثابتة تنخر فيه كالمسمار: والبنت؟ البنت؟ إيه إللي حصل للبنت؟

وقال محمود في برود:

- أنا مش فاهم إنت بتحكي الحكاية دي ليه؟

وغطت ليلي وجهها بيديها.. لم يردد محمود تساؤلها، لم يخطر مصير البنت ببال أحد، حتى محمود، وكأن بين هذين الرجلين سابق اتفاق على أن البنت التي تخرق الأصول لا تستحق مجرد التفكير.

وقال رمزي في تردد وهو يحمل كلامه أكثر من معنى:

- يعني ضروري الجواز يا محمود؟ مفيش طريقة ثانية؟ مش يمكن تكون نزوة وتفوت وتدفع تمنها غالي!

وكزت ليلي على شفتها السفلى بأسنانها.. السافل.. السافل، وتمنت أن يصفعه محمود، لا أقل من أن يصفعه محمود ردًا على اقتراحه المسموم.

ولكن محمود لم يصفعه، فاته المعنى المقصود، وقال في جمود:

- أنا مش عيل يا دكتور رمزي! أنا عندي قدرة على الاختيار وعلى الثبات على اختياري!

وقال رمزي:

- واضح إن مناقشتنا انتهت، بس قبل ما أقوم من هنا عايز أحكي لك حكاية افكرتها دلوقت وإنت ببتكلم.

وقال محمود في تأدب:

- تفضل.

ولكن كان من الواضح أنه لم يعد يهتم أدنى اهتمام بما يقوله رمزي، على العكس من ليلي، تنبعت حواسها كالفأر الذي تطبق عليه المصيدة، وتصلب جسمها وجمد وجهها، وكأنها هي وحدها مع رمزي.. وهو يتكلم وهي تتفعل بكل كلمة، وتثير في خيالها كل كلمة حشدًا من الصور والعبارات، من الماضي ومن المستقبل، ومن هنا وهناك.. صور وعبارات تتراحم وتتداخل حتى تصبح بلا معنى، وحزن موجه يربض على صدرها وكأن كلمات رمزي أصابع تطبق في بطنها على عنقها لحظة بعد لحظة.

- الحكاية دي عن زميل لي اتجوز من خمس سنين، كان متحمس كده زيك، واتجوز على حب واحدة زيه متحمسة وثائرة، وتحذوا كل العقبات إللي قابلتهم، وكل المجتمع من حواليتهم،

واتجوزوا، وعاشوا في شقة مفیهاش إلا طرايبزة وسریر ملة، وطبعًا الحب والقيم الجديدة! وتحققت كل نظرياتهم، كل نظرياتك: الزوج والزوجة حاجة واحدة، مفیش بينهم أسرار، وعلاقتهم قائمة على المحبة وعلى الصدق والصراحة...

((على الخوف مع رمزي حاعیش.. على الخوف.. ويوم بعد يوم دمي حينشف من الخوف.. الخوف إلی راح والخوف إلی جاي)).

- وحتى نظرياتك عن الجنس تحققت: الجنس والزواج حاجة واحدة، والجسد والروح حاجة واحدة. وكل ما يطول بهم الزمن يحبها أكثر ويدرك أكثر أنها جزء منه، وأنه جزء منها، وأنهم حاجة واحدة.. والفرحة كانت بتلمع في عنین صاحبي وهو قاعد وسطنا، وبمناسبة ومن غير مناسبة يجيب سيرة مراته: ((مراتي قالت كده، مراتي رأيها كده)).

كان سعيد والناس عرفوا إنه سعيد، وقالوا: ((الغربال الجديد له شدة))، ولكن سنة فاتت وهو عنيه لسه يتلمع، ولسه بيقول: ((مراتي)).

الناس ابتدوا يشعروا بحاجة غريبة، حاجة غير متمشية مع قواعد المجتمع إلی هم عایشين فيه، حاجة مضحكة، وابتدوا يكتموا ابتسامتهم قدامه ويضحكوا عليه من وراه...

((فضايح! مش عايزة فضايح! أمي مش عايزة فضايح!)).

- وصاحبنا ولا هوّ هنا، أخذ مراته وسافر أوروبا، كان عايز يقتسم معاها كل تجربة مرت عليه قبل كده، وبعد ما رجع كنت أنا وهوّ بنتعشى في مطعم ومعانا بعض الأصدقاء، وبعد ما شبعنا ابتدئنا نتكلم، طبعًا عن الستات، واحد يحكي والباقي يسمع، والحكاية إلی بيحكيا كان يمكن تحصل لهم أو يمكن لسه تحصل لهم، أو حصلت لهم فعلاً حكاية مشابهة...

((في المطبخ.. الضلمة.. الكنبه)).

- وحكاية تجر حكاية، والمتحدث بيتغير، والكل منسجم زي ما نكون أعضاء في جمعية متفاهمين على أدق أسرارها، أو تروس في ساعة ماشية على نمط واحد، في اتجاه واحد ما بيتغيرش، اتجاه واحد مفهوم وواضح ومنطقي ومتسلسل...

((وإلی يعرف الأصول ما يتعبش)).

- وجه الدور على صاحبنا، وابتدت عينيه تنعم، وملامحه تنعم، وهو بيحكى عن تجربة انفعل بها في غابة من غابات إنجلترا الجميلة.. مع مراته! وبعد ثلاث سنين من جوازهم. وبلمنا...

((فضايح! مش عايزة فضايح! أمي مش عايزة فضايح!)).

- كلنا بلمنا. فيه حاجة وقفت في تروس الساعة، حاجة عطلت، حاجة قلبت الاتجاه العام المنطقي المفهوم. وواحد منا لخص الموقف وقال: ((بعد ثلاث سنين من الجواز؟ مستحيل!)).

والتاني فضل يضحك لغاية الدموع ما نزلت من عينيه.

وكلنا كلامنا وشعر صاحبنا إنه غريب، إنه معزول عن دايرتنا وقام...

((لا تتحسبي في الدائرة الضيقة يا حبيبتي، إنها ستضيق عليك حتى تخنقك)).

- ومن يومها صاحبنا بطل يتكلم عن مراته، وابتدا يشعر بالحرَج في مجلسنا، وفي كل المجالس.. ابتدا يشعر إنه غير متجانس، وإنه معزول عن الدائرة الكبيرة، وابتدا يحتار...

((خلاص يا ليلي أنا لقيت حل.. لقيت حل يا حبيبتي)).. ((البت الخدمة؟ أصلها واخدة على عصام، صاحبتة يا ستي!)).

- وبعد مدة لما ابتدا يتكلم عن مراته تاني لقي إللي يسمع له وإللي يجد كلامه مفهوم. كان بيتكلم عن الزوجات ومتاعب الزوجات، وهي الست عايزة إيه أكثر من بيت وأولاد وزوج يقوم بواجباته الزوجية؟! الست عايزة إيه؟!

((تموت زي صفاء أو... تعمل زي جميلة)).

- ومن كام يوم لقيت صاحبنا متصدر مجلس، وبيتكلم بثقة، وعينيه بتلمع، والكل بيسمع له. شديت كرسي وقعدت.. كان بيحكي على آخر مغامرة من مغامراته.

ووقفت ليلي في وسط الحجرة ترتجف بعجزها وبكراهيتها وبثورتها، وقال رمزي وقد تسلل إلى صوته الحزن:

- مفيش مخرج! صدقني يا محمود مفيش مخرج!

ولم تستطع ليلي أن تكتم صرختها هذه المرّة، وكالمجنونة دفعت باب الحجرة وخرجت مندفعة. وأكمل رمزي حديثه بعد أن تغلب على نبرة الحزن التي تسالت إلى صوته:

- كلنا تروس في عجلة كبيرة، والعجلة بتمشي، وإللي يحاول يعطلها بيتحطم، والشاطر إللي يفهم الموقف وإللي يستفيد منه.

وبدت في عيني محمود نظرة حزينة كالنظرة التي تبدو في عيون الناس وهم يرقبون غروب الشمس، ولكنه ما لبث أن ابتسم وقال وهو يقف:

- أوكد لك يا دكتور رمزي إني مش حانهزم زي صاحبك!

وكالمجنونة اقتحمت ليلي غرفة نوم أبيها وهي تصيح في صوت متحشرج:

- بابا!

وهب الأب من سريره مذعورًا والكلمات ترتجف على شفتيه:

- فيه إيه؟ فيه إيه؟

وشل القلق قواه، ووقف يرتجف وهو ينظر إلى سحنتها المنقلبة وإلى عينيها اللتين تتأججان في

وجهها.. وقف ينتظر منها أن تتكلم، أن تخبره أن كارثة ما قد حلت بهم.

وأشارت ليلي بيدها إشارة هستيرية تستبعد بها هذا الاحتمال وقالت:

- مفيش! مفيش حاجة!

وغُشي على الأب لحظة، والدم يعود إلى الجريان في عروقه بعد أن توقف. وعندما بدأت رؤيته إلى الأشياء تستقيم قال:

- ولما مفيش حاجة إزاي تتهجمي عليّ بالشكل ده؟! إزاي تدخل عليّ من غير استئذان؟!!

وقذفت ليلي بالجملة التي تكونت في عقلها دفعة واحدة وكأنها تخشى ألا تخرج أبدًا إن لم تقذف بها هكذا:

- عايزة أكلّمك في موضوع جوازي.

وسمعت ليلي كلماتها وهي تتكلم، كلمة كلمة، وكأن إنسانًا آخر هو الذي يتكلم.

وعصر الخوف قلب الأب، وأدرك أنه على شفا كارثة أفدح من كل الكوارث التي مرت به، وأن عليه أن يستجمع كل قواه ليواجهها، وضافت عيناه الرماديتان ولمعتا بلمعان رهيب وهو يرقب ابنته ويقول:

- عايزة إيه؟

ولم يكن في صوته غضب ولا رائحة الغضب.. كان صوتًا ثلجيًا معدنيًا وكأنه يصدر من آلة مشروخة.

- عايزة...

ولم تستطع ليلي أن تكمل، كان يقترب منها بخطوات قصيرة آلية، وبوجه جامد، وبجسم متصلب، وكأنه آلة مسلطة عليها، آلة تقترب منها في ببطء لتسحقها:

- عايزة إيه إنت كمان؟

وعكس صوته يأسًا أعمق من يأسها.. يأسًا تخطى مرحلة الغضب، يأس رجل فقد كل شيء ولم يعد له ما يفقده، رجل لا يتورع عن شيء.

وفي عينيه رأت ليلي نظرة قاتلة، قاتلة بلا غضب، قاتلة وباردة.

وقالت بصوت مخنوق وهي تمد يدها إلى رقبتها وكأنها تحميها منه:

- ولا حاجة! ولا حاجة!

وأرادت أن تتراجع إلى الوراء بظهرها، ولم تستطع أن تتحرك.. شلها الخوف، واستمرت تتمتم:

- ولا حاجة! ولا حاجة يا بابا يا بابا!

وعند ذلك النداء انحسرت النظرة القاتلة عن وجهها، واستدار الأب وهو يهز رأسه وكأنه يفيق من كابوس مرعب.

وتراجعت ليلي بظهرها إلى الباب وهي تمسح وجهها بيديها وتتمتم بصوت مرتجف:

- ولا حاجة! ولا حاجة!

وقال رمزي وهو يسد الباب مخاطبًا الأب:

- مفيش فايده!

وارتجفت ليلي من قمة رأسها إلى أطراف أصابعها، واستندت إلى مقعد بجوارها حتى لا تنهار على الأرض. واستدار الأب يواجه رمزي وعلى شفته ابتسامة واهنة، وقال بصوت متداع:

- أنا كنت عارف، كنت عارف إن مفيش فايده، ربنا يعوضنا فيه خير.

واحتدت عينا الأب وهو يسلط نظرتة على ليلي ويقول:

- ربنا كريم، ربنا عوضنا فعلًا، خسرنا عيل وكسبنا راجل. واستقرت نظرتة على رمزي.

- كسبناك يا ابني.

وفي تلك الليلة تمنى ليلى وهي نائمة على السرير أن تموت.. تمنى أن تغمض عينيها وتنام ويصبح الصبح ولا تفتحهما، تمر، تهرب في سلام، بلا مشاكل ولا عنف ولا شجار.

ولكن الناس لا يموتون هكذا، لا يغمضون عيونهم ويموتون، لا بد من شيء يسبب الموت.. المرض؟ التيفود مثلاً؟ نعم، التيفود مرض سهل، مرض لطيف يخدر الإنسان.. تنام على السرير وتغيب عن الوعي يوماً بعد يوم وكأنها تنزلق في هدوء وفي سكون، وحول سريرها وجوه تحجرت فيها الدموع تنتشبت بها كأنها سدود تحول بينها وبين الانزلاق، بينها وبين الأحلام، ثم تتأى الوجوه وتلفها سحابة تتكاثر حيناً بعد حين وتزول السدود.

وانزلقت ليلى إلى النوم، إلى الأحلام، وفي أول الليل نامت نومًا هادئًا مليئًا بالأحلام الهادئة. وهي الآن ممددة على ظهر باخرة في وسط البحر لا تدري إلى أين هي ذاهبة ومن أمن هي آتية.. لا تدري من هي، لا ماضي لها، ولا مستقبل.. لا تدري شيئاً سوى أنها مستلقية على ظهرها، وسكينة حلوة في قلبها، وبحر أزرق كاللانهائية يحيطها، وأشعة الشمس تتراقص على سطح المياه الزرقاء فتلتصق كفصوص من الماس وتراقص على جسدها الممدد فتدغدغه وتلمه إلى خدر لذيد.

وهي الآن تدفع باباً أمامها وتدخل حديقة، حديقة لم تر مثلها طوال حياتها، حديقة بيضاء، الزهور فيها بيضاء، والأشجار متوجة بالبياض، بحر ممتد من الزهور البيضاء، زهور غريبة طويلة طول قامة الإنسان، طويلة وبيضاء وشامخة وجميلة، والزهرة تميل على الزهرة في حنو ورقة تربت عليها وتكاد تهمس، وكأنها إنسان.

وليلى تمر بين الزهور، والزهور تتمايل عليها وتربت على خدها وتسكرها بعبيرها، فتجري وهي تضحك ضحكات قصيرة مقطعة، وتصل إلى نهاية الحديقة منتشية مليئة بسعادة فوارة لا تكاد تتحملها، وتجلس على مقعد تحيطه شجرة ياسمين تتساقط زهورها على رأسها، وتمد يدها لتلمسه فإذا بالياسمين قد انتظم في تاج يحلي شعرها، وترتخي ليلى في جلستها وهي ترقب بحر الزهور.

وتتفرج الزهور عن طفل يجري في اتجاهها - طفلها - وتحتضن ليلى ابنها في شغف، وتجلسه في حجرها، وتهداً الفورة في جسمها وتستحيل إلى سكينة حلوة. وفي عبادة صامتة تتحسس ذراع طفلها، ذراعه البيضاء بياضاً شفافاً وكأن النور يتسلل منها، وتود لو استطاعت أن تجلس العمر هكذا، تنظر في عبادة صامتة إلى ابنها وهو في حجرها، ولكن الطفل لا يريد أن يستقر، يريد أن يلعب وأن يجري وأن ينطلق، أن يستكشف الدنيا الجميلة من حوله، وتقبله في فمه الرقيق اللين قبلة أخيرة وتطلقه.

ويقف الابن تجاهها، ويحدث شيء عجيب، شيء عجيب يحدث أمام عينيها، يكبر ابنها وينمو ويطول ويتحول إلى رجل.. رجل أسمر طويل يشع منه النور كما كان يشع من جسد ابنها.

من هو؟ من هو هذا الرجل الذي يطالعها بابتسامة لا تقاوم؟

إنها قطعاً تعرفه، ولكن من هو؟ إنها تعرفهما.. تعرف هاتين العينين السوداوين، تعرفهما وهما مفعمتان بالقوة والصلابة والاعتداد، وتعرفهما حين تذوب فيهما الجرأة والصلابة والاعتداد وتصبحان ناعمتين هكذا، حانئيتين هكذا. لمن؟ لو عرفت من يكون هذا الرجل الذي يطالعها بابتسامة لا تقاوم!

وتكد ليلي عقلها وهي تتعرف عليه وكأن حياتها كلها تتوقف على هذه المعرفة، ويصل إلى مسمعها صوت كالهزيم، هزيم العاصفة، وتسري رجفة إلى يديها، وترى الظلام قد ساد الحديقة، وابنها وقد اختفى، ابتلعه الظلام، ولم يعد يبدو منه إلا شعاع من نور يلمع في الأفق البعيد.

وتجلس ليلي على المقعد يعذبها شعور مبهم بالإثم، شعور لا يلبث أن يتجمع ويتبلور ويطفو على السطح.. لو عرفت ذلك الرجل لما ضاع ابنها، ولما هبت العاصفة، ولما ساد الظلام.

واشتدت الريح هبة بعد هبة، وكأنها سوط مسلط على الحديقة، على الزهور البيضاء الجميلة. ولكن الزهور البيضاء تمايلت تفسح له الطريق وتعود أطول مما كانت وأجمل وأكثر اعتدًا، حتى الظلمة لم تستطع أن تغرقها، شقتها الأغصان المتوجة بالبياض وكأنها تبشير الصبح تبدد الظلام. واندحرت العاصفة وساد السكون.

ثم اندفع الباب ودخل الحديقة جمع كبير من الرجال والنساء يتقدمهم رجل في بدلة سوداء. وفي خطوات بطيئة مترنة تقدموا، رؤوسهم مرفوعة وأجسادهم متحفزة وكأنهم جاءوا في مهمة.

وتسللت ليلي هاربة، واختفت خلف امتداد شجرة الياسمين بحيث لا تراهم ولا يرونها.

ومن بعيد رأت الرجل ذا البدلة السوداء يشير للجمع الذي يتبعه إشارات متعددة دون أن ينطق، ورأت الجمع يتفرق بنفس الخطوات المترنة الثابتة لينتظم على شكل حلقة تحيط بالورود البيضاء، وفي وسط الزهور وقف الرجل ذو البدلة السوداء وأشار بيده إشارة البدء.

وفجأة أومضت في الظلمة مناجل جديدة لامعة تهتز في الأيدي. من أين جاءوا بها؟ لم يكن في أيديهم شيء.

وبدأ الرجال والنساء يجتثون الزهور الجميلة في نظام وروية وبالتدريج، وضربة بعد ضربة، وصفًا بعد صف تتهاوى السيقان الشامخة على الأرض هامة، والرجال والنساء يتقدمون صفًا بعد صف وضربة بعد ضربة، يتقدمون بوجوه جادة وعيون حزينة، وكأنهم يؤدون مهمة ثقيلة على أنفسهم ولكن لا بد لهم من أن يؤدوها.

والرجل ذو البدلة السوداء يشير إليهم كلما تباطأوا، ويبتسم ابتسامة كريهة شبيهة بتكشيرة الحيوان المفترس كلما سقط صف من الزهور، وكأنه لا يستريح إلا إذا سقطت كل الأزهار الشامخة تحت قدميه جثة هامة.

وناح طائر من بعيد، واعتذلت امرأة والمنجل يلمع في يدها اليمنى، ومسحت بيدها اليسرى دمة انفرطت من عينيها، وانحنى تجتث الزهور من جديد.

وكتمت ليلي صرخة كادت أن تفلت منها.. هذه المرأة إنها تعرفها! إنها تعرفها! أم صفاء،

دولت هانم، أم صفاء...

وانزاح الغشاء عن عيني ليلي، وهي الآن ترى كل الوجوه بوضوح، وجوه رجال ونساء، وجوه الرجال نظيفة محلوقة ووجوه النساء لامعة من أثر المساحيق. وبين الوجوه الكثيرة المتشابهة تستطيع الآن أن تتبين وجوهاً تعرفها.. فهذا هو أبوها، وهذه هي خالتها أم جميلة، وهذا الرجل الذي يلبس البدلة السوداء والذي يوليها ظهره.. لا بد أنه هو، لا بد.. واستدار رمزي بوجهه في اتجاه ليلي وكأنه يؤكد لها أنه هو.

وأطبقت ليلي فمها حتى لا تصرخ، وازدادت تشبثاً بشجرة الياسمين التي تختفي خلفها.

وعندما اندحر بحر الزهر الأبيض كالبساط على الأرض نحى الرجال والنساء مناجلهم جانباً، وبدأ الرجال يرصون الطوب على شكل حلقة واسعة، وانحنت النساء على الزهور يجمعنها حزمًا، واحتضنت كل امرأة حزمة في صدرها كما تحتضن وليدها، وسارت بها إلى الحلقة التي بناها الرجال، وفي حنو أنزلت كل واحدة حزمته وسجتها على الأرض وتراجعت.

وأشعل الرجل ذو البدلة السوداء النار في حزم الزهور، ووقف الرجال والنساء جنباً إلى جنب في حلقة واسعة متراسة يرقبون الزهور وهي تحترق.

وفي وهج النار بدت وجوههم متشنجة بالألم، والعرق يلتمع فوق جباههم وكأن جزءاً منهم يحترق في النار، ولكن أحداً منهم لم يتحرك، تمتموا بالدعوات وبقوا متسمرين في أماكنهم يتساند بعضهم على بعض، وبدأت الأغصان تجف وتتكسر وتحدث صوتاً أشبه بصوت النواح.

ومن المؤخرة شقت الصفوف امرأة مسدلة الشعر، واندفعت تريد أن تلقي بنفسها في النار.

وعلت غمغمة غضب من الجميع، وأعاد بعض الرجال المرأة إلى الحلقة، وساد الاطمئنان الجميع من جديد، وكان من الضروري لسلامتهم ألا يتحرك أحد، وأن يقفوا هكذا، مثبتين بالأرض، جنباً إلى جنب يتساند بعضهم إلى بعض.

وتحولت الزهور إلى رماد، وتأجبت النار مزغردة ثم بدأت تخبو، ولم تعد تظهر إلا في جهات متفرقة ضعيفة مائلة إلى الزوال. ولكن الدخان كان يجثم في كتل ضخمة بشعة كريمة على وجه السماء وعلى وجه الأرض وعلى الصدر يكاد يسحقه.

واستيقظت ليلي مذعورة وهي تعاني شعوراً بالاختناق.

ومضى الزمن، الزمن الذي ما يزال يومًا بعد يوم ينكسر من حدة الأحداث ويمط في خيوطها ويكرر، حتى تصبح ككل شيء متشابه مكرر، جزءًا لا يتجزأ من الحياة اليومية، جزءًا يحاول الإنسان أن يتقبله بدلًا من أن يدفعه.

ولم تنتحر ليلي كما أرادت، ولم تهرب كما انتوت، ولم تتفجر رغبةً عنها في وجه رمزي كما خشيت، ولم تعد حتى تبكي في فراشها كل ليلة، ولم تعد تتصور معارك وهمية مع أمها وأبيها ورمزي في أحلام اليقظة.

تبلدت حواسها وكأنها تحت تأثير مخدر دائم، ولم تعد تتفعل بشيء، حتى رمزي لم يعد يثير في نفسها هذه الكراهية العنيفة المتأججة. انكسرت مع الأيام حدة كراهيتها له، وأصبحت تحتمله بنفس الطريقة التي تحتمل بها أوامر أبيها وتأنيب أمها.

ولم يبق لها شيء سوى مرارة دائمة في حلقها، مرارة تصبح عليها وتمسي عليها، وانسحابية في الصدر تغشاها كلما انفردت بنفسها في مكان ضيق، انسحابية كالانسحابية التي يشعر بها الإنسان عندما يكتشف فجأة أنه فقد - بلا رجعة - شيئًا ثمينًا لا يعوض. وكانت ليلي تنتبه لهذه اللحظات حين تجد نفسها تتمتم بلا وعي: ((قويني يا رب.. قويني)).

من أين يأتي هذا النداء؟ من أي أعماق يطفو فجأة هكذا؟ دائمًا نفس النداء. ولم تطلب العون من الله؟ ليقويها على احتمال مصيرها أم ليقويها على تغييره؟

ولم تكن ليلي تتوقف لتسأل نفسها هذه الأسئلة أو لتفكر. كان من الأساسي لها في هذه الفترة ألا تتوقف وألا تفكر. وبلا وعي راحت تحتمي من الألم وكأنها تخشى أن تمس جرحًا غائرًا فينفجر منه الفحيح محدثًا ألمًا لا تقوى طاقتها البشرية على احتماله. وبلا وعي نظمت حياتها بحيث لا تتوقف ولا تفكر.

كانت تذهب إلى الكلية وتعود محملة بكتب استعارتها من المكتبة وأغلبها مجموعات قصص قصيرة، لا لأنها تفضل القصة القصيرة على غيرها من ألوان الأدب، بل لأن القصص القصيرة تتطلب في القراءة تركيزًا أقل مما تتطلبه الرواية مثلاً. وما إن تنتهي من الاستذكار حتى تفتح الكتاب وتقرأ.

وكأي مدمن للقراءة تظل تقرأ وهي لا تستمد أي لذة ولا تتفعل أقل انفعال بالعمل الفني، ومع ذلك تقرأ، صفحة بعد صفحة، وقصة بعد قصة. وتنسى القصة حين تبدأ التالية، ولا تتذكر أحداثها مهما كدت ذهنها إلا إذا أعادت تقليب الصفحات. وكالآلة تقرأ وعيناها مكودتان ورأسها يدور وشيء ما يثقل صدرها وهي تقرأ في سرعة وفي نهم وبأنفاس متقطعة وكأن إنسانًا ما يقودها

بسوط.

ويسقط الكتاب من يدها، وتطفئ النور وتنام، وتستيقظ كالمخدرة لتواجه الحياة من جديد.

ويومًا بعد يوم يتكاثر الأثاث في البيت، أثاث بيتها.

ويومًا بعد يوم تلف وتدور في المحلات خلف جميلة وأمها، ولا تتدخل إلا للحد من إسرافهما. كانت تشعر بشعور من الإثم وكأنها تسرق كل قرش يدفعه أبوها في تأثيث البيت الجديد.

وتقف جميلة مبهورة أمام سلعة من السلع وتقول:

- إيه رأيك يا ليلي؟

وتهز ليلي كتفها بلامبالاة وتقول:

- أي حاجة!

وتحتد جميلة:

- هو إنت ملكيش رأي في حاجة أبدًا؟!

في الماضي كان لها رأيها، كانت عندها فكرة واضحة عن البيت الذي تريده لنفسها، وكانت حتى تستطيع أن تراه بعينيها.. بيت حجراته قليلة ولكنها واسعة، وحجرة الجلوس مفروشة ببساط لا سجاد، بساط من اللون الرمادي يمتد من الحائط للحائط، ومقاعد وأرائك مريحة مكسوة، ووسائد متناثرة على الأرائك، وسائد زاهية ومتعددة الألوان، وأثاث متناثر في الأركان يترك رحابة ينتفس فيها الإنسان.. أما الآن فكل شيء يستوي لديها.

كل شيء يستوي لديها الآن، سواء اشتغلت عقب تخرجها بالصحافة كما أرادت دائمًا أو اشتغلت بالتدريس كما يريد رمزي. لم يعد اشتغالها بالصحافة يبدو أمرًا هامًا كما كان يبدو من قبل.

لقد أرادت دائمًا أن تتخذ من الكتابة مهنة، وأن تعبر عن نفسها وعن الناس من حولها، وكتبت فعلًا، وقيل لها إنها تستطيع أن تكتب. وحتى وهي تتكلم كان الناس يلاحظون قدرتها على التعبير عن أدق أفكارها، وكان زميل لها يتحمس كلما سمعها تتكلم ويقول: ((ضروري تكتبي، إنت خلقت عشان تبقي كاتبة)). وكانت تكتب، وتحلم باليوم الذي تصبح فيه كاتبة.

ولكن كل ذلك كان زمان، وما من شيء يهمها الآن، ثم إنها لا تستطيع أن تكتب الآن، بل إنها لا تستطيع حتى أن تتكلم بوضوح، فالكلمات تتوقف على شفثتها وتلعثم ولا تستطيع أن تكمل جملتها. وأحيانًا ترد على الأسئلة التي توجه إليها بردود غريبة لا تنتبه إلى غرابتها إلا عندما ترى الدهشة في عيون من حولها. ثم إن مهنة التدريس مهنة سهلة لا تتطلب تفكيرًا عميقًا ولا قدرة خاصة.. تحضر المدرسة الدرس وتلقيه وتنتهي مهمتها وكل شيء يستوي لديها.

يستوي لديها أن تتزوج بعد استلامها لعملها كمدرسة في سبتمبر ١٩٥٦ كما يريد رمزي أو في يوليو بعد تخرجها مباشرة كما يريد أبوها. إن أباه يستعجل زواجها برمزي، منذ ذلك اليوم وهو يستعجله، منذ ذلك اليوم وهو يعيش في قلق.

* * *

وبعد زواج محمود بأيام لمح الأب لرمزي برغبته في عقد القران وتجاهل رمزي تلميحه، وعاد الأب وصرح برغبته، وقال رمزي إنه يفضل أن يكون عقد القران والزفاف في يوم واحد، وأن التفكير في تحديد ذلك اليوم قبل تخرج ليلى سابق لأوانه.

وسكت الأب على مضض، وراح يوجه إلى ليلى بين الحين والحين نظرات فاحصة كأنه يقيس مدى قوتها، وترتد نظراته عنها راضية. ولكنه لم ينسَ أبداً اليوم الذي دخلت عليه فيه - كالمجنونة - صارخة وكمن القلق في نفسه.

ولكن هذا القلق كان يطفو على السطح حين يجيء محمود من بور سعيد لزيارتهم زيارته القصيرة المتقطعة.

كان شيء ما قد تقطع بين هذين الرجلين.. شيء كان رقيقاً وجميلاً ومؤثراً، ذلك الشيء النادر الذي كان يجعل الكلمات على شفتي الابن تثير الدموع في عيني الأب، والذي كان يجعل الابن يفهم في لمحة، ودون حاجة إلى كلام، كلمات الأب.

تقطع ذلك الشيء، وأصبحت الآن رجلين غريبين مؤدبين. يسأل الأب عن صحة ابنه وعن عمله ويجيب محمود في أدب، ثم لا يجد الأب ما يقوله لابنه ولا يجد الابن ما يقوله لأبيه، وتتقطع أسباب الحديث بينهما كما تتقطع بين الأغراب، ويحاول الأب جاهداً أن يمد حباله ويفعل محمود نفس الشيء.

وفي عقل الأب وفي عقل الابن طوال الوقت نفس الشيء، الشيء الذي لا يتناوله الحديث، والذي لا يمكن أن يكون أصيلاً نابعاً من القلب دون أن يتناوله.

كان الأب قد حرم على من في البيت طرق موضوع زواج محمود بسناء وكأن هذا الزواج لم يكن.

* * *

وكان هذا الإحساس يؤلم محمود، فقد أحب أباه ربما أكثر مما أحب أي إنسان آخر.

وفي يوم زواجه عندما ناداه أبوه إلى حجرته ساعة عقد القران ودس في جيبه مائتي جنيه بكى كالطفل وهو يهم باحتضانه، ولكن أباه أبعد عنه في برود، طعنه وقلبه وكيانه بأجمعه متفتح له، وكان أحوج في هذه اللحظة إلى حب أبيه منه إلى نقوده ورفض أبوه أن يهبه الحب رغم أن الحب لا يكلفه شيئاً ورغم أن المال قد كلفه الكثير، علم الله كم كلفه!

وفي اليوم الذي كان عليه فيه أن يسافر إلى بور سعيد مع زوجته، في الوقت الذي عليه فيه أن يبدأ حياة جديدة، وقف أمام حجرة أبيه يقرع الباب ليودعه، ولكن أباه ترك الباب مقفولاً يفصل بينهما، وما زال إلى الآن مقفولاً.

وفي كل مرة كان يسأله:

- عايز فلوس يا ابني؟!

وفي كل مرة كان يجيب:

- متشكر يا بابا.

وبوده دائما أن يقول: ((مش عايز حاجة إلا إنك ترجع تحبني زي ما كنت بتحبني)).

ولكن مثل هذه الكلمات لا تقال، ثم إن الحب لا يُستجدى، وهو إما موجود أو غير موجود. حب أمه له مثلًا لم يتغير أبدًا، هي دائمًا كما هي بوجهها الصبوح، وبحبها الكبير الذي تخجل من إبدائه، ولبمساتها الخجلي، وبعينيهما الصغيرتين اللتين يتغلب عليهما القلق والحنان. وأخته.. أخته ليلي تحبه، بل إن حبها له قد تضاعف في الأيام الأخيرة، ولكنها قد تغيرت، تغيرت وكأن ماء الحياة قد جف منها. هل حدث تطور في علاقتها برمزي؟ إن سناء تقول إنها تحبه، وإنها تقدره، وإن ((ربنا فوق وهو تحت)) بالنسبة إليها، ولكن لماذا تتجنب الحديث عنه هكذا؟ ولماذا تغيرت؟ هل اكتشفت أن رمزي لا يحبها؟ هل اكتشفت أنه غير قادر على الحب؟

منذ ذلك الحديث مع رمزي وهو غير مطمئن، وقد أراد أن يتدخل ولكن سناء منعه.. قالت إن أي تحطيم لرمزي هو تحطيم مباشر لليلي لأنها تؤمن به إيمانًا راسخًا.. ولكن ماذا حدث؟ هل تزعزع إيمانها؟ هل تحطم الإله أمام عينيها؟! هل عرفت فيه الإنسان الذي يخفي احتقاره لنفسه تحت مظهر من القوة، والذي يبرر ضعفه بنظريات عقيمة؟ الإنسان الذي ينمو على حساب الآخرين - كالنباتات المتسلقة - والذي لا يشعر بالثقة إلا إذا سحق كل إرادة تتصدى لإرادته؟ الإنسان الانتهازي الذي يكرس ذكائه وادمية من حوله من الناس ليحقق أغراضه الشخصية والنفعية؟ هل زالت الغمامة ورائته على حقيقته؟

ولكن لماذا هي راضخة؟ لماذا هي مستسلمة لا تتكلم؟ لقد حاول جاهدًا أن يجعلها تتحدث عن نفسها وعن زواجها المقبل وحياتها المستقبلية، ولكنها كانت تهرب منه دائمًا، وتجعله هو يتكلم عن نفسه وعن سناء، وحين يفعل تحيره بتصرفاتها، تمسك بيده بين يديها وتشرق دموعها وابتسامتها في نفس الوقت، وتتنظر إليه في عبادة صامتة وكأنه بطل من أبطال الأساطير. وفي مرة شحبت ابتسامتها فجأة وارتسم الخوف في عينيها ومالت عليه هامسة وهي تقول:

- حاسب على سناء يا محمود، حاسب على سناء!

وسألها في حيرة:

- خايفة من إيه؟ خايفة من إيه بس يا ليلي؟!

واعتدلت في جلستها وقالت في مرارة وهي تنظر بعيدًا:

- مش كفاية إنك تبني حاجة جميلة يا محمود.. المهم إنك تحافظ على جمالها.

ومالت عليه وهي تقول في كلمات متقطعة:

- دائماً يا محمود، دائماً!

وهي تكاد تختنق بعاطفتها، وكأن حياتها تتوقف على سعادته هو وسناء، وكأن سعادتها هي لا تهمها شخصياً ولا تهم أحداً.

وهي تعزو هذا التغير الذي طرأ على صحتها لآلام في معدتها:

- ما باهضمش يا محمود! ما باهضمش!

- يعني إيه ما بتهضميش؟

- تو ما آكل أحس بنار في صدري وصداع في راسي!

- أصناف معينة إللي بتتعبك؟ البيض مثلاً واللبن؟

- كل حاجة، حتى العيش الحاف.

وفحصها أكثر من مرّة، ولم يستطع أن يرجع الآلام التي تشعر بها إلى سبب عضوي واحد: المرارة سليمة، والكبد غير متضخمة، وليست هناك تقلصات في القولون تدل على وجود مصران مزمن، وليس هناك... ومع ذلك فهي تتأوه متوجعة كلما مس جدار بطنها مشاً سطحياً.

ونزع محمود السماعة من على أذنيه، وقال وهو يحد النظر إلى ليلي:

- الأعصاب يا ليلي، أعصاب المعدة تعبانة.

وأفصحت نظراته عن عشرات من الأسئلة.

وارتجفت شفتا ليلي، ثم أشاحت بوجهها بعداً عنه، وجلست في السرير وقالت متضاحكة وهي تعدل ثيابها:

- الأعصاب؟! هوّ الدكاترة ما عايش حيلتهم إلا حكاية الأعصاب ولّا دي الكلمة إللي بتقولوها يا محمود لما ما تعرفوش تشخصوا المرض؟!!

ولكنه لم يضحك. انتوى ألا يتركها تقلت منه هذه المرّة:

- مالك يا ليلي؟ فيه إيه؟ قولي لي، أنا أخوك!

وأغمضت ليلي عينيها وتقلص وجهها وكأنما تلقت صفة. ودخلت أمها الحجرة.

وألقى محمود السماعة في الحقيبة في غضب.. إن أمه تدخل دائماً في اللحظة غير المناسبة، وكأنها مكلفة بذلك.. ربما كان أبوه يخشى من انفراده بليلى.

قالت الأم:

- إيه يا ابني؟ لقيت إيه؟

وقال محمود وهو ما زال غاضباً:

- الأعصاب يا ستي، أعصابها تلفانة خالص!

وقالت الأم غير مصدقة:

- أعصاب؟! أعصاب إيه يا ابني؟!

واستبعد الأب هذا الاحتمال في استخفاف حين قال:

- كلام فارغ!

* * *

ولكن قلق الأب تزايد، وصمم على مفاتحة رمزي في موضوع تحديد موعد الزواج، إن ليلي مقبلة على امتحاناتها النهائية ولم يعد هناك أي داعٍ للتسويق.

وجلس الأب ينصت إلى رمزي وينتظر ثغرة يتسلل منها إلى الموضوع.

ولم يكن من السهل إيجاد هذه الثغرة.

كان لرمزي قدرة على تركيز الحديث حول نفسه، حول المؤامرات التي دبرت ضده وأحبطها، والخطط التي رسمها ونجحت، والكتب التي كتبها والتي ينتوي كتابتها، والانتصارات التي أحرزها والانتصارات التي سيحرزها.

وكان لرمزي أيضًا القدرة على إحاطة حديثه بأهمية تبلغ مستوى القداسة وكأن مصير العالم كله يتوقف على النقطة التالية من الحديث، على الخطوة التالية التي سيتخذها ليسحق أعداءه سحقًا نهائيًا.

وكان من المستحيل والأمر كذلك أن يقاطعه الأب، لو فعل لكان هذا قطعًا أمرًا خارجًا على حدود اللياقة. واستطرد رمزي في كلامه والأب يتململ، وتوقف رمزي ليستجمع أفكاره، ولم يطق الأب صبرًا، اندفع يتكلم.

لا، لا داعي للاستعجال، كل شيء يجب أن تعد له عدته ويجب أن يحسب حسابه بمنتهى الدقة. اختيار المسكن مثلًا عملية هامة، عملية يجب أن تتم على أسس سليمة، ولا يمكن أن تتم قبل أن تلتحق ليلي بعملها الجديد.. فالمسكن يجب أن يكون أقرب ما يمكن إلى مكان عملها حتى تستطيع أن ترعى شؤون البيت.. والنظام أساس الحياة الزوجية، وهو لا يتساهل أبدًا في موضوع النظام هذا، فهو يريد لبيته أن يسير كالألة، كل شيء في مكانه، وكل شيء بميعاده.. فكيف يتأتى لليلي أن تقوم بكل هذه المهام ومقر عملها بعيد عن البيت؟!

لا.. الزواج في يوليو أمر سابق لأوانه، والمسألة ليست سلق بيض.. المسألة يجب أن تكون مدروسة من كل النواحي.

وماذا يقترح؟! إنه يقترح أن تتم كل الاستعدادات اللازمة ويترك تحديد موعد الزواج لحين تعيين ليلي.

ولكن الأب لم يرضخ هذه المرّة، فهو يرغب في تحديد موعد ولو بعد شهور، المهم هو تحديد الموعد، فهو لم يعد يطيق هذا الموقف المعلق.

وتحدد أول أكتوبر سنة ١٩٥٦ موعدًا لزواج ليلي ورمزي.

ولم يسترح الأب إلى هذا التأجيل الذي ليس له ما يبرره.. إن التأجيل يعني الانتظار ثلاثة شهور وأكثر، ومن يدري ماذا يحدث في ثلاثة شهور؟ إن ليلي فتاة طيبة ولكنها تحت تأثير سيئ، تأثير محمود والمرأة الأخرى.

ولو علم الأب أن ليلي تقابل سناء يوميًا وتقضي معها أطول ما يمكن من وقت لتزايد قلقه.

كانت سناء قد استقرت في القاهرة لتأدية امتحاناتها النهائية، وبعد كل امتحان كانت تتجه هي وليلى إلى ركنهما القديم خلف المكتبة، وعلى العشب تحت ظل الشجرة الكبيرة تجلسان.. وفجأة يعود كل شيء كما كان زمان.. رائعًا. وتعود ليلي فتاة لاهية تضحك من أعماقها حتى تنفطر الدموع من عينيها.

وتقول سناء فجأة:

- وإزي رمزي؟

وتقول ليلي وهي ما تزال تضحك:

- سحق نص العالم وله قدامه النص الثاني!

وسرح نظر سناء بعيدًا، وراحت تقتلع العشب من الأرض حزمة بعد حزمة، ثم قالت دون أن تنتظر إلى ليلي:

- ما تسيبيه يا ليلي.

وتنهدت ليلي وقالت في هدوء:

- كل واحد بياخد نصيبه يا سناء!

واعتدلت سناء تواجهها:

- مفيش حاجة اسمها نصيب! إحنا إللي بنصنع نصيبنا!

وقالت ليلي:

- وأنا إللي صنعت نصيبي بإيدي!

- مفهوم، ولكن دا ما بيررش إنك تنتحري!

ومالت عليها ليلي وقالت بصوت هامس وكأنها تفضي لها بسر:

- صدقيني يا سناء.. أنا ما أستاهلش أحسن من كده!

- إنت غلطانة، إنت بنت...

ومدت ليلي يدها تسد فم سناء وهي تقول بصوت فاصل:

- ما تعبيش نفسك يا سناء.. أنا عارفة نفسي كويس!

وأزاحت سناء يد ليلي عن فمها في رقة، وأمسكت بها بين يديها وقالت:

- ومحمود؟ محمود ما يقدرش يساعدك يا ليلي؟

وانتزعت ليلي يدها من بين يدي سناء، وقالت وهي تضحك ضحكة مرة:

- محمود؟! يقدر يحيي الموتى وهي رميم؟

وأمسكت سناء بركبتي ليلي وكادت تصرخ وهي تقول:

- ليه؟ ليه يا ليلي؟ ليه بتكرهي نفسك بالشكل ده؟

- لأن دي هي الحقيقة!

وسارت سناء وليلي في اتجاه باب الجامعة الخارجي وقد علا وجهيهما الوجوم، وعندما مرتا بحذاء الموائد المتناثرة في الحديقة توقفت سناء فجأة واستدارت تواجه ليلي، ونعم صوتها ولمعت عيناها وهي تقول منغمة:

- عارفة يا ليلي؟ عارفة مين زارنا في بور سعيد؟

وسرت رجة في قلب ليلي ثم تركزت في رأسها، وكأن سلكاً كهربائياً مكشوقاً قد مسها، وقالت بصوت هامس:

- مين؟

ولم تكن في حاجة إلى أن تسأل، فقد عرفته، عرفه دمها الذي تدفق إلى قلبها ثم تركز في رأسها.

وقالت سناء في انتصار:

- حسن.

ودون حاجة إلى اتفاق سابق انحرفت الصديقتان إلى مائدة من الموائد المتناثرة وجلستا حولها.

وطلبت سناء زجاجتين من الكوكاكولا، وانتقلت من موضوع حسين إلى موضوعات أخرى وكأنها تتعمد تعذيب ليلي. ويد ليلي ترتجف على الكوب، وعشرات من الأسئلة تتوارد على ذهنها، ولكنها لا تسأل وتنتظر واجفة القلب أن تعود سناء إلى موضوع حسين.

وعادت سناء إلى موضوع حسين، وأجابت عن كل الأسئلة التي أرادت أن تسألها ليلي ولم سألها، كل الأسئلة إلا سؤال واحد، أهم من كل الأسئلة.

نعم. عاد حسين من ألمانيا منذ شهرين وهو رائع كعادته. تغير قليلاً، ازداد رجولة وجاذبية، واكتسب شيئاً من الصعب تحديده، شيئاً يتبدى في مشيته وفي صوته وفي عينيه، فرحة جديدة، كما لو كان قد مر بمحنة ثم اكتشف أنه أقوى مما كان يتوقع. والواقع أنه لطيف، وقد قضى معهما يومين في بور سعيد كانا من أسعد الأيام بالنسبة لمحمود. محمود يحبه بصورة مذهلة إلى درجة

جعلت سناء تغار. ولحسين تأثير عجيب على محمود، ولكن سناء لا تعترض على هذا التأثير بل بالعكس ترحب به، فحسين يجعل محمود يشعر أن الدنيا بخير، وأن الناس طيبون، وأن كل شيء سهل، وأن الأحلام ممكن أن تتحول إلى حقائق.

وقد التحق بالجيش، ويعمل حاليًا بالمصانع الحربية، وما زال يحلم - طبعًا كعادته. لقد قضى ثلاث ساعات يرسم رسومات ويشرحها لمحمود ومحمود مبهور، وهي تكاد تصرخ من الضيق.

- وعارفة كان بيرسم إيه؟ السد العالي يا ستي.

وضحكت سناء.

- والطريقة التي كان يتكلم بها عن السد العالي! تقوليش بيتكلم عن حبيبته!

وابتسمت ليلي ابتسامة خفيفة.

والتفتت سناء إلى ليلي وقالت في شقاوة:

- تصدقي يا ليلي؟

وتوقف تنفس ليلي، وأكملت سناء كلامها:

- تصدقي إن حسين لسه بيحبك؟

وطفرت الدموع إلى عيني ليلي، واحمر وجهها، ومالت على المائدة وأرادت أن تقول: ((مش معقول)).

ووجدت نفسها تقول:

- وعرفت إزاي؟!!

وانفجرت سناء ضاحكة.

وبدا الذهول على وجه ليلي.. ذهلت مما أصابها.. لقد مضى عليها زمن طويل ولا شيء يحركها ولا شيء يهزها، وها هي ترتجف الآن وكأنها فتاة مراهقة، كل شيء بأعماقها يرتجف. وسناء تضحك منها.

وقالت ليلي في غضب، وغضبها موجه إلى نفسها أكثر مما هو موجه إلى سناء:

- بتضحكي على إيه؟

ومضت سناء تضحك، ثم اعتدلت وهي تكتم ضحكتها، ومدت يديها إلى الأمام في حركة مسرحية، وقالت وهي تقلد ليلي، في صوت مسرحي مؤثر:

- يقدر يحيي الموتى وهي رميم؟

ولم تستطع ليلي أن تكتم ضحكتها:

- إنت مصيبة!

وقالت سناء:

- والله ما مصيبة غيرك! مستموتة كده على الفاضي! إنت؟ إنت ميتة؟ دا إنت فيك حياة تكفي عشرة!

وعادت تضحك من جديد.

وساد الصمت الصديقتين لحظة بدت فيها سناء واجمة وكأنها تفكر، ثم مالت بنصفها الأعلى على المائدة وواجهت ليلي بوجه هادئ وهي تقول:

- روعي يا ليلي اتجوزي رمزي زي ما إنت عايزة! بس واجهي الحقيقة الأول، الحقيقة إللي إنت طول عمرك بتهربي منها!

وتوقفت سناء عن الكلام، رأت يد ليلي تزحف نحوها عبر المائدة، تزحف مرتجفة وكأنها حيوان جريح. وفي عيني ليلي رأت نظرة مبتهلة، نظرة تتوسل إليها ألا تتكلم، ألا تواجهها بالحقيقة العارية.

وكان الحقيقة لن تصبح حقيقة إلا إذا تكلمت، إلا إذا تشكلت في كلمات حية نابضة!

وترددت سناء لحظة، ثم قذفت بكلماتها في عنف، كمن يوجه صفة لشخص أصيب بالإغماء ليفيق:

- الحقيقة يا ليلي إنك بتحبي حسين، طول عمرك بتحبيه، وطول عمرك حتحبيه.

وشعرت ليلي بدوار وكأن شيئاً ما ينزف بداخلها، وغطت وجهها بيديها، ودون أن تنظر إلى سناء، ودون أن تنطق بكلمة، سحب حقيبتها من فوق المائدة وانصرفت. ونادتها سناء ولم تتوقف. سارت بخطى واسعة وكان إنساناً يطاردها، وألقت بنفسها في أول أتوبيس توقف أمام باب الجامعة دون أن تهتم بمعرفة وجهته.

وجلست منكمشة مطرقة تحتضن حقيبتها.

وكلمات حسين تتردد في أذنيها: ((في يوم الصبح حتصحي وتكتشفي إنك بتحبيني)).

وتتقاطع الكلمات وتتشابك وتتراكم، دائماً نفس الكلمات: ((الصبح، حتصحي، الصبح)).

ولكن الصبح قد تأخر، تأخر بحيث كان من الأفضل ألا تصحو أبداً، وألا يأتي الصبح أبداً.

وكل شيء واضح الآن، واضح وحاد وعنيف، ولا شيء يستوي لديها: حبها لحسين حاد وعنيف، وكرها لرمزي حاد وعنيف، وكرها لعجزها ولضعفها أهد وأعنف.

والحقائق حقائق، وعارية. ويليى تواجهها بعينين مفتوحتين ولا تملك من أمر نفسها شيئاً.

جلست ليلي إلى مكتبها وأسندت رأسها إلى كفيها، وعيناها تلمعان وهما تتطلعان بعيداً، وفي صدرها ذلك الشعور العجيب المتوهج الذي ظنت، من طيلة غيبته، أنه لن يعود أبداً، ولكنه عاد، دافقاً متوهجاً وثاباً لا تكاد ضلوعها تحتويه.

وكانت قد فرغت لتوها من ذرع الحجرة عشرات المرّات جيئةً وذهاباً والشعور المتوهج ما يزال يتأجج وما يزال يتطلب منها أن تبكي، أن تضحك، أن تصرخ، أن تقفز، أن تقبل أحداً، أن تتكلم مع أحد من الناس، مع الكثير من الناس.

وسمعت ليلي همهمة، اشتدت حتى أصبحت كهدير البحر، وجرت إلى النافذة وفتحتها على مصراعها، وودت لو استطاعت أن تندفع مع موجة من هذه الموجات الأدمية التي تمر مهللة منتصرة في الطريق الوسع العريض.

وعادت تذرع الغرفة من جديد وهي لا تعرف ماذا تفعل بهذه الفورة التي تتأجج في صدرها. وانحرفت إلى المكتب وسحبت ورقة وقلمًا، وبدون أن تفكر سطرت الكلمات التالية إلى أخيها: عزيزي محمود،

منذ زمن طويل، طويل جداً، لم أشعر بما شعرت به الليلة وأنا أستمع إلى خطاب جمال عبد الناصر.

شعرت أنني قوية، وأني قادرة على كل شيء، كل شيء، أنفهمني؟! والشعور بالكبرياء الذي نسيني عاد إليّ من جديد، والانتماء يا محمود! لم أعد وحيدة!

شعرت تلك اللحظة أنني كنت هناك، مع الآلاف التي تهل في الإسكندرية، ومعك ومع سناء ومع...

حتى أبي لم يعد غريباً، لقد كاد يحتضنني ونحن نستمع إلى الخطاب! تصور؟! وكلنا - حتى أبي - كلنا أمنا القناة.

والشعور بالكبرياء الذي نسيني عاد إليّ، والشعور بالعجب لأن القوة ما زالت تنتفض في أعماقي حية.. وإن كانت حبيسة.

وتوقفت ليلي لحظة وقد غشت الدموع عينيها، ثم واصلت الكتابة:

أهذه هي المعجزة التي وعدتني بها؟ المعجزة التي ستهزنا وتجعلنا

ننفض أكفاننا وننبعث أحرارًا أقوياء من جديد؟ قل لي إنها المعجزة!
أرجوك يا محمود قل لي إنها المعجزة!

* * *

- لا ليست هذه هي المعجزة.

قال محمود:

- إن المعجزة ستحدث حين نستطيع أن نحمي القناة، وأن نحمي جميع مكاسبنا الوطنية، حين نتخلى عن سلبيتنا، ونصمد جميعًا حتى الموت للاستعمار.

وقال رمزي إن هذا مستحيل، فتأميم القناة ألب علينا جميع القوى الاستعمارية ونحن أضعف من أن نواجهها، وميزان القوى ليس في صالحنا، وكنا نستطيع أن ننتظر، أن نتدبر الأمور ولا نتعجل، والشجاعة والحماسة لا يفصلهما إلا خط رفيع.

وقالت ليلي:

- إننا لا نقف وحدنا، بل يقف إلى جانبنا كل الأحرار في العالم وميزان القوى...

وقاطعها رمزي في عنف.

كان قد مضى عليها وقت طويل لم تفتح فيها برأي معارض لرأيه، وها هي ذي الآن تتكلم بثقة وبوقاحة كما لو كانت تفهم من أمور الدنيا أكثر مما يفهم.

وكزت ليلي بأسنانها على شفتها السفلى وسكتت، ورمزي يتبادل الحديث مع أبيها، ثم انتهزت فترة السكون الذي ساد لحظة ومالت في اتجاه رمزي وقالت:

- الإنسان لو كان عاش طول عمره خائف يحسب حساب كل خطوة ما كانش بنى حضارة، ولا اخترع حاجة، ولا انتزع حريته..

ما كانش حقق أي حاجة جميلة!

وانقبض وجه رمزي لحظة ثم عاد إلى جموده، وقال في سخرية بعد أن ارتخى في جلسته:

- ولما إنت فصيحة كده، ما نجحتيش بتفوق ليه؟!

وأخذت ليلي على غرة، واحمر وجهها غضبًا. لم تتوقع أن يلجأ رمزي إلى هذه الطريقة الخسيسة ليهرب من المناقشة، ولكنه لجأ إليها لينتصر.. ما من طريق لا يلجأ إليه لينتصر! حتى في المناقشة!

إنه مغتاظ، لا لأنها نجحت بدرجة مقبول، بل لأن سناء نجحت بدرجة جيد جدًا، سناء التي تتبأ بفشلها وأقسم أغلظ الأيمان على أنها لن تفلح.

ونظر رمزي إلى ليلي في غيظ.. لقد منحها كل شيء يمكن أن يمنحه رجل لامرأة.. منحها

اسمه ومركزه وماله، وأضفى عليها الاحترام، وبعد أن كانت نكرة أصبح الكل يحترمها على أساس أنها زوجته المقبلة، وأعطاهما الحياة المنتظمة المطمئنة الخالية من القلق، وكتبه ونصائحه وتوجيهاته، وكل شيء، كل شيء يمكن أن يمنحه رجل لامرأة، وأستاذ لطالبة، ومع ذلك تركت فتاة قدرة كسناء تتفوق عليها!

وقال رمزي في حقد:

- أنا مش فاهم إيه إللي كان ناقصك؟ كل التسهيلات كانت عندك! كل التسهيلات!

ومالت ليلى في اتجاهه ووجهها يتورد وعيناها ترقصان، وكأنها على وشك القفز من ارتفاع إلى الماء، والمغامرة تسحرها وتخيفها في نفس الأوان:

- تحب تعرف إيه إللي كان ناقصني؟

ولكن الأب تدخل في الحديث وأفسد على ليلى نشوتها المفاجئة.

أراد أن يعرف أثر تقدير النجاح في التعيين، وهل سيعرتب عليه صعوبة في إيجاد مكان لليلى في مدارس القاهرة الثانوية؟

نعم، الصعوبة موجودة، بل إن أمر تعيين ليلى في القاهرة يكاد يكون مستحيلًا لولا أن لرمزي - والحمد لله - نفوذًا في وزارة التربية والتعليم، فهو يعرف جميع وكلاء الوزارة معرفة شخصية، وهم جميعًا يتمنون أن تمنح لهم الفرصة لتقديم خدمة إليه، وهو يستطيع أن يقابل الوزير في أي وقت من الأوقات.

وهو حقًا لا يحب أن يستخدم نفوذه، فقد شق طريقه دائمًا بذراعه، وأملى نفسه على الآخرين بتفوقه، ولكن ما باليد حيلة.

أخذ رمزي ليلى لمقابلة المفتشة العامة للمواد الاجتماعية، ووجدت ليلى نفسها في غرفة فسيحة يتوسطها مكتب كبير، تجلس خلفه امرأة في الخمسين من عمرها، يكشف شعرها الفضي المشدود إلى الخلف عن جبين شامخ تشوب نضاعة بياضه تجاعيد الشيخوخة.

وجلس ليلى على طرف الأريكة، بينما ارتخى رمزي في جلسته ووضع ساقًا على ساق وهو يبين الغرض من الزيارة.

واستمعت المفتشة إلى الكلام دون أن تنتظر إلى رمزي، وعلى وجهها الوسيم ارتسمت ابتسامة خفيفة وكأنها تفكر في شيء آخر، شيء لا علاقة له بالموضوع الذي يثيره ذلك الرجل الذي جلس وقد وضع ساقًا على ساق وكأنه في بيته.

ودون أن تنطق بكلمة نظرت إلى ليلى، ومدت يدها بورقة مطوية. وقفزت ليلى من مكانها مضطربة، وسارت في اتجاه المفتشة وحين حادثتها توقفت.

وابتسمت المفتشة في وجه ليلي وكأنها تعرفت عليها لتوها، وقالت بصوت ناعم والحنان يترقرق في عينيها:

- اكتبني الطلب دا يا ليلي.

وأشارت بيدها إلى مائدة في الطرف الآخر من الحجرة وهي ما تزال تبتسم.

وبيد ثابتة أخذت ليلي الطلب، وكأن ابتسامة المرأة الهادئة الواثقة المطمئنة قد أضفت عليها هي الهدوء والثقة والاطمئنان. وبخطوات ثابتة سارت إلى المائدة، وجلست تكتب البيانات المطلوبة بعيداً عن رمزي.

الاسم، العنوان، الشهادة، تقدير النجاح، الوظيفة المطلوب التعيين فيها، مكان التعيين.

ورمزي لا يكف عن الكلام.. القاهرة، لا بد أن تعين ليلي في القاهرة.. لا، إنه لا يكفي بمجرد المحاولة. يجب أن يأخذ وعداً صريحاً من المفتشة، وإلا سيضطر إلى استخدام نفوذه، إن وكلاء الوزارة يتمنون خدمته، والوزير شخصياً لا يتأخر عنه في طلب مثل هذا و...

وتوقفت ليلي عند مكان التعيين، الاختيار الأول، والاختيار الثاني. ورمزي يتكلم...

القاهرة، لا بد من القاهرة، إن القاهرة هي مكان عمله وبالتالي لا بد أن تكون مكان عمل زوجته المقبلة، يجب أن تعده المفتشة بتعيين ليلي في القاهرة، لا مفر من القاهرة.

والمفتشة تبتسم ابتسامتها الخفيفة وتتنظر إلى لا شيء، وكأنها تفكر في شيء آخر لا علاقة له بهذا الرجل الذي يهدد ويتوعد، شيء جميل.

وانحنى ليلي على الطلب، وتحت مكان الاختيار الأول كتبت بور سعيد، وتحت مكان الاختيار الثاني كتبت بور سعيد. وطبقت الورقة وقفزت واقفة، وفي نفس اللحظة قام رمزي واقفاً.

وتقدمت ليلي بخطوات واسعة إلى مكتب المفتشة، وقابلها رمزي في منتصف الطريق أمام المكتب. واجتاحت رجفة الخوف جسد ليلي، وكادت تستسلم، ولكنها رأت الابتسامة الواثقة المطمئنة، وشعرت وكأن الابتسامة تلفها، وتجاهلت يد رمزي الممتدة إليها واستدارت وأعطت الطلب للمفتشة وتنهدت في ارتياح.

وقال رمزي للمفتشة في ضيق مكتوم:

- تسمحني أشوف الطلب مستوفي ولألاً.

ووجف قلب ليلي من جديد وأغمضت عينيها، وحين فتحتهما كانت المفتشة تبتسم بسمتها الخفيفة وهي تنظر إلى بعيد، وتدق المكتب والطلب تحت يدها دقات رتيبة.

والتفتت المفتشة إلى ليلي وقالت بصوت هادئ:

- الطلب مستوفي يا ليلي؟

ولم تستطع ليلي أن تجيب، أشارت برأسها بالإيجاب دون أن تنطق بكلمة.

وفتحت المفتشة درج مكتبها وألقت بالطلب فيه، ثم ردت الدرج إلى مكانه في هدوء، وقامت واقفة وهي تقول:

- خلاص يا ليلي.. إن شاء الله نحاول نجيب رغبتك، مع السلامة، مع السلامة يا دكتور.

وعندما وصلت ليلي إلى الباب استدارت وهي تبتسم، وسبحت عيناها في الدموع حين التقتا للمرّة الأخيرة بعيني المفتشة.

ولكن رمزي كان ناقماً على المفتشة، لم يغب عنه تجاهلها المتعمد له، وتحول عدم رضائه إلى ثورة عندما تلقت ليلى خطاب التعيين من وزارة التربية والتعليم.

ووضع رمزي الخطاب في جيبه، وهدأ من روع الأب الثائر ووعد بوضع الأمور في نصابها:

- في أربعة وعشرين ساعة، ستكون ليلي متعينة في القاهرة، وحضرة المفتشة إياها حييجي لها الأمر من فوق.. أصل فيه ناس كده زى الكلاب، ضروري بييجي لهم الأمر من فوق!

وصرخ الأب عقب خروج رمزي إلى الوزارة:

- بور سعيد؟! مستحيل! بور سعيد بالذات مستحيل!

ثم ضاقت عيناه وهو يرقب ليلي:

- إنت، إنت، إنت إلی طلبت بور سعيد.

وقلّبت ليلي يديها في براءة:

- أنا طلبت مصر، حتى حضرتك اسأل رمزي لما يرجع.

ولم يرجع رمزي في الظهر كما وعد، ولكنه جاء بعد العصر، وقال إنه سوى المسألة، وإنه أخذ وعدًا صريحًا من وكيل الوزارة بنقل ليلى إلى القاهرة بعد استلامها للعمل في بور سعيد بأسبوعين، وإن المسألة مسألة شكلية، ولا بأس في بعض الأحيان من الخضوع للشكليات.

ولكن الأب أظهر استياءه من هذه التسوية، وقال إنه يفضل أن ترفض ابنته التعيين على أن تسافر وحيدة إلى بور سعيد.

- ثم مين أدرانا إنها حنتقل صحيح بعد أسبوعين؟

واحتد رمزي وهو يصف للأب مدى نفوذه في وزارة التربية والتعليم، وكيف ثار وكيل الوزارة حين علم بخطأ المفتشة، وكيف وعد بتلقينها درساً لن تتساه، وكيف أن نقل ليلي من بور سعيد بعد أسبوعين من تسلمها العمل أمر مضمون مائة في المائة.

وهذا رمزي وهو يشرح للأب كيف أن رفض ليلى للتعيين يعني انتظارها للدفعة التي تلي دفعتها، أي ضياع سنة بأكملها، وكيف أن التسوية التي ارتضاها لا تتعارض مطلقاً مع خطتهم،

فليلي ستتسلم عملها في أول سبتمبر، وستكون في القاهرة في نصف سبتمبر، أي قبل الموعد المحدد للزواج بأسبوعين.

وأشار رمزي إلى أن إقامة ليلي في بور سعيد ميسرة، فمن حسن الحظ أن المدرسة الثانوية تضم قسمًا داخليًا مخصصًا لإقامة المدرّسات المغتربات، وأن المسألة والأمر كذلك، تدعو إلى الاطمئنان من كل الوجوه.

وبعد أن انتهى رمزي من عرض الموضوع قال للأب:

- إيه رأيك؟

- حافكر.

وترك الأب الموقف معلقًا.. وأول سبتمبر يقترب والأب ما يزال يفكر.

وعندما نادى ليلي وانفرد بها في غرفته عرفت أنه سيفتح الموضوع، وتأهبت بكل حواسها لملاقاته.

وقال الأب:

- إنت عايزة الشغلانة دي؟

وأرادت ليلي أن تصرخ من أعماقها وتقول: ((أيوه، أرجوك، أرجوك يا بابا)).

ولكنها تماكنت نفسها وقالت وهي تهز كتفها وكأن الأمر لا يعنيها في شيء:

- زي ما حضرتك عايز.

وقال وهو يدير ظهره لها:

- والناس إللي هناك دول حتختلطي بيهم؟

ولم تدر ليلي كيف ينبغي أن تجيب على هذا السؤال، وقالت في بلاهة:

- زي ما حضرتك عايز.

واستدار يواجهها وقد شحب لونه، وقال في هدوء قاتل:

- إنت عارفة أنا عايز إيه! عارفة كويس أوي!

ولم تتكلم ليلي. وبدأ أبوها يذرع الحجرة ثم توقف وقال:

- السكن في المدرسة، محمود يزورك معلّش، الثانية لأ! زيارات عندهم في البيت مفيش! خروج من المدرسة مفيش!

وركز الأب عينيه في عيني ليلي وقال في حدة:

- فاهمة؟

- حاضر.

وضاقت عينا الأب الرماديتان وارتجفت شفتاه وهو يقول متوعدًا:

- عارفة يحصل إيه لو بلغني إنك دخلت بيتهم أو اختلطت بيهم؟ وأغمضت ليلي عينيها وهزت رأسها علامة الفهم دون أن تتكلم.

وقال الأب:

- خلاص.

ووقفت ليلي مسمرة في مكانها، وقال الأب في ضيق:

- خلاص، انتهينا، روعي حضري نفسك!

وخرجت ليلي من الغرفة وهي لا تكاد تصدق أن أباه قد سمح لها بالسفر إلى بور سعيد.

وأعدت ليلي حقائبها وهي ترتجف رجفة المباغثة كلما سمعت خطوات أبيها تدب في الصالة.. تملكها الخوف من أن يحدث شيء في آخر لحظة يحول بينها وبين السفر.

ولم يزايلها هذا الخوف حتى وهي تقف في نافذة القطار ورمزي يقف على الرصيف، واختلست ليلي نظرات سريعة إلى ساعة يدها، الساعة لا تتحرك وكأنها قد فسدت.

وبوجه متوتر راحت تتطلع حولها وكأنها تبحث عن شيء ضاع منها، وتتهدد حين وقعت عيناها على ساعة المحطة.. الحمد لله.. الساعة الثانية عشرة.

الساعة الثانية عشرة والجرس لا يدق والقطار لا يتحرك.

وقال رمزي:

- ما تخافيش يا ليلي، كلها أسبوعين وحترجعي على طول.

والجرس يدق والقطار لا يتحرك، ربما أصابه عطب ولن يتحرك.. لن يتحرك أبدًا.

وتحرك القطار، وتهلل وجه ليلي، وصاحت في نشوة دون أن تنظر إلى أحد، أو توجه الخطاب إلى أحد، صاحت وكأنها تتغنى بأغنية:

- أنا مش خايفة! مش خايفة!

وجلست وهي ما زالت تدمدم:

- أنا مش خايفة! مش خايفة!

ثم هبت واقفة وكأنها نسيت شيئًا، وأقفلت النافذة، وغاب عنها رمزي والرصيف بأكمله، وتقدم

القطار في بطة، ثم انطلق.

* * *

ولم يكن أمر نقل ليلي من بور سعيد بالسهولة التي تصورها رمزي، وبدلاً من الأسبوعين بقيت ليلي في بور سعيد شهرًا.

وفي ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ بدأ الهجوم الإسرائيلي على صحراء سيناء، وفي ٣١ أكتوبر اشتركت بريطانيا وفرنسا في العدوان على مصر، وبدأت العمليات الحربية ضد المواقع المصرية.

وتدفق شلال هادر، واعترضت المستنقعات مجرى الشلال في الطريق، تريد أن تمتصه، وأن
تفنيه فيها، وأن تحيله بركودها إلى ركود.

والشلال عاتٍ جبار جياش عميق.

والمستنقعات عتيقة ترسبت على مر السنين، تجثم على أرض مصر في اطمئنان وهدوء،
وصفحتها تلتمع تحت أشعة الشمس.

وتحت الصفحة اللامعة طين.

واكتسح الشلال المستنقعات في الطريق، وأفنى ماءها في مائه، وأحال ركودها إلى فورة فتية
وثابة مائجة فوارة.

وفي أغوار الشلال ذاب الطين.

وتقدم الشلال عاتياً جباراً جياشاً عميقاً إلى آخر الطريق، وفي آخر الطريق سد، سد من
صخور.

وتحت أقدام الشلال انهار السد، وتفتتت الصخور.

ظل جرس التلفون يدق في شقة محمود طيلة الصباح، ولا أحد يجيب النداء.

كانت ليلي في المدرسة، وسناء في مركز تمرّيز، ومحمود في مركز تدريب عسكري.

وعندما عادت ليلي إلى الشقة عقب إعلان تعطيل الدراسة كان جرس التلفون ما زال يدق.

وارتجفت يد ليلي بالمفتاح وهي تفتح الباب، وصل إلى سمعها رنين الجرس متصللاً لا منقطعاً،
وأدركت أن الاتصال من أبيها أو من رمزي.

ووضعت ليلي حقيبة ملابسها بالقرب من الباب، واتجهت إلى التلفون بخطى بطيئة، ووضعت
يدها على السماعة، وهمت برفعها.

وسمعت نفسها تقول: ((حاضر يا بابا، زي ما إنت عايز يا بابا)).

وانحرفت عن التلفون، واندفعت إلى الحجرة التي خصصتها سناء لها، وأغلقت الباب خلفها،
وجلست على طرف السرير، ورنين التلفون يخترق الباب المغلق.

* * *

لا، إنها لا تريد أن تسمع الصوت يأمرها أن تعود، ويجرها جرًّا إلى القاهرة من جديد، إنها لا تريد أن تترك حياتها لرمزي ولأبيها يكيفانها كما يشاءان، وكأنها قطعة من الحجارة يقذف بها الإنسان بطرف حذائه أينما أراد، وكيفما شاء.. إنها لا تريد أن تعود إلى القاهرة، ولن تعود إلى القاهرة.. يجب أن تواجه أباهما وأن تواجه رمزي، يجب أن تقول لا.

وقامت ليلى واقفة لترد على التلفون، وسارت إلى باب الحجرة المغلق، ووضعت يدها على مقبض الباب، وسرت رجفة باردة في جسمها.

رأت أباهما يقترب منها في خطوات قصيرة آلية، بوجه جامد وبجسم متصلب وكأنه آلة مسلطة عليها، آلة تقترب منها في بطء لتسحقها.. ورأت رمزي يهز وجهه الجامد المغلق ويقول: ((مفيش فايده)).

والتلفون يرن، ولا يكف عن الرنين، حتى صوت الإنذار بالغاارة أخف وطأة من ذلك الرنين، إنه لا يستمر هكذا ثقيلًا ملأًا خانقًا بلا نهاية، إنه يستمر لحظات قصيرة ثم يأتي الرد حاسمًا عارمًا. ويهتز البيت والقلب، والمدافع المصرية المضادة للطائرات تتطلق من كل جانب، وكأن الأرض تفجرت حممًا.

ويتطلع الإنسان من النافذة إلى الأفق البعيد، وهو يتنقل ببصره في السماء، ومع كل طلقة يكتم أنفاسه وينتظر.

ويتفجر الدم في عروقه وهو يسمع الناس يهللون، ويلمح طائرة تتحول إلى شعلة من نار وهي تهوي إلى الأرض أو إلى البحر.

ويكتم أنفاسه لينتظر من جديد.

والتلفون يرن ولا يكف عن الرنين، والرنين يتضخم لحظة بعد لحظة.

وتشبثت ليلى بمقبض الباب، وجسمها يرتجف بعجزها، وبكراهيته، وبثورتها.

والرنين يلهب أعصابها وينخر في رأسها، يحفر فيه ثقبا يتسع لحظة بعد لحظة، ثقبا يكاد يؤدي بها إلى الجنون.

وانفجرت ليلى صارخة، ودفعت الباب أمامها، وخرجت من البيت لاهثة وكأن خطرا يدهمها.

وعندما وصلت إلى الشارع، ولم يعد الرنين يتردد في مسامعها تنهدت في ارتياح وهي تغطي وجهها بيديها.

* * *

وعاد محمود إلى البيت متأخرًا تلك الليلة، وكانت سناء في المطبخ، تطهو بعض ((السباغتي))

للعشاء، وكانت ليلى تنتظره في الصلاة.

وجلس محمود يخلع حذاءه العسكري وهو يتوجع من طيلة وقوفه على قدميه.

وقالت ليلى:

- إيه الأخبار؟

وتألفت الفرحة في عيني محمود، وفتح فمه ليتكلم، ولم يتكلم، قلب يديه وهو يعلن عن عجزه عن التعبير عما يعتل في نفسه من مشاعر.

ثم تنهد في ارتياح وهو يقول:

- الدنيا بخير يا ليلى.

وارتخى محمود في جلسته وهو يحكي لليلى:

- ولد عنده ١٢ سنة، جه في مركز التدريب وعازب يدرّب، قلت له: ((إنت صغير))، بص لي وقال: ((أنا كبرت اليومين إلي فاتوا)).

ودق محمود بيده على مسند المقعد وهو يستطرد في كلامه:

- وأدركت إنه مش هوّ بس إللي كبر، كلنا كبرنا اليومين إلي فاتوا، كلنا من غير استثناء.

وغلى الماء في الوعاء، وأسقطت سناء ((السباجتي))، وضاعفت الشعلة تحت الوعاء.

والتفتت ليلى بحركة لا إرادية إلى التلفون، وغزاها شعور من الخجل لأنها لم تواجه أباهها ولم تواجه رمزي.

واستأنف محمود كلامه:

- البلد بقت معسكر كبير، معسكر بيغلي، والقطر بيوصل كل ساعة، وبيوصل مليون متطوعين.

وتهلل وجه ليلى.

وانحنى محمود، وأمسك بحذاءه، وقام واقفاً وهو يقول:

- عارفة مين وصل النهارده؟

واحمر وجه ليلى وقالت:

- حسين؟

- أبداً، حسين في سينا.

- أمال مين؟

- خمّني .

وضحكت ليلي وهي تخفي اضطرابها، وقال محمود في انتصار :

- عصام .

- مش معقول !

- هو إيه إللي مش معقول ؟

وقالت ليلي :

- وخالتي ؟ خالتي إزاي تسبيه ؟!

وقلب محمود يديه وبهما فردتا الحذاء، ومط وجهه وهو يظهر تعجبه بطريقة مسرحية مبالغ فيها .

وانفجرت ليلي ضاحكة .

وهز محمود رأسه هزة خفيفة، وكأن شيئاً قد حدث، شيئاً عجباً لا يستطيع تصديقه ولا تفسيره .

وسار من جديد في اتجاه حجرته، وعندما وصل إلى الباب استدار يواجه ليلي وهو يقول في صوت ناعم :

- مش قلت لك يا ليلي إننا كبرنا !

وكاد محمود يهمس وهو يقول :

- دي المعجزة يا ليلي، المعجزة !

ودقت صفارة الإنذار من جديد .

* * *

ويوماً بعد يوم تضاعلت الفترة بين الإنذار والإنذار حتى انعدمت، وتوقفت صفارات الإنذار، وتحولت الغارات إلى غارة متصلة .

والمدافع المضادة للطائرات تتفجر تكاد تنصهر، وخلف المدافع احشد الناس يهللون .

وصرخ رجل عجوز أبيض الشعر يقف بين الجموع خلف بطارية الجمرک :

- شد حيلك يا محمد .

وسقطت طائرة محترقة تهوي إلى البحر .

وانخفضت طائرة فجأة حتى كادت تلمس رؤوس الواقفين، ووجهت نيران مدفعها الرشاش إلى المدفعي .

وطوى محمد نصفه الأعلى على بطنه متأوهاً.
وقفز جندي من خلف محمد، يريد أن يحتل مكانه.
واعتل محمد في جلسته، وببيدين غارقتين في الدم أطلق مدفعه على الطائرة قبل أن تختفي.
وزحف إلى الخلف مخلياً مكانه لزميله، وتمدد على ظهره وعيناه عالقتان بالطائرة المحترقة.
وحين وصلت الطائرة إلى البحر، ابتسم محمد ابتسامة واهنة، وأغلق عينيه.

* * *

وبعد خمسة أيام سكنت المدافع.
وبدأت الطائرات تدك المدينة، والناس يدفنون موتاهم، ويضمدون جراحهم وينتظرون.
وحين نزل جنود المظلات في الجميل وفي الرسوة وفي بور فؤاد، وجدوا الناس ينتظرون.
وأصبح من الواضح أن المعركة قد بدأت، وأنها قد اتخذت طابعاً جديداً، يتحتم معه ترحيل من
تبقى في بور سعيد من نساء وعجائز وأطفال.
وكانت كل الطرق المؤدية إلى خارج بور سعيد مقفولة، فيما عدا طريق واحد.

الساعة الحادية عشرة صباحًا، واليوم يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦، والغيوم تلبد السماء، غيوم كثيفة غبراء، والشمس تتسلل من بين الغيوم تشق لنفسها ثغرات زرقاء يخالطها البياض.

والغيوم تلف بحيرة المنزلة بوشاح أغبر رمادي، وعلى سطح البحيرة ترتجف ظلال سوداء، ظلال مراكب صغيرة وكبيرة، مراكب مليئة فوق طاقتها وأخرى لم تمتلئ بعد، وظلال ناس يعبرون المرسى إلى المراكب وهم محملون بأمتعتهم، وظلال ناس ترتمي على الشط وتدفن وجوهها في الماء تروي عطشًا لا يرتوي، وظلال ناس على الشاطئ ينتظرون.

وعلى سطح البحيرة انطبع ظل فتاة طويلة ممشوقة وهي تعبر المرسى بخطوات متثاقلة، تتقدم إلى البحيرة ويدها تلتفتان في حنان حول لفة سُويت في عناية، وتوقفت الفتاة بغتة ثم استدارت وعادت تجري إلى البر وهي تصيح:

- عادل، عادل.

وصاحت أم الفتاة تتناديها من المركب:

- فايضة، فايضة.

ولكن فايضة لم تستجب لنداء أمها، شقت لنفسها بصعوبة طريقًا وسط مئات من الأطفال والنساء والعجائز الذين يصطفون على الشاطئ، وكادت تصطدم بطفل يفتح عينيه على اتساعهما وكأنهما تحرقانه.

ونظر إليها الطفل نظرة واعية مستكرة وكأنه يقول: ((مستعجلة على إيه؟ فيه إيه الواحد يستعجل عليه؟)).

وكانه شيخ هرم، وكأنه كبر فجأة ولم يعد طفلًا، كبر من الهول الذي رآه، خلال خمسة أيام بلياليها.

وربتت فايضة على كتف الطفل في ارتباك، ومضت تجري تشق طريقها بين الجموع وهي تصيح لاهثة:

- عادل، عادل.

واستدار شاب في ثياب المقاومة الشعبية، كان قد أعطى ظهره للمسافرين، وعاد وهو يجري في اتجاه فايضة.

ووضع يديه على كتفيها، ووقف تجاهها ينظر في عينيها دون أن يتكلم، واستجمعت هي أنفاسها

ثم أخذت تلوك فمها بلسانها وهي عاجزة عن التعبير عما في نفسها، وكزت بأسنانها على شفتها السفلى وقالت بصوت هامس:

- إنت حتيجي، مش كده يا عادل؟ حتيجي!

وعكست عيناها أعماقاً من الحزن، وكأن حزن هؤلاء النساء اللاتي يعبرن المرسى إلى البحيرة وقد تركن على البر أبناء وأزواجاً، وجثث أبناء وأزواج، قد تجمع في عيني هذه الفتاة التي لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها.

وابتسم عادل:

- مش أنا إللي حاجي، إنت إللي حتيجي يا فايضة، إحنا حنتجوز هنا في بور سعيد، بلدنا!

وتطلعت فايضة إليه في خوف، والتقت عيناها بعينيها في نظرة طويلة، ثم أشرق وجهها المليح بابتسامة حلوة استقرت لها غمازتان في خديها، ولمعت عيناها بأمل حلو، وكأن يدًا مسحت الرؤيا المخيفة التي عاشتها خمسة أيام، وكأنها لم تعد ترى إلا نفسها وعادل يمرحان كالأطفال على شاطئ بور سعيد الذهبي، وهي تجري وعادل يلحق بها ويقبل مؤخرة عنقها، والشمس تدغدغ جسمها، وتتراقص كقطع الماس على صفحة البحر الزرقاء.

البحر؟! الشاطئ؟! أين هما؟! وكأنها لم ترهما منذ مائة سنة، وكأنها عاشت دائماً بين الحرائق والأشلاء.

وغامت عينا فايضة، واشتدت قبضتها على اللفة التي تحملها وكأنها تحميها من عدو يترصد بها:

- إمتى؟ إمتى يا عادل؟

- حالاً يا فايضة، حالاً يا حبيبتي، إن دخل العدو حيدخل على جثتنا، وإن قعد يوم مش حيقعد الثاني.

واحتضنت فايضة اللفة في صدرها، وقالت بصوت مكتوم:

- عادل، إنت ضروري تعيش، ضروري يا عادل.

وقال عادل وهو يخفي انفعاله تحت ستار من الاستخفاف:

- ما تخافيش يا فايضة، عمر الشقي بقي.

ولم تضحك فايضة، قالت وهي تهمس:

- توعدني؟ توعدني يا عادل؟

وقال عادل في لهجة نصف مازحة:

- أوعدك يا حبيبتي!

واختلطت دموع فايضة بابتسامتها، ومن خلال دموعها ملأت عينيها بصورة حبيبها، وداخل

الاطمئنان قلبها.

إن عادل وعدها، وعادل لم يكذب أبداً عليها، عادل سيطرد الأعداء، عادل والآلاف من المصريين الذين رأَت شجاعتهم بعينها.. ألم يبيدوا رجال المظلات في بور فؤاد والجميل؟

ستعود، ستعود حتماً إلى بلدها وإلى بيتها، إلى البحر وإلى الشاطئ، ستعود إلى عادل ومع عادل ستعيش، ستحيا ويحيا عادل إن هذا حقها وحق عادل، ولا يمكن أن يسمح الله لأحد أن يسلبهما حقهما في الحب، وحقهما في الحياة.

وقال عادل في صوت هامس:

- أوعدك يا فائزة إنك حترجعي بور سعيد، وإن الناس دول كلهم حيرجعوا بور سعيد.

وطافت عينا عادل بالشاطئ، كانت المراكب التي امتلأت بالركاب تقرد قلوها، واللنشات تدير آلاتها استعداداً للرحيل، وأمام المرسى لنش أبيض صغير خالٍ من الركاب إلا من امرأة ذات ضفيرتين تلبس السواد، وتحتضن بين ذراعيها طفلاً نائماً لا ترفع عينيها الخائفتين عنه، وكأنها تستمد قدرتها على الحياة من وجوده هكذا نائماً على صدرها، وكأنها لا تشعر بوجودها إلا من خلال وجوده.

وحزن يسود المكان، حزن رقيق كالماء الرقاق يخفف من لوعته أمل في الخلاص وفي اللقاء. وفي سرعة وبلا صوت إلا صوت القبلات وعبارات مع السلامة تتردد من الأعماق، يمتلئ المزيد من المراكب واللنشات، وعلى المرسى أم تنتزع في ألم ابنها الذي تعلق بعنق أبيه، وابن يحمل أمه العجوز، وجريح مربوط الساق يتكى على كتف امرأة.

وعلى الشاطئ لم يتبق إلا عدد قليل من الناس، يقفون جماعات، ورجل عجوز يفتش الأرض ويضع يده على خده وينتظر في استسلام، وفي استسلام تنساب الدموع من عيني فتاة حلوة ممتلئة الجسم وهي تقف مع فتاة رهيفة مطبقة الشفتين ومع شابين في ملابس المقاومة الشعبية، وقد ساد الصمت الأربعة.

وليلي لا تستطيع أن تمنع دموعها من الانسياب، كانت تشعر بالهزيمة، وكأن أحداً قد ضربها علة حامية، ولم تستطع حتى أن تصرخ في احتجاج.

وقالت ليلي ودموعها تتجمع في ركني فمها:

- ضروري نساfer يا محمود؟ ما نقدرش نعمل حاجة؟ نساعد في حاجة؟

وانحنى محمود يقرب الحقائق بعضها إلى بعض، ثم اعتدل وقال في صوت مكتوم:

- إحنا حنرجع للمناقشة دي تاني! قلت لكم حتعطلونا، حترحمونا، البنات إللي عايزة تخدم صحيح تسبب البلد للرجالة.

وسعت عينا ليلي للالتقاء بعيني عصام، ورأى عصام الرجاء الصامت المُلح، وأشاح بوجهه بعيداً.

وأطبقت سناء شفيتها في غيظ.

وارتفعت صيحة نسائية تنادي من جديد:

- فائزة، فائزة.

وقالت فائزة:

- ماما بتنادي.

وقرب عادل فائزة منه، وأخذها بين ذراعيه، وقبلها في عينيها الواحدة بعد الأخرى، ومسح على خدها بشفتين مرتجتين، ثم أطلقها وهو يقول:

- مع السلامة، مع السلامة يا حبيبتي.

وتشبثت به فائزة في جنون.

وقال عادل في حزم متكلف:

- مع السلامة. وهمست فائزة:

- مش عايزة أسيبك يا عادل! مش عايزة أسيبك لوحذك!

وقالت سناء وصوتها يرتجف:

- وإسمعني إنت إللي حتفضل هنا لوحذك؟

ورد محمود في عنف أشد مما يستدعيه الموقف:

- أنا راجل!

ثم أضاف في لهجة أرق:

- أظن إحنا انتهينا من مسألة السفر دي يا سناء.

ونظرت إليه سناء في عتاب والدموع تلمع في عينيها.. منذ أن تزوجا قاسمته كل دقيقة من حياته، كل انفعالة وكل تجربة، فلماذا يريد أن ينفياها، أن يعزلها؟

وفتحت سناء فمها لتتكلم ومدت يدها لتؤكد كلامها، ولكن الكلمات جمدت على شفيتها وبقيت يدها معلقة في الهواء.

وارتفع صوت نسائي يئن بالرعب والهلع:

- فائزة، بنتي، بنتي.

ومن علو شاهق انخفض سرب من الطائرات المعادية وعلا أزيزها وهي تقترب من البحيرة.

وهمست ليلي وكأنها تصلي:

- مش ممكن، مش ممكن يا ربي، مش ممكن.

وجاء جواب تساؤلها في نظرة محمود القلقة التي ارتفعت إلى السماء.

وارتعدت يدا عادل على جسد فائزة، وقال والقلق يتسلل إلى صوته:

- اجري، اجري يا فائزة.

وابتسمت فائزة في اطمئنان وهي في حضنه وقالت:

- ولا يهملك، أهم طول النهار بينبحوا زي الكلاب المسعورة!

وارتفع صوت أم فائزة من جديد هالعا مسعورا.

وقبلت فائزة عادل من جديد وهي تقول:

- استناني يا عادل! استناني!

واستدارت تجري في اتجاه البحيرة وعادل يرقبها، وهي تتلفت ما بين الحين والحين، ووجهها يشرق بابتسامة جميلة، ويدها اليسرى تلوح لعادل، ويدها اليمنى تتطوي في احتراس على اللفة التي تحملها.

وبدأت فائزة تعبر المرسى، واستدارت هذه المرة استدارة كاملة وهي تلوح لعادل التلويحة الأخيرة.

وانكفأت فائزة على وجهها، وانحلت اللفة التي تحملها.

ورفعت المرأة ذات الضفيرتين عينيها الخائفتين عن الطفل الذي تحمله، وتطلعت إلى السماء، وصرخت صرخة مدوية ملتاعة مجنونة وهي تلوح بيديها.

واضطرب سطح البحيرة بدوائر واسعة تتخللها الفقاقيع، وبصرخات، صرخة بعد صرخة، وصرخة فوق صرخة، وكأن جبلاً من الصرخات ينتفض من الأرض إلى السماء، والصرخة قصيرة لا تستغرق ثواني، ولكنها مشحونة بالعمر كله، بالرعب، بالرغبة الجارفة في الحياة، باليأس الموجه من الحياة، بالثورة، بالحب، بالكراهية، بالاستسلام، بكل أطياف الماضي وبوارق ما كان يمكن أن يكون مستقبلاً.

ولم يعد أحد يرى شيئاً.. تفجرت الأرض، وهبت منها عاصفة كثيفة من ذرات التراب حجبت الرؤية.

وانسحبت الطائرة خفيفة بعد أن ألقت حمولتها على ناس كانوا في البحيرة وناس كانوا على شاطئ البحيرة.

وانقشع التراب ليحل محله دخان أسود لزج مختلط برائحة الشواء، دخان ينبعث من نار تتأجج على سطح البحيرة في مساحات كانت تشغلها مراكب مليئة بالناس ومراكب خالية من الناس.

ثم هدأت الصرخات واتضحت الرؤية، وشيئاً فشيئاً ضاقت الدوائر التي خلفها الغرقى على سطح البحيرة حتى استوت، وعاد الماء كعادته يتموج في سكون، وعلى سطح الماء بقايا أخشاب محترقة، ودمية من مطاط خلفتها صبية، دمية مقفلة العينين تهتز في رتابة وتبتسم.

ولم تشعر ليلى بشيء سوى أن الأرض اهتزت هزة عفيفة وكأن بركاناً قد تفجر تحت قدميها، وأن شيئاً ما قد ألقاها أرضاً. وفقدت ليلى الوعي وهي مدفونة تحت كوم من التراب.

وعندما بدأت تفيق، وقبل أن تستجمع كل وعيها خيل إليها أنها ماتت وأنها مدفونة وأن هذا التراب الذي يملأ خياشيمها ويثقل جسدها هو قبرها. وامتلاً كيانه برغبة في الاسترخاء، في الضياع والاستسلام.

ولكن شيئاً ما كان يحول بينها وبين الاستسلام، أنين متقطع يصدر من هنا ومن هناك ومن كل مكان وكأن الكون كله يئن من حولها يهزها المرّة بعد المرّة، ويحول بينها وبين الضياع.

والآن لم يعد الأنين فقط هو الذي يهزها، فهي تستطيع أن تتبين أصواتاً فزعة تنادي أسماء، ومن بين الأسماء اسمها، اسمها مختلطاً بعشرات الأسماء.

والآن لم يعد صوت واحد هو الذي يناديها، الكل يهزها، الكل يحول بينها وبين الضياع.

وفتحت ليلى فمها لتصرخ، ولكن التراب انهال في فمها، وكاد يحول بينها وبين التنفس، وأطبقت فمها وأدركت أن عليها هي أن تنفض أكوام التراب التي تراكت عليها، وأن تشق طريقها وحدها إلى الحياة.

واستندت على يديها، وبدأت ترحف، خطوة بعد خطوة، وكأنها تحمل أطناناً من الحديد، والتراب في فمها وفي أنفها، وتنفسها يضيق أكثر وأكثر، وصدرها يحترق، وأطرافها تنتلج وشيء ما يشدها إلى الأرض، شيء غير ثقل التراب، شيء لين هين لزج يدعوها إلى الاسترخاء.. دقيقة واحدة وينتهي كل شيء.. دقيقة واحدة ولا تشعر بشيء.. تمام.

ولكن الأصوات عادت تناديها وتلح في النداء، كل الأصوات، الكل يناديها، الكل يستنهضها ويحول بينها وبين الاستسلام، وشيء ما بداخلها يستجيب للنداء، شيء ينتفض في داخلها كالعملاق، شيء جديد مثير لا يتخلى عنها أبداً، شيء أقوى من النار التي تحترق في صدرها، ومن الثلج الذي يرتجف في أطرافها، أقوى من الاسترخاء، من التراب، من الموت.

وانتفضت ليلى واقفة، وغشي النور عينيها فأغمضتهما ويدها تتحسسان جسدها، وأدركت أنها خرجت من المذبحة سليمة.

وفتحت عينيها وقد اعتادت النور، ثم أطبقتهما في الحال، وجرت بعيداً وهي تترنح وكأن أحداً قد طعنها من الخلف بسكين.

وكفت عن الجري ووقفت لحظة مترددة، ثم استدارت تواجه المكان، والتقطت عيناها الصورة

كاملة، ثم بدأتا تتركزان على كل تفصيل، في بطاء وفي تمنع وكأنها تخشى أن يفوتها شيء..
في اضطراب وذهول يجري الأحياء، يخوضون الدم ويصطدمون بالأشلاء، أذرع وسيقان
وأمعاء ممزقة وجماجم متفجرة، والأحياء يدوسونها ويجرون، يقلبون جثث الموتى ويطلون في
وجوه الجرحى.

ولم يعد أحد ينادي الآن.. الموتى لا يجيبون، والجرحى أضعف من أن يجيبوا سوى بالأنين.
وبعض الأحياء كفوا عن البحث، جاءهم رد النداء.

هذا الرجل الذي ينكفى على جثة زوجته وولديه جاءه الرد.

وهذا الرجل العجوز الذي يجلس على حافة الشاطئ يبني كومة من التراب بوجه جامد ويده لا
تكفان عن تسوية التراب، وكأن كيانه كله رهين ببقاء هذا الكوم سليماً لا ينهار، هذا الرجل العجوز
جاءه رد النداء.

وهذا الشاب الوسيم الذي يلبس ثياب المقاومة الشعبية، يطوي في عناية ثوب زفاف أبيض
ملطخاً بالدم والتراب، جاءه الرد.

ماذا كانت تسميه هذه الفتاة الحلوة ذات الغمازتين؟ ماذا كانت تسمي ذلك الشاب الذي تحترق
عيناه بلا دموع، وكأنهما امتلأتا فجأة بالحصى؟ عادل. هكذا كانت تسميه الفتاة الحلوة المشرقة،
ذات الشعر المرسل والغمازتين.. كانت تتراقص بفرحة الحياة، والموت يحلق فوق رأسها، لم يدر
الموت أبداً بخيالها، لم يتسع خيالها سوى للحب، حب عادل وحب الحياة. وراحت أشلاء، ولم يتبق
لعادل سوى ثوب زفاف أبيض ملطخ بالدم والتراب، ثوب زفاف يطويه عادل في حنو، وكأنه
يربت على شعر حبيبته، وكأنه يهمس في أذنها بشيء ويعدها بشيء، وينتفض واقفاً.

وهذه الأم ذات الضفيرتين التي تقف متشحة بالسواد والماء يقطر من ثوبها، أين ابنها؟ كان
يرقد على صدرها، وكانت تحميه بذراعها فماذا حدث؟ ولماذا لا تتادي ابنها؟ ولماذا يقبض هذا
الرجل على ذراعها ويحول بينها وبين الحركة؟

جواب ندائها في البحيرة، في أعماق البحيرة، ولا خوف في عينيها ولا انتظار، لم تعد تخشى
شيئاً ولا تأمل في شيء.. ماتت وهي تقف بجانب هذا الرجل الذي يحول بينها وبين الانطلاق إلى
البحيرة.

وانطلقت صيحة فرح من محمود وهو يتحسس جسد ليلي، وتمتعت سناء بشيء وانفرطت
دموعها، وقال عصام:

- الحمد لله، الحمد لله.

ويقي وجه ليلي جامداً، وخطر يبالها أنها لم تحاول من قبل أن تتحقق من سلامتهم، وكأنها
نسيت وجودهم في غمرة الآلام من حولها، آلام الكل.

وانضمت ليلي إلى بقية الأحياء في مساعدة رجال الإسعاف على نقل الجرحى.

في سكون وبلا صوت انتقل مزيد من الجرحى من المحفات إلى عربات الإسعاف.
ولم يعد أحد ينوح، حتى المرأة العجوز ذات الشعر الأبيض لم تعد تنوح، كانت دموعها تسيل
بلا صوت، وكأن ما حدث قد استنزف قدرتها على النطق.

ولم يعد أحد يبحث بين الأشلاء، يقلب جثث الموتى، ويطل في وجوه الجرحى، سوى طفلة
سمراء في السابعة من عمرها، ما زالت تجري والأمل يحبس دموعها.

ومرت ليلي بمحمود وهو يضم جرح طفل يسيل الدم من صدره في غزارة، وركزت عينيها
عليه، وحاولت أن تشعر بشيء من العزاء لأن أخاها أفلت من الموت، وهمست وهي تردد:

- محمود حي! حي!

ومسحت ليلي حبات من العرق تجمعت على جبينها، وانحنت تسند إلى صدرها امرأة شابة
فقدت ساقها، ورفعته إلى المحفة بمساعدة رجل من رجال الإسعاف، ثم مالت عليها تغطيها بملاءة
بيضاء، والتفت عيونهما لحظة.

واعتمدت ليلي وفي كيانها ألم، ألم يستعصي على العزاء، ألم لا تخفف منه نجاة محمود شيئاً،
ولا يضيف إليه موت محمود شيئاً، ألم الشابة التي فقدت ساقها، والألم التي تتحرق شوقاً إلى مياه
البحيرة، والرجل العجوز الذي يبني قصرًا من الرمال على الشاطئ.

وسارت ليلي وهي تحمل طرفاً من المحفة في اتجاه عربة الإسعاف، وحين مرت بعادل كان
يلقي برأسه إلى الخلف وهو يهوي بفأس على الأرض يحفر قبراً لخطيبته.

ووقفت ليلي لحظة تنظر إليه مبهوتة.. كان الضوء الذي انحبس في الحفرة ينعكس في عينيها،
وفي هاتين العينين رأت ليلي نظرة أرسلت الرعدة إلى جسدها، نظرة لن تنساها ولو عاشت مائة
سنة.

وتقدمت ليلي إلى الأمام، وأقبل رجل الإسعاف الباب خلف الشابة الجريحة، وتحركت العربة
تاركة خلفها المكان، وعادت ليلي تخوض الدم، وتصطدم بالأشلاء، وتحمل الجرحى.

وأدركت فجأة أنها قد تجاوزت مرحلة الألم.. لم تعد تتألم، لم تعد تعيش في الحاضر إلا بجسدها
الذي ينحني ويعتدل ثم يتقدم ويعود لينحني من جديد. ومع ذلك يبدو ذلك الحاضر الذي تعيش فيه
بجسدها طويلاً وكأنه العمر بأكمله، طويلاً لا ينتهي، وهي تريد له أن ينتهي، تريد أن تفرغ من كل
هذا، وأن تعمل شيئاً.

واستدارت عربات الإسعاف مليئة بعمولتها الواحدة بعد الأخرى ولم يتبق إلا عربة واحدة.

وانحنى عادل، وسجى حبيبته في الحفرة، وبقي منحنياً عليها لحظة ثم استقام وبدأ - في ببطء -
يهيل عليها التراب.

وأسرعت يد الرجل العجوز تسوي في رتابة وحرص كوم الرمال الذي بناه.

وتململت المرأة ذات الضفيرتين في جلستها، ولكن رفيقة لها ثبتتها في الأرض وهي تهمس في

أذنها بشيء.

وعلى سطح البحيرة تموجت دمية مغلقة العينين تبتسم.

ولمحت الصبية السمراء وهي تجري بين الجثث والأشلاء، وتكشف عن وجوه الجرحى على المحفات، وبدأت نظراتها القلقة تتوزع بين الجرحى وبين عربة الإسعاف، وكأنها أدركت أن أملها مرتبط ببقاء العربة في هذا المكان.

ودخل آخر جريح عربة الإسعاف، ووقفت الطفلة السمراء متسمة بلا حراك، وعيناها على العربة.

وانضمت ليلي إلى سناء وعصام، وقال محمود:

- أنا رايح المستشفى، وإنّ وصلهم البيت يا عصام، بعدين نبقي نشوف طريقة ثانية، يقدروا يسافروا مع الجرحى.

وبخطوات ثابتة اقتربت منه ليلي حتى حاذته وقالت:

- أنا مش مسافرة يا محمود.

ونظر إليها محمود في استغراب، عندما تكلمت بدا له صوتها غريبًا وكأنه ليس صوتها، وكأن إنسانًا آخر هو الذي تكلم. والطريقة التي تكلمت بها طريقة غريبة هي الأخرى.. نبرة صوتها ليس فيها استعطاف ولا تهديد ولا غضب ولا ثورة، إنها نبرة غريبة على ليلي، نبرة لم يسمعها قط منها، إنها نبرة تقرير.

وقابلت ليلي نظراته لحظة ثم أشاحت بوجهها عنه بلا اهتمام، وركزت نظرها على الأفق البعيد.

وشعر محمود بالألم، لقد نظرت إليه وكأنها لا تعرفه، وكأنها لا تنتمي إليه، وكأنه ليس أخاها.

نظرت إليه وكأن شيئًا لم يعد يربطها به، لا رباط الأخوة ولا العائلة، ولا شيء، لا شيء على الإطلاق.

وانزاحت نظرة محمود عن ليلي في ألم واستقرت على سناء، وأشاحت سناء بوجهها عنه، ثم قالت وكأنها خشيت إغضابه:

- على العموم أنا جاية دلوقت المستشفى، وبعدين نبقي نفكر.

ثم أضافت في سخرية مُرة:

- أظن نحتاجوا لمرضات.

وطافت نظرة محمود بمرسى البحيرة، وعادت تستقر على ليلي، وأدرك إذ ذاك فقط أن نفس الشيء الذي حدث له أثناء معركة الفدائيين في القناة، قد حدث لها.. لقد خرجت من دائرة العائلة،

من دائرة ((الأنأ))، إلى دائرة الكل، وما من أحد يستطيع أن يوقفها الآن.
وبدت له ليلى وهي تقف هكذا متباعدة، أطول مما هي وأقوى. وقبل أن يستدير ليركب عربة
الإسعاف، مد يده ليربت على كتفها..

وبدلاً من أن يفعل ذلك، وجد نفسه يصافحها، مصافحة الند للند.
وعندما همت سناء باللاحاق بمحمود، توقف وأفسح لها الطريق،
وأغلقت سناء خلفها باب عربة الإسعاف في رفق ومضت العربة في طريقها.
وشقت السكون صرخة مدوية مجلجلة، وراحت الطفلة السمراء تجري بلا هدى وهي تنادي:
- أمي، أمي، أمي.

والنداء اليائس المفجع يتكرر وكأن الكون بأجمعه يردده.
وانتفضت المرأة ذات الضفيرتين وكأنها أفاقت من كابوس، وخلصت نفسها من قبضة المرأة
المكلفة بحراستها وانطلقت تجري. وعند شاطئ البحيرة لحق بها رجلان، واستماتت في وحشية
وهي تخلص نفسها من قبضتيهما.

وعندما وطأت البحيرة بدأت تنادي ابنها، وتوغلت في الماء وصوتها يردد النداء، وعندما وصل
الماء إلى عنقها كانت ما تزال تناديه بصوت رقيق وكأنها تغني، وكأنها تهنن ابنها على صدرها.
ولم يعد الكون يردد سوى صوت الطفلة تنادي أمها، والأم تنادي ابنها.
وانهارت الطفلة مكومة على الأرض.

وغابت الأم في البحيرة وهي تصرخ صرخة مزعزعة، فرحة، منتصرة، مجلولة.
وانهار الرجل العجوز فوق كوم الرمال وهو ينشج والدموع تتجمع في ذقنه البيضاء.
وعاد سطح البحيرة ساكناً، وعلى السطح دمية مغلقة العينين تهتز في رتابة وتبتسم.
وعندما استدارت ليلى لتلقي نظرة أخيرة على المكان، كان عادل قد سوى التراب على قبر
حبيبته.

ومن خلف القبور ارتفعت الرؤوس، واستقرت الأيدي في تحفز على المدافع الرشاشة والبنادق. ولكن إشارة البدء لم تأت بعد.

والطائرات تلقي بمزيد من جنود المظلات خلف سور المطار، والمظلات تتكور، مظلة بعد مظلة، بيضاء كالخراج المليء بالقنح.

والقوات المعسكرة بالموقع الدفاعي في منطقة الجبانة تتلمل، والأيدي ترتجف على البنادق والمدافع في غيظ، وإشارة البدء لم تأت بعد.

ومئات الأعين القلقة تنتقل بين القائد وبين المظلات التي تتفرج من الجو، والقائد يشعر بوطأة القلق من حوله، ويكاد يسمع السؤال الصامت الذي يختنق به الجو.. السؤال الذي يردده أفراد المقاومة الشعبية، وحتى جنود الجيش المدربون الذين اعتادوا إطاعة الأوامر دون سؤال: ((ماذا ننتظر؟)).

وينتظر القائد دون أن تتحرك خلجة في وجهه.

ومسحت ليلى بيدها حبات من العرق تجمعت على جبينها، وقالت لعصام في همس:

- إحنا منتظرين إيه؟

ومد عصام يداً مرتجفة وربت على يدها وهو يبتسم لها ابتسامته الخجول غير المكتملة.

وشعر كل منهما أنه قريب من الآخر، وكأن الانتظار الذي يرتجف في أعماق كل منهما قد أزال الجفوة التي قامت بينهما، حين فرضت ليلى نفسها فرضاً على عصام وتبعته إلى نقطة حراسته، وأخرجته أمام قائده.

وتلملمت ليلى في قلق، والخوف يدب إليها.

لم يكن الموت هو الذي يخيفها، لم يعد الموت يخيفها.. من

هي؟ قطرة في بحر، والبحر مواج بها ومن غيرها، وإن ماتت فهي واحدة من الآلاف الذين ماتوا، وإن عاشت فهي واحدة من الملايين الذين اغتصبوا حقهم في الحياة. لا، ليس هو الموت الذي يخيفها، ولا العدو الذي يستتر خلف سور المطار.. إن عدوها الرئيسي يرقد هنا، في أعماقها: ضعفها. وأغمضت عينيها، وأحكمت إقبال فمها حتى لا تتسلل إليه الرعدة.

وشعرت ليلى برغبة جارفة في أن ترقب مرة أخرى الناس من حولها، وأن تتشعر من جديد أنها جزء منهم، واعتدلت في جلستها خلف القبر الذي تحتمي به، ورفعت رأسها في احتراس وأمام

عينها امتدت رؤوس مغطاة بالخوذات، ورؤوس عارية.. رؤوس يختلط سوادها بالبياض، ورؤوس شابة.

وارتخي جسدها وهي ترقب هذه الكتلة الضخمة المتراسة الممتدة من الرؤوس، واستدارت وخلفها امتدت وجوه جامدة، ووجوه هادئة، صفوف متراسة منكثة من الوجوه.

وتوقف تنفس ليلي عندما استقرت عيناها على وجه من الوجوه. وانبعثت في خيالها صورة عادل وهو يحفر قبر حبيبته، يلقي

برأسه إلى الخلف، وفي عينيه النظرة التي لن تنساها أبدًا، نفس النظرة التي تراها في عيني هذا الرجل الذي حسبته عادل، نفس المزيج من الحب، من الكراهية، من التحدي، من الإصرار، من الاعتداد الوثائق المطمئن.

وتنهدت ليلي في ارتياح، وعادت عيناها تطوفان بالوجوه، وجهًا بعد وجه، وفي مختلف الوجوه رأت شيئًا فاتتها رؤيته من قبل، نفس النظرة التي رأتها في عيني عادل.

واستدارت ليلي تنظر إلى الأمام وهي منتشية، وشعرت أنها قوية..

لم تعد وحيدة، إنها معهم الآن.

معه، ومعها الحب الذي يضطرم في قلوبهم والكراهية، وشيء ما من ذلك الاعتداد الوثائق المطمئن.

وانبعثت أمام ليلي صورتها وهي تتحني لتتنشل المجذاف الغارق في النيل.. نعم، في اللحظة المناسبة ستدفع الإنسانية الأقوى الكامنة في أعماقها الباب، وتخرج لتتصرف في هدوء وبرود وحكمة، كما يجب أن تتصرف تمامًا. نعم، في اللحظة المناسبة ستحدث المعجزة.

واغرورقت عينا ليلي بالدموع وكأنها ترقب رؤيا جميلة.

ورأى عصام الدموع في عينها وأرجعها إلى الخوف وقال:

- أرجعي يا ليلي، الباب قريب، ازحفي لغاية الباب. وازداد صوته نغمة وهو يهمس:

- إنت ست ما حدش حيلومك، ودا مش مكانك!

وشعرت ليلي بالدوار الذي يشعر به من يتطلع إلى أسفل من مكان شاهق الارتفاع، وفي أعماقها ارتجف العجز من جديد.

هل تستطيع؟ هل تصمد وهي امرأة، امرأة لا غير؟ ومن أين لها القوة؟ من أين؟

وبدأت طائرات العدو تنزل فوجًا جديدًا من رجال المظلات داخل أرض المطار، في متناول نيران قوات الدفاع المعسكرة في منطقة الجبابة.

وفي نفس الوقت بدأت الريح تعوي وتصفر وتهب هبات عنيفة غاضبة وتنتشر في الجو ستارًا أصفر من ذرات الرمال، والطائرات تنزل حمولتها داخل المطار.

وحملت الريح جانبًا من المظلات بعيدًا عن المطار، بعيدًا في اتجاه منطقة مجاورة من المساكن الشعبية.

وأعطى القائد إشارة البدء.

- اضربي .. اديله.

ارتجف صوت امرأة عجوز مقعدة وهي تتحني تحد النظر إلى الأمام، وعلا عويل الطفل الذي تحمله بين يديها.

وارتفعت يدا امرأة فتية بقطعة ثقيلة من الحجارة، وهوت بها على رأس جندي من جنود المظلات وهو يهم بالاستواء، فسقط على الأرض مهشم الرأس.

ورفعت المرأة الفتية قامتها، ومدت يدها اليسرى تمسح حبات من العرق تجمعت على جبينها، وقبل أن تبلغ يدها جبينها اندفعت تجري إلى الأمام وهي تصرخ صرخة عالية مجلجلة.

لمحت مزيدًا من المظلات تتساقط في الفضاء كالخفافيش.

ووصلت الصرخة للنساء وهن داخل أكواخهن يعددن الطعام للأطفال، ولأزواج ولأبناء قد يعودون، وقد لا يعودون. مع الصرخة إدراك أن الخطر الذي خرج له الأبناء والأزواج قد جاء يديق الباب.

وانفتحت أبواب الأكواخ الخشبية المتداعية في عجلة، وخرجت النساء مسلحات بالسلاح الذي أُعد من قبل، لمواجهة هذا الموقف: أعناق الزجاجات المكسورة والسكاكين والمطاوي وأيدي الهون.

ووصلت الصرخة العالية المجلجلة إلى الأطفال وهم ينتظرون في رهبة وفضول أمام كوخ يقف في معزل، بعيدًا في أقصى اليمين. وتفرق الأطفال مذعورين.

وفي داخل الكوخ قفزت امرأة جالسة وقد ارتسم الرعب على وجهها، وانحنى بنصفها الأعلى على نصفها الأسفل حين داهمها من جديد، الألم الذي ما يزال يداهمها منذ الصباح.

وتوقفت يدا القابلة على طرفي صفيحة مليئة بالماء المغلي، كانت تهم برفعها من فوق موقد الغاز.

واعتدلت القابلة وجرت إلى الباب ووقفت لحظة تتطلع حولها. وأنت المرأة التي تلد في رعب، والعرق يتساقط من جبينها على عينيها وقالت في صوت مخنوق:

- فيه إيه؟

وعادت القابلة إلى داخل الكوخ بوجه جامد، وأمسكت بخزقتين، ورفعت صفيحة الماء المغلي

بين يديها، وسارت في اتجاه الباب من جديد في خطوات سريعة ثابتة.

وصرخت المرأة الشابة صرخة يأس موجعة، وزحفت خلف القابلة، والعرق يكاد يعميها، وجسدها يتقلص تقلصات سريعة متتالية.

وعند عتبة الباب لحقت بالقابلة، وتشبثت بساقها في جنون وهي تتمتم:

- ما متسيبينيش لوحدي! ما تسيبينيش...

ولم تستطع الشابة أن تكمل كلامها.. داهمها الألم من جديد، أقسى وأعنف وأحد، ألم لا يطاق. وشعرت بشيء صلب مستدير يكاد يطل من جسدها، ودمدمت:

- أنا خلاص! خلاص!

وأدارت القابلة رأسها وهي تقف على عتبة الباب، ونظرت إلى الشابة الممددة خلفها، والتقت العيون لحظة.

وفي عيني القابلة رأت المرأة الشابة ما يحدث في خارج الكوخ، رأت الموت الذي يهددها، ويهدد الحياة التي تنتفض في أحشائها. وارتخت يدا الشابة عن ساق القابلة، وتكومت على الأرض، وانفجرت باكية.

وخرجت القابلة من الكوخ، والبخار يتصاعد من الماء المغلي. ورفعت المرأة الشابة رأسها، وتوقفت الدموع في عينيها، وبدأت ترحف، وفي احتراس تمددت على فراشها، وسحبت ملاء بيضاء، وغطت جسمها.

إنها لم تلد من قبل، ولكنها ستلد، ستلد وحدها، رغم كل شيء.. الطفل في بطنها، وهو يريد الخروج، وما عليها إلا أن تساعد.. يجب أن ترتخي لتساعده.

ولكنها لا تستطيع أن ترتخي.

صرخة رعب يصطك لها جسمها، وعويل طفل، وتهليل مكتوم، وانتظار.. وخطوات تتدافع، ونداءات مختلطة، ودبيب أقدام على الأسطح وكأن خيولاً تجري، وصوت المرأة المقعدة يرتجف في الفضاء:

- اضربي.. اديله.

وأنين، وعواء كلب، ودخان أسود يتسلل إلى الكوخ، وماء يطش على النار، وصرخات موجعة، وسكون أقسى من الضجة.

وجموع تتدافع وتصطك بالجدران الخشبية، وطلقات نار، وصوت المرأة العجوز المقعدة يرتجف في الفضاء، وانفجار ضخم يهتز له الكوخ حتى يكاد يسقط على رأسها.. وانتظار أقسى من الانفجار.

ووجه الشابة الممددة على الفراش يتقلص، وجسمها يتقلص، وهي تعض على جانب من الملاء

البيضاء مكوم في فمها... يجب، يجب أن ترتخي وإلا سيموت الطفل في بطنها.
وأخرجت المرأة الملاءة التي تكومت في فمها، ومسحت بها العرق الذي يبيل وجهها. وحاولت - بطاقة لا تستطيعها إلا أم - أن تركز انتباهها في الطفل الذي يهدده الموت في بطنها.
وشياً بعد شيء، تلاشى العويل والأنين والنار والدخان والخطوات المذعورة، وأصوات الرعب المستطيلة، وأصوات الانتصار المكتومة، تلاشى العالم الخارجي، ولم يعد في وعي الأم سوى الطفل الذي يريد الخروج إلى الحياة.
وبينما كان الأطفال يخرجون من مخابئهم، والأطفال الكبار يجمعون المدى والسكاكين والحبال التي استخدمت لاصطياد جنود المظلات، وبينما كانت النساء يجفن عرقهن وبرؤوسهن دوار، وكأنما استيقظن فجأة بعد حلم مخيف، وقبل أن يحسبن خسارتهم ومكاسبهن، وقبل أن يدركن تمام الإدراك ما قمن به، دوت في الفضاء صرخة ضعيفة متقطعة.
وما لبثت الصرخة أن اتصلت واستطالت، قوية، مجلوة، مزهوة، مزغردة.. صرخة الحياة.

* * *

وصرخت ليلى صرخة مجلوة مزهوة مزغردة، والكتل الأدمية تدفعها إلى أرض المطار.
كان الفوج الثاني من جنود المظلات قد أبيد على أرض المطار، وفلول الفوج الأول تتراجع أمام القوات المصرية.
والطائرات الإنجليزية تحوم حول المكان حيث تلتحم القوتان، ولا تستطيع أن تقربه، فتنحسر عنه عاجزة.
وتتتالي الانفجارات في أماكن متفرقة من المدينة، وتتدلع الحرائق في مستودعات البترول، وفي البيوت، وفي الشوارع.
والقوات الإنجليزية تحاول الإفلات من الحصار والعودة إلى مخابئها خلف سور المطار، والقوات المصرية تواصل الضغط، تحول بينها وبين الإفلات.
والأرض تتفجر، وعواصف من رمال، ونار تتأجج من المدافع، وطلقات كالسيل تترك دوائر واسعة في الرمال، ودخان أبيض، ونقط خضراء تلتهم أمام العيون.
وجثث تتساقط، وجرحى وقتلى يسحبون إلى الخلف، وناس تتدافع تحل محل الجرحى والقتلى.
وبين القتلى عصام، وبين الجرحى ليلى.
والحلقة تضيق على القوات الإنجليزية، وحلقة النار تضيق على المدينة.
والشمس توشك على المغيب، والعنمة تتسلل إلى المكان.
ونار كالنور تتأجج، تحول بين الظلمة وبين الاستقرار، وتكشف من بعيد عن العدو وهو

يتقهر.

ولم يكن جرح ليلي جرحًا خطيرًا، كان جرحًا ظاهريًا، وبعد أن استخرجت الشظايا التي استقرت في كتفها اليمنى بدأت تتحسن.

وفي البداية استغرق الألم كل حواس ليلي.. ألم لا عنف فيه، ولا قسوة، ولكنه ممض متواصل، يملئ وجوده عليها بحيث لا تشعر بسواه، ولا تفكر في سواه. وحاول طبيب المستشفى أن يحقنها بمخدر ليجنبها الألم، ولكنها رفضت، وكأن من الضروري لها أن تمر بهذه المرحلة من الألم. وعندما بدأ الجرح يلتئم توقف الألم.

وكفيض طال كبته، انسالت أفكار ليلي والصور تتتالي عليها وتتراكم: وهي في المعركة وطلقة تمر إلى جانب أذنها اليسرى، وأخرى تصطدم بالأرض، وسيل من الطلقات ينهمر، ويترك في الرمال دائرة واسعة، والدائرة تضيق حولها، وكأن يدًا غير مرئية تحكم الدائرة على رقبتها.. وهي الآن تتراجع أمام أبيها وقد حمت عنقها بيديها، ورمزي يسد الطريق ويقول: ((مفیش فايدة)).. وهي على السطح في بيتهم تتطلع إلى كتل الدخان الكريهة يوم حريق القاهرة، وحسين يقول: ((دي مش النهاية يا ليلي)).. وهي تتمشى على البحر في رأس البر، وحسين يمر بإصبعه على ذراعها ويهمس في أذنها: ((أنا مستنيك يا حبيبتي، طول عمري مستنيك)).. وهي في حجرتها في رأس البر، وقبضتها متشنجة على الباب المغلق، ومحمود يصيح: ((مع السلامة يا حسين)).. وهي الآن تتدلى على السور وخيوط المصعد تجذبها إلى أسفل.. وإلى أسفل يجذبها ثقل التراب وهي مدفونة في مرسى البحيرة، وتحت التراب ترحف.. على البلاط بعد أن ضربها أبوها.. وهي الآن تنتفض واقفة تنفض عن نفسها التراب، وحسين يقول: ((عارفة حتلاقي إيه؟ حتلاقي نفسك، ليلي الحقيقية)).. وهي تتحني تعبئ بنديقتها بيدين ترتجفان، وترفع رأسها في احتراس، وترى العدو الذي يحكم دائرة النار عليها، تراه بوجهه المليء بالنمش وبشاربه الأصفر الكريه، وتنتفض واقفة، وتصوب، وينطرح العدو على مدفعه الرشاش، وتتكسر الدائرة.

كم عدواً قتلت؟

في البداية، عندما كان الفوج الثاني ينزل بمظلاته على أرض المطار، كان من الصعب أن تقرر إذا كانت رميتها قد أصابت أو لم تصب.. كان الجندي ينطرح على الأرض والنقوب تملأ جسده، وكأن الكل قد قتله.. وبعد ذلك...

وقفزت ليلي جالسة في سريرها وهي ترى العدو يتراجع أمامها، أمامها هي.. ومدت يديها تحتضن كتفيها وهي تسكن فورة الحب والاعتزاز والاعتداد التي اجتاحت جسمها.. وكل شيء حدث كما يجب أن يحدث تمامًا، لم تخطئ في شيء، لم يفتها شيء، قامت بما يجب أن تقوم به تمامًا.

وتمددت ليلى على السرير من جديد عندما بدأ الجرح يؤلمها.. ستعيش لترى العدو يتراجع نهائياً من بور سعيد، ستكرس العمر كله - لو اقتضى الأمر - لتراه وهو يتراجع أمامها، أمامها هي.

وتنهدت ليلى في ارتياح، واستدارت شفتاها في ابتسامة عندما لمحت محمود يدخل الحجرة. وقال محمود وهو يزيع الستار عن النافذة:

- هيه؟ إزاي الحال النهارده؟

وتدفق النور إلى الحجرة، وتمطت ليلى في سريرها وهي تقول:

- عال.

- والألم؟

- راح.

وجلس محمود على طرف السرير، وأمسكت ليلى بيده وقالت:

- محمود، أنا عايزة أخرج من المستشفى.

- مستعجلة على إيه؟

وتطلعت ليلى إلى الأمام، وتألقت عيناها ببريق وهاج وهي تقول:

- ضروري يا محمود.. ضروري.

- إنت متأكدة إن حالتك تسمح لك بالخروج؟ ومالت عليه ليلى وهي تقول بصوت متهدج:

- أنا عمري ما كنت أحسن من كده يا محمود، عمري!

وتغلب محمود على دهشته وهو يقول:

- على العموم لما نشوف رأي الطبيب المعالج.

* * *

وبعد أن خرج محمود حاولت ليلى أن تستعيد صورة أبيها وهو يتقدم نحوها بخطوات قصيرة كآلة مسلطة لسحقها، وأن تسمعه وهو يصرخ بصوت مشروخ ويقول: ((عايزة إيه إنت كمان؟)).

وفي أذنيها تردد صوته وهو يبكي كالطفل الخائف يوم بلوغها، وفي خيالها انبعثت صورته وهو يميل على المائدة والدموع تلمع في عينيه ووجهه وقد لان في ابتسامة حنان.

وحاولت ليلى أن تستعيد صورة رمزي وهو ينظر إلى صدر جميلة وعلى فمه تكشيرة كتكشيرة الحيوان المفترس، ورأت وجهه وهو يحمر تحت نظرة جميلة كوجه صبي مراهق، وحاولت أن

تتصوره كما كان يبدو لها دائماً في الفصل جباراً عتياً، ورأته وهو يمد يده يجفف عرقه في عز البرد.

وهي الآن تقف أمام مكتبه، تواجهه في تحدٍّ، ويده ترتجف على حافة المكتب، وشفته ترتجف وهي تميل تجاهه في حجرة الجلوس وتقول: ((تحب أقول لك إيه إلهي كان ناقص لي؟)).. وملابس التدريب العسكري تتأرجح في يدها وهي تقف تجاهه على عتبة الكلية وتبتسم في وجهه ابتسامة من يأخذ طفلاً صغيراً على قدر عقله.

ونفرت العروق في جبين ليلى، ولم تستطع أن تتخيل صورة رمزي وهو يسد الباب ويقول: ((مفيش فايده)).

وفيما بعد، حاولت أن تستعيد صورته في مخيلتها في أي وضع من الأوضاع، ولكنها فشلت في محاولتها.

واكتشفت ليلى أن صورة رمزي قد انطمست في خيالها وكأنها لم تكن.

وهزت ليلى رأسها في تعجب.. ممَّ كانت تخاف؟! من أبيها؟! من رمزي؟! وابتسمت وهي لا تكاد تصدق أن كل ذلك حدث لها، لها هي.

وأمام عينيها انبعثت صورتها وهي تندفع إلى أرض المعركة، والعدو يتراجع أمامها.. لا بد، لا بد أن ترى العدو وهو يتراجع من بور سعيد، وهي تستطيع.. كل شيء تستطيعه، لا شيء أصبح الآن مستحيلاً.

وقفزت ليلى من سريرها في انفعال، وعيناها تتألقان ببريق وهاج، وبدأت تدور حول نفسها وهي تحاول أن تجمع حاجياتها، وكأنها لا تعرف من أين تبدأ، واصطدمت يدها بملابسها المعلقة على الشماعة ولم ترها، وعادت تدور حول نفسها وهي تبحث عن حاجياتها.

وتوقفت ليلى في وسط الحجرة وعيناها تتطلعان إلى الأمام وتتوهجان وكأنها ترى رؤيا رائعة الجمال، وسمعت صوتاً يناديها واستدارت وهي تمد ذراعيها إلى الأمام وتصيح: ((حسين!!)).

وأفاقت ليلى حين لم تجد في الحجرة أحداً، وببيدين ثابتتين، وبشفتين مطبقتين، بدأت تجمع حاجياتها.

ولكن حسين كان معها كما لم يكن قط من قبل، وكأنه أصبح حقيقة تستطيع أن تمد يديها وتحببها.. وعيناها تدويان في نظرة حنان وهو يميل بوجهه نحو وجهها، وأنفاسه تثير شعرات على خدها الأيمن فتعيد تسويتها. وتستأنف جمع حاجياتها بيدين ثابتتين، وبشفتين مطبقتين.

بدأت حركة المقاومة مع بدء احتلال القوات الإنجليزية والفرنسية لبور سعيد، وفي كل يوم كانت حركة المقاومة تتضخم، وهي تضم إليها مزيداً من الرجال والنساء.

وتحت قيادة منظمة تفرقت وحدات المقاومة، متخفية في البيوت، وفي عيادات الأطباء، وفي المحلات التجارية، وفي كل ركن من أركان بور سعيد.

وفي بيت قديم في شارع عبادي، وفي شقة مواطن مصري، وقف خمسة شبان يدرسون مواقع تجمعات العدو، والطرق المؤدية إلى هذه المواقع على خريطة كبيرة لمدينة بور سعيد.

وكان هؤلاء الشبان ينتمون إلى سلاح المهندسين بالكتيبة الرابعة المشاة التي حمت انسحاب القوات المسلحة في طريق أبو عجيبة- الإسماعيلية، ثم تحركت إلى بور سعيد لتعزيز الدفاع عن المدينة.

ومن بين هؤلاء الشبان الخمسة، كان حسين عامر، الذي عاش المعركة في كل مراحلها منذ أن بدأت في سينا حتى انتهت بانسحاب العدو من بور سعيد.

* * *

وبعد بدء حركة المقاومة بأسبوع قابل حسين محمود.

كان حسين قد كلف بتوصيل بعض التعليمات إلى وحدة من وحدات المقاومة، وعندما دخل الحجرة التي يجتمع فيها أفراد الوحدة، اكتشف أن من بينهم محمود.

وارتجفت يدا حسين وهو يعانق محمود، وفي صعوبة تمالك نفسه وبدأ العمل الذي جاء من أجله.

ولخص محمود نشاط وحدته، وبدأ حسين يخبر الموجودين بالنجاح الذي حققته بقية الوحدات في ميدان المقاومة، وسادت المجتمعين فرحة معتدة والمستقبل يتفتح أمام أعينهم.

وارتجف الرجاء في قلب حسين.

وحين انفرد حسين بمحمود بعد الاجتماع سأل عن ليلى. وعندما علم بالدور الذي قامت به في المعركة طلب مقابلتها، وحدد له محمود موعداً.

وقبل الموعد المحدد خرجت سناء، وتركت ليلى تنتظر حسين في البيت.

* * *

وعلى عتبة الباب المفتوح وقفت ليلى تواجه حسين.

ورفعت رأسها إليه وهي تتلقى نظراته التي انصبت على وجهها، ووقفا هكذا، بلا كلام، وعيناها في عينيه.

وفي عينيها تفجرت العاطفة التي طال كبتها، والفرحة المزهوة بهذه العاطفة، وفي شفتيها، وفي وجنتيها، وفي أطراف أصابعها، وفي كل ذرة من جسدها، وكأنها نور شفاف ينساب مع الدم الذي جرى في عروقها.

وفي نظراته تتالت الدهشة، وفرحة غامرة، لقد جاء ليراها ربما للمرة الأخيرة، واكتشف فجأة أنه سيصبح كل يوم على وجهها.. جاء وهو يحسب أنها فتاة رجل آخر، وحببية رجل آخر، واكتشف وهو يقف على عتبة الباب المفتوح، أنها فتاته هو، وحبيبته هو، إنها له هو.

وفي عينيه تدفق حنان سنين، وشوق سنين، وحرمان سنين، وفرحة كادت تفقده توازنه.

وبصوت يرتجف ناداها، وببيدين ترتجفان قريبا منه.

وعلى صدره العريض أراحت رأسها، وودت لو توقف الزمن وظلت هكذا تريح على صدره العريض رأسها، وقلبا ينتفض فوق قلبه. مع قلبه.

ويدها تنتفضان على شعرها، وتنسحبان إلى كتفيها تتحسسانها من جديد، والفرحة تعتصر قلبه، والحلم لم يعد حلمًا، والسراب الجميل أصبح حقيقة في أحضانه.

وشعر حسين برغبة جارفة في أن يتأمل وجه ليلى، وفي رقة متناهية مسح بظهر إصبعه على أسفل ذقنها، ورفعت إليه وجهها، وبعينين تترقرقان نادته، وبشفيتين منفرجتين، وبإشراقة لفتهما معًا.

وأمال حسين وجهه إلى وجهها، وفي بطء سعت شفاته إلى شفتيها وكأنه يريد أن يستوعب اللحظة، وكأنه يضمن بها، ويخشى أن تتقضي.

وارتجفت شفاه حسين على شفتي ليلى، ولفتهما نشوة أشبه بالغفوة.

ووصلت إلى سمعتهما خطوات تدب في الشارع، خطوات ثقيلة رتيبة.

وتبددت الغفوة.

وجمد وجه ليلى، وارتسمت الكراهية في عينيها، واعتدل حسين وهز رأسه وكأنه يفيق من حلم على حقيقة كئيبة.

واستدارت ليلى وسارت إلى النافذة، وأقبل حسين باب الثقة ولحق بها.

وفي حرص أراحت ليلى طرفًا من الستار الذي يغطي النافذة، ورأت دورية إنجليزية تمر بالشارع الخالي، وشعرت بانسحابه في قلبها وكأن نصلًا قد اخترقه.

وارتطمت يد ليلي بالنافذة وهي تعيد الستار إلى مكانه، واحتك الخاتم الذهبي بالزجاج محدثاً رنيناً، وبسطت ليلي يدها، وهي تنظر في استغراب إلى خاتم الخطوبة، وكأنها كانت قد نسيت أنه يحتل إصبعها.

وعادت ليلي تزيج الستار، وعاد النصل يخترق قلبها من جديد، وقالت في صوت هامس وهي تتابع الدورية التي كادت تختفي من الشارع:

- دي مش النهاية يا حسين.

وقال حسين في شيء من الاستكار:

- دي مش أول مرّة تسأليني السؤال ده يا ليلي.

وابتسمت ليلي ابتسامة خفيفة، واستدارت تواجهه وهي تقول:

- دا مش سؤال يا حسين، أنا باقر حقيقة.

وسارت في خطوات هادئة إلى مقعد مواجه لحسين وجلست.

وتركزت نظرة حسين على وجه ليلي، وجذب انتباهه شيء لم يره قط في عينيها حتى وهي في أوجها.. مزيج من الاعتداد المطمئن، ذلك المزيج العجيب النادر الذي لا ينعكس إلا في عيني إنسان وجد طريقه، وعرف بتجربته أنه من القوة بحيث يستطيع دائماً أن يقف إلى جانب ما يعتقد أنه الصواب.

وقال في رقة وهو يقترب منها:

- إنت اتغيرت يا ليلي.

وهزت ليلي كتفها هزة خفيفة وقالت:

- ومين ما اتغيرش يا حسين؟

واستقرت نظرتها على حسين لحظة، وتهدج صوتها وهي تقول:

- ودلوقت حنعمل إيه؟

وكادت الكلمات تتدفق جياشة من فم حسين.. ظن لأول وهلة أنها تشير بسؤالها إلى مستقبلهما معاً، ثم توقفت الكلمات على لسانه، أدرك بقدرته العجيبة على فهمها أنها تعني بسؤالها شيئاً آخر، أهم وأشمل.

وقال بعد فترة توقف:

- القيادة عاملة حساب كل شيء، وحركة المقاومة بدأت فعلاً.

- وإنت؟ مشترك؟

وهز حسين رأسه بالإيجاب دون أن يتكلم.

ومالت ليلى برأسها إلى الأمام، وقالت:

- وأنا؟ أقدر أساعد في حاجة؟

واستقرت نظرة حسين على الخاتم الذهبي الذي يطوق إصبع ليلى وقال في استغزاز:

- تقدرى؟

- عندك شك؟

ولانت ملامح حسين في ابتسامة، وهز رأسه وهو يستبعد الشك في قدرتها، وقال في صوت هامس ينبض بالحنان:

- أنا طول عمري وأنا مؤمن بك.

ولمعت عينا ليلى بالدموع وهي تقول:

- حتى لما كنت مش مؤمنة بنفسى يا حسين؟

ولكن شيئاً ما كان يشد نظر حسين إلى الخاتم الذهبي ويجعله يقول في صوت غاضب:

- ودلوقت حتعملي إيه؟

وقامت ليلى واقفة وهي تقول:

-جاية وياك.

وحين رأت الدهشة التي ارتسمت في وجهه ابتسمت وهي تقول:

- عايزة أنضم للمقاومة، مش تقدر ترشحنى؟

وابتسم حسين وهو يهز رأسه في تعجب، وقال في خفة:

- كفاية مفاجآت النهارده، أحسن أعصابى ما عادتش مستحيلة!

وضحكت ليلى ضحكة قصيرة، وقالت في عناد طفولي:

- حترشحنى ولّا لأ؟

وقال حسين وهو يختبر مدى صلابتها:

- المسألة مش سهلة يا ليلى، مش مسألة يوم ولّا اتنين، المقاومة جاوز تطول، وجايز تقتضى إنك تختفى شهور.

واستدارت ليلى وهي تقول:

- حاجيب الباطو.

ووضع حسين يده على كتفها يستوقفها، وأدارها برفق إليه، وقال وهو يركز عينيه في عينيها:

- وأهلك يا ليلي؟

- محمود يبقى يطمئنهم عليّ.

وتنهّد حسين في ارتياح، واستدارت ليلي ومضت إلى حجرتها.

وحين اختفت علا الوجوم وجهه وهو يفكر، وكأن شيئاً ما يحول بين سعادته وبين الاكتمال.

وخرجت ليلي من حجرتها وقد لبست معطفاً أبيض فوق ثوبها الصوف الأبيض.

وأشرق وجه حسين حين رآها، وكأن كل مخاوفه قد زالت، وكأن كل أحلامه قد تحققت.

وقالت ليلي:

- يلاً بينا.

وسبقت حسين إلى الباب المفتوح.

كانت شوارع بور سعيد تزدهم بالناس، أمواج متلاطمة من الناس وكأن البيوت قد خلت من سكانها، وقذفت بهم إلى الشارع موجة إثر موجة، لتختلط ببحر مائج من الناس.

ناس يضحكون، وناس يبكون بالدموع وهم لا يعرفون أي دموع هذه، أهى دموع الفرح بالخلص؟ أهى دموع الذكريات الأليمة التي طغت فجأة على السطح في يوم الجلاء؟ أم هى دموع التطلع إلى مستقبل أفضل؟

وناس يحملون لافتات النصر، وناس يهتفون، وناس يرقصون على الوحدة، وناس يصفقون وملء قلوبهم نشوة النصر، وملء عيونهم الغد.

وفي أعماقهم إدراك أن ما حدث كان لا بد أن يحدث، أن ما حدث كان ثمن النصر.

وناس خرجوا يحملون الزهور إلى موتاهم، ولم تصل الزهور إلى موتاهم، في الطريق نثروا الزهور على موكب النصر، موكب الغد.

فمن أجل الغد مات موتاهم.



وعند نقطة التقاء القناة بالبحر، وعلى مبعدة من تمثال ((ديليسبس))، وقفت جموع من الناس تنتظر في سكون، وشاب في ثياب المقاومة الشعبية يقف على آخر درجات سلم مرتفع ويحفر بمتقاب حفرة في جسد التمثال.

وفي هذه اللحظة لم يكن التمثال تمثالاً بالنسبة للشاب الذي يحشو الحفرة بالمفرقات، ولا بالنسبة للناس الذين ينتظرون الانفجار واجفي الأنفاس.. كان رمزاً لكل ما توارثوه عن عصور من العبودية والاستعمار، رمزاً يشدهم إلى ماضٍ بغيض، ويحول بينهم وبين الاندفاع إلى مستقبل أفضل.

وكان لا بد أن يتحطم الرمز.

ومال الشاب على قاعدة التمثال، وأشعل الفتيل، وتراجع إلى الخلف منضماً إلى الجماهير.

ومادت الأرض من أثر الانفجار، وعلت موجة من الدخان والتراب حجبت الرؤية.

ثم علت هممة استنكار.

وصاحت ليلى في انفعال:

- الراس، الراس بس إللي انهدت.

لم يتحطم سوى رأس التمثال والطلاء، وبقي رابضاً مكانه كما لو كانت جذوره ممتدة في الأرض.

وأمسك حسين بيد ليلي، وتململ محمود في وقفته، رأى نفسه وهو يدفن وجهه في كفيه ويقول بعد حريق القاهرة: ((هدر، دم وراح هدر)).

وغامت عينا سناء، وهي تتذكر فجأة أباه وأمه اللذين قاطعاها من يوم زواجها بمحمود.

وارتجفت يد ليلي في يد حسين، ورأت جميلة ممددة على الشيزلونج وصدقي يركع إلى جانبها، وسمعت رمزي يقول: ((دي قوانين طبيعة، الطبيعة عايزة كده)).

وصرخت ليلي في انفعال:

- الأصول، ضروري الأصول.

وعادت تصحح جملتها:

- الأساس، المهم الأساس.

وتدافعت الجماهير في إصرار في اتجاه التمثال، وضافت الحلقة حوله من جديد، وارتفع الشاب على السلم، وبدأ يحفر التمثال بالمتقاب.

واستغرقت العملية مدة أطول هذه المرة، كان عليه أن يصل إلى الأعماق، إلى أعماق الأعماق.

وحين فرغ من عمله وأشعل النار في الفتيل، ردد الفضاء صدى انفجار كبير.

وتناثر التمثال وقاعدته إلى أشلاء.

وتنهدت ليلي في ارتياح.

وتردد في أذنيها صوت انفجار آخر في المعركة، انفجار يعلن موت عصام وموت أعدائه، ورأته يقفز كالنسر من فوق السور والدماء تتزف من جراحه، ويده اليمنى مطوية على قنبلة، ووجهه الشاحب يتألق بشفافية أثيرية، وعيناه تلمعان ببريق وهاج، وكأنه يرى رؤيا رائعة الجمال.

وارتفع صوت الناس كالهدير، وانطلقوا في موجة جارفة إلى الأمام، وملأوا المسالك المتفرقة من المكان.

أمسك حسين بيد ليلي حتى لا يفقدها في الزحمة التي ابتلعت محمود وسناء.

ودفعت الجماهير ليلي وحسين، وانفجرا يضحكان وهما يندفعان وكأن موجة عاتية تحملهما إلى الأمام.

وخف الضغط، ولم تتوقف ليلى، استمرت تجري ويدها في يد حسين، وهي تضحك ضحكاتها القصيرة المتقطعة كوقع الأجراس الموسيقية.

كان لا بد لها أن تندفع، أن تجري، أن تضحك، أن تفعل شيئاً بهذه الفورة من السعادة التي ترفرف كجناحي الطائر، في صدرها وفي شفثيها وتحت بشرتها وفي أطراف أصابعها.

ونظر حسين إلى شعر ليلى الذي تتأثر على جبينها، وإلى الوهج الذي يتألق في عينيها، وأدرك أنها قد استعادت الإشراقة التي انتظر طويلاً ليراها من جديد.

لقد قابل ليلى مرتين أثناء فترة المقاومة، ولم يكن في عينيها هذا البريق، ولكنه عاد، ومعه الإشراقة التي كادت تجعله يصرخ حين رآها في المصعد لأول مرة.

وخفق قلب حسين بالفرحة، وضغط على يد ليلى التي رقدت في استسلام في يده.

وصاحت ليلى في انفعال:

- حسين!

ولم يكن بها حاجة إلى أن تصيح، كان حسين قريباً منها، تكاد كتفه تلمس كتفها، ومع ذلك صاحت من جديد بصوت يتهدج:

- حسين.. أنا عايزة أوريك حاجة.

وتوقفت ليلى، وسحبت يدها من يد حسين، وبسطتها إلى الأمام في انتصار.

وأدرك حسين أن ليلى قد رمت خاتم الخطوبة.

وأمسك بكتفها وصاح وصوته ترتجف بالانتشاء:

- أنت حرة، حرة يا حبيبتي.

وأرخت ليلى ذراعيها، وشعرت بسكينة حلوة تسلل إلى جسمها، سكينة أجمل وأعمق من الفورة التي كانت تختلج فيه، ونظرت إلى حسين وابتسمت.

وتقدمت إلى الأمام وحسين لا يرخي عينيه عنها.. لا ليست نفس الإشراقة القديمة، إنها إشراقة جديدة، الأولى كانت فورة، لمعة تبرق لتتطفئ، كالشمس في يوم مليء بالغيوم. أما هذه فنور هادئ دافئ متصل، نور ينبع من الداخل.

وتتهد حسين في ارتياح وهو يقول:

- أخيراً.. وصلنا.

وتألق وجه ليلى وهي تنظر إلى الأمام وكأنها ترى رؤيا رائعة الجمال. وقال حسين:

- كام سنة وإحنا منتظرين اليوم ده؟

وطافت عينا ليلى بالناس وهم يهللون في انتصار، وقالت:

- العمر كله.

وركز حسين عينيه في عينيها، ومر بإصبعه على ذراعها، ورق صوته حتى كاد يهمس وهو يقول:

- أنا وأنت يا ليلي.

ولمعت الدموع في عيني ليلي:

- العمر كله برضه يا حسين.

وبطؤت خطوات ليلي وحسين، وran الصمت بينهما لحظة والانفعال يثقلهما.

وأرادت ليلي أن تتخفف من حملها، وأمالت رأسها إلى كتف حسين، ولمعت عيناها بنظرة فيها شقاوة، وقالت وكأنها تلعب لعبة مسلية:

- دي النهاية يا حسين؟

وأشرق وجه حسين وكنم ضحكته وهو يجاريها في لعبتها:

وأشرق وجه حسين وكنم ضحكته وهو يجاريها في لعبتها:

- دي مش أول مرّة تسأليني السؤال ده يا ليلي.

وانفجرا ضاحكين كطفلين يلهوان.

وساد الصمت بينهما من جديد، وهما يتطلعان إلى الجماهير المتدفقة أمامهما وخلفهما، وكأنها موجة عاتية منتصرة جارفة تندفع إلى الأمام.

وقال حسين وعيناه تزدحمان بعمق عاطفته:

- دي البداية يا حبيبتي.

جدول المحتويات

١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
٩٩
١٠
١١
١٢
١٣
١٤
١٥
١٦
١٧
١٨
١٩
٢٠
٢١
٢٢
٢٣
٢٤
٢٥
٢٦
٢٧
٢٨
٢٩
٣٠